وزارة المعارف العمومية

كتاب

缀ة الدانيا للدلار

تأليف

العالم العلامة الحب السفهاء الإمام الكبير المتقدم الشهير أقصى العلماء

أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المسأود

رحمه الله تعالى

وزارت وزارة المعارف العمومية صنع هذا الكتاب على حساب

وتعهد بمدارس الأميرة

الطبعة السادسة عشرة

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م
محتويات الكتاب

صفحة
خطبة الكتاب .................................................. 1
باب فضل العقل وذم الهوى .................................. 2
فصل وأما الهوى فهو عن الخير صادق الحج ................. 13
باب أدب العلم .................................................. 19
فصل وأعلم أن العلماء أوائل تؤذى إلى أوانها ......... 32
فصل وسأذكر طرقاً مما يتذوب به المتعلمن ويكون عليه العالم 51
فصل فأنا ما يخف أن يكون عليه العلماء من الأخلاق الخ 55
باب أدب الدنيا .................................................. 68
باب أدب الدنيا .................................................. 109
فصل وأما لما يصلح به حال الإنسان فيبا ................. 126
فصل وأما المؤاخذة بالمؤذة الحج .......................... 139
فصل وأما البراحح .......................... 160
باب أدب النفس - وهذا الخمس من الكتاب - وفيه ستة فصول 204
فصل الأول - في جوانب الكبر والإجابة ................. 209
فصل الثاني - في حقن الخلق .............................. 216
فصل الثالث - في الحياة .................................. 220
فصل الرابع - في الحلم والغضب .......................... 224
فصل الخامس - في الصدقة والكتب .......................... 233
فصل السادس - في الحسد والمنافسة .......................... 241
فصل — وأما آداب المواضعة والاصطلاح، وفيه
ثمانية فصول...

فصل الأول — في الكلام والصمم...

فصل الثاني — في الصبر والجزع...

فصل الثالث — في المشورة...

فصل الرابع — في كتاب السر...

فصل الخامس — في الزواج والضحك...

فصل السادس — في الطيرة والفئل...

فصل السابع — في المروعة...

فصل الثامن — في آداب مشورة...
ترجمة مؤلف هذا الكتاب

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى المعروف بالموارد. ولد بالبصرة ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد وفُوض إليه الفضاء في بلدان كثيرة. وكان جليل القدر متقدماً عند السلطان، فكان له تأثير كبير في هذه الفترة. وكان حافظًا للمذهب والشافعية. وهو من أبرز فقهاء الشافعية ودارهم وكان حافظًا للمذهب. ولد فيه كتاب الحاوى الذي لم يطالعه أحد إلا شهد له التبحر والمعرفة النافعة بالمذهب. ومن مصنفاته كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وقوانين الوزارة وسياسة الملك. درس في بغداد والبصرة سنة كثيرة وانتفع الناس به وبحسناته في حياته وعمره. وكان وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأولى سنة 56 هـ (22 مايو سنة 108 م) وله من العمر 85 سنة ودفن بمصبرة باب حرب بغداد رحم الله نعائى ورضي عنه.

والموارد نسبة إلى بيع الموارد. هكذا ذكر السعفاني، وهو مقتطف من وفيات الأعيان وغيره مع التصرف في العبارة.

أحمد إبراهيم
بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب
المأوريدي رحمه الله تعالى:

الحمد لله ذي الطول والآلاء وصل الله على سيدنا محمد نجله الرحمن
والأنبياء وعلى آله وأصحابه الائتقاء (أما بعد) فأن شرف المطلب
بشرف تنائيه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية
به وعلى قدر العناية به يكون اجتناب ترهنه، وأعظم الأمور خطراً وقد شد
أعمها نفياً ورفاً ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة
والأولى لأنه باستفادة الدين نصح العباد، وبصلاح الدنيا نتم السعادة.
وقد توفيت بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابها وتفصيل ما أجمل من
أحوالها على أعدل الأمور من إيجاز وبسيط أجمع فيه بين تحقيق
الففهة زمن الأدباء فلا يبدو عنهم ولا يدئ في وهم. مستشهدًا من
كتاب الله جل اسمه بما يختصبه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه
بما يضافه ثم منبعاً ذلك بأمثال المحكمة وأذاب البلاغة وأقوال الشعراء
لأن الفنون تنزل إلى الصون المخلصه. ونسام من الفن الواحد وقد قال
على بن أبي طالب رضي الله عنه: إن أتوب تمل كأن تنزل الأبدان فأهدوا
اليها طرائف السماوم فكان هذا الأسلوب يحب المنطق من مكان إلى مكان. وكان المأمون رحمه الله تعالى يتقل كثيرة في داره من
مكان إلى مكان وينشد قول أبي العتهاية رحمه الله:

لا يصح النسج إذ كانت مديدة إلا التنقل من حال إلى حال
وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب (الباب الأول)
في فضل المثل وذم المهو (الباب الثاني) في أدب العلم (الباب الثالث)
باب فضل العقل وذم الهوى

أعلم أن لكل فضيلة أسأ وقل كل أدب ينبعون ا تقديم وLEGIMIDELA豐富 O adversity ونودع البراءات البريء ون تسليطه ونcastleه وNحله مع النافذة بسببهم ونسبةهم ونيل أرضهم ونماصصهم ونجعل إجابةهم به قولهم: قد قبض الله في العقل شرع وفه شرع في العقل فإن عليه الشرع فكان العقل لما عمداء، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما أكتسب الأرنب قبل خلقه جد ساءته إلى دم ويرده عن ردي. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لكل شيء دعامة ودعاية عمل الأمر عليه فيندر عتاه تكوين. عبادة له. أنا سمعت قول التاجر: أو تنا تسمح أو نفس ما كنا في أصحاب السعير. وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل عقله وحسبة دينه ومروعه خلقه. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: ما استبدت الله أحدا عقلة إلا استبندته به بوا معا. وقال بعض الحكاء: العقل أفضل مرزوق وجلبه. أنيك عدو. وقال بعض الآخراء: حدد في كل أمر عقله وعدله جهله. وقال بعض البلقاء: خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل. وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم بن حسان:

"يُعيَشُ الفَقِيْهُ فِي النَاسِ صَحِبَةٌ عَقْلِهِ وَإِن كَانَ مُحَظِّرًا علَيهِ مَكَاسِبَهُ يُبَشِّرُ الفَقِيْهُ فِي النَّاسِ فَلَةٌ عَقْلِهِ وَإِن كَرَمَتْ أَعْرَافَهُ وَمَنَاسَبَهُ يُعِيِّشُ الفَقِيْهُ فِي النَّاسِ بِالعَقْلِ إِنَّهُ عَلَيْهِ العَقْلُ يَجْرِي عَلَامَةٌ وَتَجْزَاهُ
لأبي الحسن البصري

وأفضل قسم الله للمرء عقلاً. فليس من الأشياء شيء يقاربه إذا أعامل الرحمن للمرء عقلاً فقد كانت أخلاقه وآرائه وأعلم أنه بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحمسات والسيئات. وقد يتقسم قسمين غريبين ومكتسبين فالغريز هو العقل الحقيقي ولاء حذ يعلق به الكيفية لا يجاوزه إلى زيادة ولا ينقص عنه إلى شفقة ولا يماس الإنسان عن سائر الحياة فادما تم في الإنسان حسبًا عابلاً وخرج به إلى حد الكمال كما قال صاحب ابن عبد الباسط:

إذا تم عمل المرء تحت أمره وتم أمتنينته وغير بناه وروح الصحابة في قوله تعالى: أينдер من كان حياً أي من كان عافياً واحتفظ الباب فيه وفي صيته على مداهب شتى فقال فرع هو جوهر لطيف بفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا التقول اختلقوا في محلة ف quizá طائفة منهم: محدم الدماغ لأن الدماغ محل الحس وفلقت طائفة أخرى منهم: محمل القلب لأن القلب معدن الحياة وذاته الحواس وهذا الفول في العقل بأنه جوهر لطيف داسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متعلقة فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولا أوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل وجوده سره عن وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيقه بذاته فلو كافى العقل جوهرًا بالجناز أن يكون عقل بفسى عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرًا. وقال آخران: العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله في بعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الأدراك من صفات الحياة والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متنفذًا أو آلاً أو مشتياً. وقال آخرون من المتكلمين: العقل
هو جملة علوم ضروية وهذا الحد غير محدود لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحباط والحد انما هو بيات المحدود بما ينفي عنه الاححال والاحساط. وقال آخر: وهو القول الصحيح: إن العقل هو العلم بالمدرك المعرفية وذلك نوعان أحدهما ما يقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبدأ في النفس. فأما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرجعية المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والأجسام المدركة بالمس فلا كان الإنسان ممن لو أدرك محواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لأن خروجه في حال تغييض عينيه من أن يدرك بها وعلم لا يعرفه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم. وأما ما كان مبدأ في النفس فكأعلم بأن السيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المثال اجتياح الصدرين وأن الواحد أقل من الآخرين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينفي عن العاقل مع سلامته حاله وكما عقله فذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذه النوبين فهو كامل العقل. وسبي ذلك تبليه عن عقل الناقة لأن العقل يمنع الإنسان من القدام على شهواته إذا قبعت كما يمنع العقل الناقة من الشرود إذا نفت ونذكر قال عمار بن عبد النفيش: إذا عقلك عقلك يا لا ينبغي فثت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا التول في العقل وهو ما يرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل" وكل من نفى أن يكون العقل جوهراً أثبت مخله في القلب لأن القلب محل العلوم كلها. وقال الله تعالى: "أقم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها" فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن مخله القلب. وفي قوله تعالى: يعقلون بها تأويلان أحدهما يؤملون بها والثاني يعتبرون بها. فهذه
لافي الحسن البصري

جملة الولى في العقل الغريزي. وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغرزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكر وليس لهذا حد لأنه يمو إستعمال وينقص إن أهمل زمنها يكون بحاف ويجزء إما بفترة الاستعمال إذا لم يعترض عليه مانع من هو ولا صادق من شهود كان الذي يحصل لدى الأسانش من الحكمة وصحة الرواية بكثير البجارب وممارسة الأمور ووالدك حمد الخبير ذرأ النبوخ حين قال بعضهم المشايخ أثاب الأوفر وما بعده الأخبر لا يدلي به شهابه ولي يستنفظ ذر وهم إن رأوون في قبض مندهك وإن أقربوا على حبل أمدهم. وقيل: عليكم بآرآء الشرفاء فإن تعبدوا دك باب النابع فديت دزت على عيونهم ووجهوا العين وعذدت لأشعيه أم الغير. وقيل في منشور الحكم: من طال عمره فصحت فؤاد به وادب ضرب عقله. وقيل فيه: لا ندع الأدم جاهلا إلا أذنه. وقال بعض المكية: كنتي بالمحارب ذنيبا وينقداب الأيام عندنا. وقال بعض المذاعي: الجدية سرها العقل والغزارة ذمره الجهل. وقال بعض الآباء: كنتي حينها عنيما بدي ما مضى وكنتي عبرا لأولئ الأدب ما جربوا. وقال بعض الشعراء:

ألم ترآن العقل زين لأهلنا؟ نحن تعلم العقل طول التجارب.

قال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير إطار. أناشت له الأيام في كرها عقلا وأما الوجه الثاني فقد يكون ضرب الدكاك وحسن القصة وذلك جودة الحدس في زمن دير مؤمل للحسن. فذا امتطى العقل الغريزي صارت نتجت به مقوم العقل المكتسب كان يكون في الأحداث من وفور العقل وجودة الرأى حتى قال هرم بن قضية حين تنافر إليه عاص ابن الطميل وعلمه بن علامة: عليكم بالحيدان السين الجديد الذهن وعلل هرم ما أراد أن يدعهما عن نفسه فأعتذر ما قال لكن لم ينكر.
قوله إذ ذاك لما فصا لا العقبة إلى أبي جهل في حدادته سنة وحدة ذهنه فإنُّ أن يحكم بينهما فرحًا إلى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد:

يا هرمز بن الأكرمين منصباً إنك قد أتوتت حكاها موجباً
وقد قالت العرب: عايك مباشورة الشباب فانهم ينتجون رأياً لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطبة الهرم. وقد قال الشاعر:

رأيت العقل لم يكن ابتهاجاً ولم يقم على عدد السنين.
ولو أت السين ناقمته إلى الآباء أنصحه السينا.

وحكى الأخصائي رضي الله عنه قال: قلته لعلماء حدث من أرادة العرب كان يهاشط أسمعني بفصاحة وملاحة: أسررت أن يكون لاهل آفة أف درهم وأنت أحق قال لا وانطقال قل: فما قال: أخاف أن يبني علي حكى جنابة تذهب بأسان ويبني على حكى فناظر إلى هذا الصي كيف استخرج بفرط ذكائه راستين جيده قريحه ما لعله يدق علي من هو أكبر منه سن وأكثر نجرية. وأحسن من هذا الذكاء والطيبة ما حكي ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بصبيان معبون وفهم عبد الله بن الزبير فبروا منه إلا عبد الله فقال له عمر رضي الله عنه: مالك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمرؤ المؤمنين! لم أكن على ريبة فأخاف ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك فانظر ما تضمه هذا الحوار من الفطنة وقوة المنه وحسن البديعة كيف نص عنده الأموم وثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القرية نهاية. وحكى أن سليمان ابن عبد الملك أمر الفردوس بنضرب أعناق أساري من الروم فاستعفاه الفردوس فلم يفعل وأعطاه سيفاً لا يقطع شيئاً قال الفردوس: بل أضرهم بسيف أبي رفوان مجاشع يعني سيف نفسه قام فضرب به عناق رومي. ومنه فتى السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله قال الفردوس:

أعجب الناس أن أضحكت سيدهم خليفة الله يستسقى به المطر.
لم ينف سيفي من رعب ولا دهش
على القعدر
ونقتحم نسا قبل ميتها
ثم أغمد سيفه وهو يقول:
ما إن يعاب سيد إذا صبا
ولا يعاب صارم إذا نبا
ولا يعاب شاعر إذا كبا
ثم جلس وهو يقول كأني باب المراعحة قد هجاني فقال:
بسيف أبي رغوان سيف مشاعر ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قام فانصرف وحضر ج وغيرها بإلحاب ولم يجد له الشعرة فأنا يقول:
بسيف أبي رغوان سيف مشاعر ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قال يا أمير المؤمنين كأني باب التنانين وقد أجابي فقال:
ولا نقتل الأسرى ولكن ننكيم
إذا أنقل الأعناق حمل المغارم
فاستحسن سابا بن الفردق على جريهم أخبر الفردق بشعر
جريهم لم يخبر بعد نفسه فقال الفردق:
كذاك سيف الهمد تبدو ظبياتها
وتقطع أحيانا مناطق التمائم
ولن نقتل الأسرى ولكن ننكيم
أنا أنقل الأعناق حمل المغارم
وهيل ضربة الرومي جاعلة لكم أبا عن كبيب أو أخا مثل دارم
فشع حديث الفردق بهذا حتى حكي أن المهدي أبا بشرى من
الروم فأمر بقتله وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له: أضرب عنق
هذا العلج فقال يا أمير المؤمنين قد عامت ما ابتلي به الفردق فعبر به
قومه إلى اليوم فقال: إنما أردت تلمسك وقد أعفيتك وكان أبو الهول
الشاعر حاضرا فقال:
جزعت من الرومي وهو مقيد
فكيك ولو لافيته وهو مطلق
دعوك أمير المؤمنين لقتله
فقدك شبيب عند ذلك يفرق
فتعب شبيب عن قول كتيبة
وأدن شببا من كلام يلقى
فقال كيف عقله قالوا يارسول الله: نشي عليه بالعابدة وأصناف الخير ونسألا عن عقوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الأحق العبد يصيب جهله أعظم من جحور النجاحر وامنا يقرب الناس من بيعم بالزلف على قدر عقولهم. واعتقد الناس في العقل المكتسب اذنا تنامي وزاد هل يكون فضيلة أم لا قل قوم: لا يكون فضيلة لأن الفضائل هيأت متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز المتوسط خرج عن حد الفضيلة. وقد قالت الحكاءة لاسكندر: أيا الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور فأن الزيادة عيب والنقصان نحجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: خير الأمور أوضاطها. وقال على أبي طالب رضي الله عنه: خير الأمور النقطة الأولى يرجع العالى وبه يلتحق التالى. وقال الشاعر:

لا تذهب في الأمور فوطة لا تسأل إن سألت شططا.

وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا: لأبي زيدة العقل تفضى بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبها ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري أن يعزل زيدة عن ولايته فقال زيد: يا أمير المؤمنين أعن موجدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منها ولكن كنت أن أحم على الناس فضل عقلك. وأالأ هذا البكر من عمر مقبل قدما إفراط العقل مضى بالجدل وقال بعض الحكاءة: كنكم من عقلك ما ذلك على سبيل رشده. وقال بعض البلقاء: كلبك يكفي خير من كثير يقف. وقال آخرون وهو أصحاب القولين: زيادة العقل فضيلة لأن المكتسب غير محدود. وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة تقسي مذموما لأنه ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاعة إذا زاد على حد الشجاعة نسب إلى التهور والسخى. إذا زاد على حد السخاء نسب إلى التبذير وليس كذلك حال
العقل المكتسب لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالطون ومعرفة ما لم يكن آلي ما يكون وذلك فضيلة لانقص. وقل روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفضل الناس أعقل الناس. وقد روى في تأويل قوله تعالى: "قل كل يعمل على شاكلته" أي يحسب عقله. وقال القاسم بن محمد: كانت العرب تقول من لم يكن أعقله أغلب خصال الخبر عليه كاف حنفي في أغلب خصال الخبر عليه. وقيل في منشور الحكم: كل شيء إذا أدرك رخص الإنس من عقله فإنه إذا أدرك عقله. وقال بعض البلغاء: إن العاقل من عقله في إرشاد ومن راهن في إمداد فقوله سديد وفعله حيد وإلقاء منهم جهيل في إغواء ومن هواء في إغراء فقوله سيقم وفعله ذميم. وأنشأني ابن نكوك لأبيه:

من لم يكن أكثره عقله أهلك به أكثر ما فيه
لأبي الحسن البصري

تردد من ربك قربا قلت بأبي أنت وأمي ومن إلى العقل قال: اجتنب ممارع الله وأقد فرائض الله تكن عقلا ثم تنظر بصلاحات الأعمال تردد في الدنيا عقلا وتتردد من ربك قربا وبه عنا. وأشهدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات وذكر أنها رحلت بن أبي طالب رضي الله عنه

إن المكارم أخلاقي مطهرة فالعقل أولها والمبينات ثانية
والحمد تعالى والحمد رابعة والجود مغمسه والعرف سادعا
والبر سابع والصبر ثامنة والشكر تأسة واللتين عاشية
والتفصيل أني لا أصدقها ولست أرشد إلا حين عشية
والعين تعلم من عيني عشتها أن كان من حزبها أو من أذانها
عيناك قد دلفا عيني مكسي على أشياء لولاها ما كنت تبديها
وأعلم أن العقل المكتسب لا ينفث عن العقل الغزيق لأنه نتيجة منه
وقد ينفث العقل النبري في العقل المكتسب فيكون داجيا مملوب
الفضلائل موفور الزوال كالأول الذي لا يجد له فضله رااحق الذي
فلما يخلي الموت روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
الأحق كالخيار لا يقع ولا يلعب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال: الأحق أبتغ خلق الله إليه إذ حرمه أعن الأشياء عليه.
وقال بعض الحكّاء: الحاجة إلى العقل أتي من الحاجة إلى المال.
وقال بعض الباحثاء: دولة الجاهل عزة العاقل. وقال أبوذروان ابن بشر: 
أي الأشياء خير لله قال: عقل يعيش به قال: فإني ملك قال: فأخوان
يسرون عبيه قال: فإني صامت قال: فإني ملك قال: ففوت جارف. وقال
سابرين أردشير: العقل نوعان: أحدهما مطبوع والآخر مسموع ولا
يصح واحد منها إلا بباحثه فأخذ ذلك بعض الشعراء قال:
رأيت العقل نوعين شموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تتفع الشمس وضوء العين متنوع
وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والأحق
بما فيه من الزذائل فقال العاقل: أذا وإلى بذل في الموكدة نصره وإذا
عادى رفع عن الظلم قدره في سعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله
إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر وإن أساه إليه مسيء سبب له
أسباب العذر أو منحة الصحف والعفو والأحق ضال مضال إن أونس
تكرر وإن أوحش تكرر وإن استنطق تخلف وإن ترك تكاف حُماليه
مهنه ومعتاته ممهنه وبحاورته تغز وموالاته تضر ومقايرته على
ومقارنته شقا. وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسه
مع جاهل والأحق يبقى إلى غيابه ويشن أنه قد أحسن إليه فيطلبه
الشكر ويعسن إليه فيظن أنه قد أساء إليه فيطلبه بالوتر فساوى
الأحق لا تقضي وعيوبه ولا تنتها ولا يعرف النظر منها الى علية إلا
لويحت ما وراءها بما هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهم فما أكثر
العبر من نظر وأفعها من اعتبار. وقال الأحنف بن قيس: من كل شيء
يفوز الأحق إلا من نفسه وقال بعض البغاء: إن الدنيا رمي أقبلت
على الجاهل بالانفاق وأدربت على العاقل بالاستحقاق فأنتلك منها
سميحة مع جهل أو فائتك منها بعدها عقل فلا يمتلك ذلك على الرغبة
في الجاهل والزهد في العقل فدولته الجاهل من النكات ودولة العاقل
من الواجبات وليس من أمكنه شيء من ذاته كأن استوجب به
وأدوته وبعد دولة الجاهل كالغريب الذي يمنى إلى النقلة ودولة العاقل
cالنسب الذي يمنى إلى الوصله فلا يفرح المرء بلائكة جليلة تقض الوصية
عقل أو منزلة رفيعة حلقها بل يحين فكان الجاهل ينزله منها ويزيله عنها
ويعطه إلى ربيته ويرى إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه
و يصير مادجها هاجيا ووليه معاديا. واعلم أنه بسبب ماينتشر من فضائل العاقل كذالك يظهر من دوال الجاهل حتى يصير مثلا في الغارين وحديثا في الآخرين مع هته في عصره وقبح ذكره في دهره كاذل ذلك رواه عطاء عن جابر قال: كان في بني إسرائيل رجل له حمار فتال يارب: لو كان لك حمار للفهم مع حماري فهمت به نبي من بني إسرائيل فأوحى الله إليه أنه أطيب كل إنسان على قدر عقله، واستعمال معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عند دنانيل: لينى الله المجوس ينكحون أمهاتهم وله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمي. فبلغ ذلك معاوية فقال: قبجى الله أرونه لو زادوه فعل وفعله وللرب العلوي (كان من النوكي) سائر إيمانها فأخذ كلبا بكذب قال فقال فيه الشاعر:

شهدت بأن الله حق لقاءه
وأن الربيع النهارى رقيع
أفاد لنا كلبا بكذب ولم يدع دماء كلاب المسلمين صمحة
وليس معاذ الجهل غاية ولا لضمار الحق شهية قال الشاعر:
كل داء دواء يستجب به إلا الحافة أعتني من يداويها
(فصل) وأما الهوى فهو عن الخنفر صاد وللعلم مضاذا لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويدرك من الأعمال فضائعها ويفصل ستة المروة مهتوكا ومدخل الشر مساوكة. قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا أقرأ من اقحذ إله هواء وقال عكرمة في قوله تعالى: «ولكنكم فتىتم أنفسكم» يعني بالشهواد «وترى صتم» يعني بالتسويد «واربتهم» يعني في أمر الله وغزتهم الأماني. يعني بالتسويد «ميه جاه مل الله» يعني الموت وغزتهم الله الغروب. يعني الشيطان، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أدعو هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاكة تتزع الى شر غاية إن هذا الحق
أدب الدنيا والدين

قيل مرى وإن الساطل خفيف وبين وترك الخطئات خير من معابدة التوبة ورب نظرته نزعت شهوة وشهوة ساعة أورث حزناً طويلاً. وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: أخف عليكم أئذين اتباع الهوى وطول الأمل فإن اتباع الهوى يقصد عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة. وقال الشاعر: آناسي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه. وقال أعرابي: الهوى هوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال:

إن الهوان هر الهوى قلب اسمه فذا هويت فقد لفتت هواك وقيل في موضوع الحكم: من أطاع هواه أعطى عدوه منه. وقال بعض الحكاءاء: العقل صديق متقوقع والهوى عدو متبوع. وقال بعض البلفاء: أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه. وقال هشام بن عبد الملك بن مروان:

اذن لم تمس الهوى قادك الهوى إلى كل ما ذيه عليك تمساح قال ابن المعتر رحمه الله: لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت وقال الشاعر:

أذا ما رأيت الماء يقنده الهوى فقد كله عند ذلك ثوابك وقد أثبت الأعداء جهلاً بنفسه وقد وجدت فيه مثالاً عوازلاً وما يزداد الناس الجروح عن الهوى من الناس إلا حازم الرأى كاملاً ولم كان الهوى غالباً وال سبيل المثال مورداً جعل العقل عليه رقيباً ماجداً يلاحظ عثرة غفائه ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لأن سلطان الهوى قوي ومدخل مكره خفيف ومن هذين الوجهين يؤتي العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعني بأخذ الوجهين قوي سلطانه وبالآخر خفافة مكره فأنا الوجه الأول فهو أن يقوي سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولي عليه غالب الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها ويعضف عن منعها مع وضوح قبحها في العقل المفهور.
بها وهذا يكون في الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوة شهواتهم.
وكثرة ذواقي الهوى المتسلط عليهم. وأنهم ربما جعلوا الشباب عذراً.
لهم كما قال محمد بن بشير:
كل يرى أن الشباب له في كل مبلغ لذة عذار.
ولذلك قال بعض الحكمة: الهوى ملك غضوب ومبطط ظلوم. وقال:
بعض الأدباء: الهوى عسوف والعدل مالوف. وقال بعض الشعراء:
يا عفّال أردى الهوى عتله. مالك قداست عليك الأمور.
اجعل العقل أسير الهوى. وإنما العقل عليه أمير.
وحسم ذلك أن يستعين العقل بالنفس الشهوت فيشعرها ما في عواقب
الهوى من شدة الضرر وقيق الآثر وكثرة الأجرام وتراثك الآلام. فقد.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حتى الحياة بالمكان، وحفت النصار
بالشهوات". أخبر أن الطريق إلى الحياة باحتلال المكان، والطريق إلى
النار بانتباع الشهوات. وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: "إياكم
وتخفيف الشهوات على أنفسكم فإن عاجلها ذنابكم وآجالكم، وخير فان لم تها
شتفادي بالتحذير والإرهااب فسوفها بال pomp والارغاب فإن الرغبة والرهبة
اذ ناجمت على النفس ذات لما وانفتادت. وقد قال ابن السباع: "كن
هواك مسؤفاً ولعقلك مسقفاً وانظر ما تسوء عافيته فوطنه نسك على
مجانبته فان ترك النفس وما تهي ما داوها وترك ما ترى دوؤها ناصر
على الدواء كما تخاف من الدوء. وقال الشاعر:
صررت على الأيام حتى تولت. وأزهدت نفسي صبرها داممت.
وما النفس إلا القبض يجعلها القبض. فان أطمتعاًُ ثاقة ولا تستل.
فازها أتقادت النفس للعقل بما قد أشطرت من عواقب الهوى لم يبلغ
الهوى أنها صفر بالعقل مدحوراً بالنفس مقهرًا ثم له الحظ الأوفر.
في تواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى: "وأmanda من خاف من مقيم ربه
ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأواى»، وقال الحسن البصري: أفضل الاجتهاد جهد الهوى. وقال بعض الحكفاء: أحسن العزاء امتلاع من تلك الهوى. وقال بعض البلغاء: خير الناس من أفرح الشوته من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه. وقال بعض الأدباء: من أمات شهوته فقد أحيا صروحته. وقال بعض العلماء: زكى الله الملائكة من عقل بلا شهوته وركب الهائم من شهوته بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فن غاب عنهم على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلت شهوته على عقله فهو شر من البهائم. وقيل لبعض الحكفاء: من أشبع الناس وأحراهم بالظفر فإذ جاهدهم قال: من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس في مراهده من وورود خواطر الهوى على قلبه. وقال بعض الشعراء:

قد بدرت الحازم ذو الرأى المتن بفاحة الحزم وعصيى الهوى وما الوجه الشأن فهو أن يختى الهوى مكره حتى تمتله أفعاله على العقل بين سر التبيج حسنا والضرر نكا، وهذا يدعو إلى أنه أحد شهيرن إما أن يكون لنفس ميل إلى ذلك الشئ، فيختى عنها التبيج للحسن ظنها ولتصوره حسنا لمشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: حبك الشئ يعنى ويصير أي يعنى عن الرشد ويصير عن الموعظة. وقال على رضى الله عنه: الهوى عمي. قال الشاعر:

حسن في كل عين من توقد.

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: ولست براء عيب ذي الوكذب ولا عض ما فينيا كنت راضيا. فعين الرضا عن كل عيب كليلة، ولكن يُعين السخط تبدى المساوية وأما السبب الثاني فهو است=?,الملك في تميظ ما أشبه وطلب الراحة في اتباع ما يسلك حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه. وأحمد حاليه اعتزازًا بأن الأسهم محود والأعسر مذموم فإن يقدم أن يتورط بخبد الهوى.
وزينة المكر في كل مغوف حذر ومكروه عصر ولذلك قال عارس رموز: 
الهوى يغاظان والعقل مفاد من ثم غلب. وقال سليمان بن وهب: الهوى 
أبيض والرأي أتبع وقيل في المثل: العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح.
وقال الشاعر:

"أذا المرء أعطى نفسه كل متشهت ولم ينها تاقت إلى كل باطل 
وساقت اليه الإثم والعار الذي دعه اليه من حلاوة عاجل 
وحسم السبب الأول أن يجعل فكر قلبه حكماً على نظر عينه فان 
العين رائدة الشهوة والشهوة من دواعي الهوى والقلب رائد الحق والحق 
من دواعي العقل. وقال بعض الحكماء: نظر الجاهل بينه وناظره ونظر 
العقل بقلبه وخارجه ثم يبتين نفسه في صواب ما أبحث وتحسين 
ما اشتهر ليصبح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق فان الحكمة 
وأصبح مركباً فان أشكل عليه أمرنا اجتذب أحدهما اليه وترك 
أسهلهما عليه فان النفس عن الحق أنقر وللهو آخر. وقد قال العباس 
ابن عبد المطلب: إذا اشتهى عليك أمرنا فدع أحدهما إليه وانقلهما 
عليك وعله هذا القول هو أن التقلت تطبع النفس عن التشعر اليه 
فيصبح مع الإبطاء وتداول الزمان صواب ما استعمل وظهورها استحمل 
وقال قال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: من تكرأ بصر والمحبوب السهل 
تساع النفس إليه وتجل باقدام عليه فيقهر الزمان عن تصفقته 
ويقوت استدراكه ليقضي فعله فلا يفع التصفق بعد العمل 
والاستدراب بعد الفوت. وقال بعض الحكماء: ما كان هناك معرض 
فلا تكن له متعمدا. وقال الشاعر:

أليس طلاب ما صفت جهلاً وذكر الماء ما لا يستطيع 
ولقد وصف بعض البلاء حال الهوى وما يقارنه من عن الدنيا فقال 
الهوى مطلع الفتنة والدنيا دار المحتمة فاترك الهوى تسلم وأعرض عن
الدنيا تغنم ولا يغرنك هوالة بطيب الملاهي ولا تفتحك دنياك بحسن العوارية شدة الله تقطع وعارية الدهر ترجع ويسق عليك ما تزكره من الخسأر وتكتسبه من المائم . وقال على بن عبد الله الحميري : 

سمعتي أمرًا في الطواض وأنا أنشد : 

أهوى هوى الدين ولدات تعجبني فكيف لي هوى اللذات والدين 

قالت : هما ضرنان فذر أيهما شئت وخذ الآخر . فأنا فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلامة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فيه أن الهوى خاص بالآراء والاعتقادات والشهوة خصصت بدليل المستندات فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي أخص الهوى أصل هو أعم . ونحن نسأل الله أن يكفينا دواعي الهوى ويصرف عنا سبيل الردى ويجعل التوفيق لنا قائداً والعدل لنا مرشداً . فقد روى أن الله تعالى أورى إلى عيسى عليه السلام عظ نفسك فإن أعظنت 

فمعظ الناس والا فأنتى مني . وقال محمد بن كاتبة : 

ما مَن روى أبداً ولم يعمل به ويكف عن زنغ الهوى بأديب 

حتى يكون بذا تعلم عاملاً من صال حبيكون غير مبيع 

ولقد تغتني إصابة قائل أنه عامل غير مصيب 

و قال آخر 

هذا لنفسك كان ذا التعليم 

تصف الدواء الذي السقام وذي الضنى 

ابدا بنفسك فإنها عن غيبة 

فهناك تذمر إن وعظت وประหยى 

لا تسع خلق وتأتي مسلمه 

حتى أبو فروة أن طارفا صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسري 

باب شربه وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة :
أرأها وإن كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قريب تقشعر اللهم لي ديني وليام دنياه فاستعمل ابن شيرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أذنكر قولك يوم كنا أن مرت بك طرق في موكب قال يابني إنهم يجدون مثل أبيك لا يجد أبوك مثلهم إن أباك أكل من حلوائع نفث في أهوائهم أما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقرير وقوبل بالتوبيخ من أخص ذوه وله من أبزىبه فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وألقان جنانا إذا رمقتنا أعين المتبعين وتناولتنا ألسن المتعمدين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملذا وسوى عصمه معاذ

باب أدب العلم

علم أن العلم أشرف ما رغب فيه الالباب وأفضل ما طالب وجد فيه الطالب وأنتج داكسيبه واقتنا الكاسب لأذن شرته م على صاحبه وفضله الذي عبد طالبه. قال الله تعالى: "قل هل أبى سوسن الذين يعلمون والذين لا يعلمون" فعلى سمعاته المساوية بين العالم والحادث لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى: "وما بينها إلا العالمون" فنتى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرًا أو يفهم منه نزج. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أقوي الله إلى إبراهيم عليه السلام إلى عليم أحدهم وصل الله إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم الآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العبد كفضل على الدنيا كما رجلا. وقال على ابن أبي طالب رضي الله عنه: الناس أبناء ما يحسون. وقال مصعب ابن الزبير لابنه: تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جالا وإن لم يكن لك مال كان لك مالا. وقال عبد الملك بن مروان بن مهنا: يا بني تعلموا
العلم فان كنت سادة فقتتم وإن كنت وسطا سدتم وإن كنت سوقة عشت
وقال بعض الحكاء: العلم شرف من لا قدر له والأدب مال لاخوف عليه
وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف.
وقال بعض البلاغاء: تعليم العلم فإنه يقومك ويستذلك صغيرا ويềmمك
ويسوءك كبيرا ويصلح زيفك وأفسدك ويرغم عدوك وحاسدك
ويعم موجك وميلك ويسحق همسك وأملك. وقال على رضى الله
 تعالى عنه: قيمة كل أمرٍ ما يحسن فأخذه الخليل فنظامه شرعا فقال:
لا يكون العلم مسألة الدنيا لا ولا ذو الذكاء مثل الغي
 قيمة المرء قادر ما يحسن المرء قضاء من الإمام على
و ليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل لأن فضل العلم إنما يعرف
بعلم وهذا أبلغ في فضله لأن فضله لا يعلم إلا به فاما عدم الجهل العلم
الذي به يتوصلون إلى فضل العلم جهله فضله واستذلوا أهله وتورموا
أن مامله ليس تفوتهم من الأموال المكتندة والطرف المشتهى أولى أن
يكون إقبالهم عليها وأخرى أن يكون اشتغالهم بها. وقد قال ابن المعتز
في منشور الحكم: العلم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلًا والجاهل لا يعرف
العلم لأنه لم يكن عالما وهذا صحيح ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله
انصرف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لأن من جهل
شيئا عادا. وأنشدته ابن لتكك لأبي بكر بن دريد:
جهلت فعادت العلوم وأهلها كذلك يعادى العلم من هو جاهل
ومن كان يهوى أن يرى متصدرًا ويكه لا أدرى أصيبت مقاتله
وقيل لبزرجمة: العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل: فما بالنا
نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب
العلماء فقال ذلك لعرفة العلماء بمنفعة المال وجعل الأغنياء بفضل
لأبي الحسن المصري

العلم. وقيل لبعض الحكاءة: لم لا يجتمع العلم وابن فقاه لعزالكم.

وانتقدت لبعض أهل هذا العصر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهلهم فأحسامهم قبض القبور قبور

وإنما أمرأ لا يمحى بالعلم ميت فيليس له حتى النشور نشور

وقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادي تصدروا علينا بما

لا يتعب ضريسأ ولا يستقر نفسه فأخرج له طعام ونفقة فقال: فاقية إلى

كلابكم أشتد من حاجتي إلى طعامكم إن طالب هدى لا سائل ندى

فأذن له العالم وأفاده عن كل ما سأل عنه نحوت جذلا فرحا وهو يقول

علم أوضع لبسا خير من مال أجمل نفسي. وعلم أن كل العلوم شريفة

ولكل علم منها فضيلة والإحاطة بجميعها مجال. قيل لبعض الحكاءة: من

يعرف كل العلوم فقال: كل الناس. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال: من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه في غير منزله

التي وصفه الله بها حيث يقول "وما أوتيم من العلم إلا قليلا". وقال

بعض العلماء: لو ما نطلب العلم لنبلغ غايته لكما قد بدأنا العلم بالنفيصة

ولكما نطلب لننصح في كل يوم من الجهل ونداد في كل يوم من العلم.

وقال بعض العلماء: المتعمق في العلم كالساحق في البحر ليس يرى أرضا

ولا يعرف طولا ولا عرضا. وقيل لمجاد الراوية: أما تشع من هذه العلوم

فقال: استفرغنا فيها المجهد فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر:

إذا قطعنا عاما بدأ علم.

وأنشد الرشيد عن المهدي بنتين وقال أظنهما له:

يانتس خوضي مثار العلم أوغوصي فالناس ماين معموم ومخصص

لا شيء في هذه الدنيا يحيط به إلا إساطرة منقوص وممقوص

وإذا لم يكن معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى

معرفة أهمها والعناية بأولها وأفضلها. وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لأن
الناس بمعرفته يرشدون ويجهله يضللون إن لا يصح أداء عبادة جهل
فاعلاً صفات أدائها ولم يسلم شروط إيجازاتها. ولذلك قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: فضل العلم خير من فضل العبادة وإنما كان كذلك
لأن العلم ببعث على فعل العبادة والعبادة مع خلق فاعلاً من العلم يباح
قد لا تكون عبادة فازم علم الدين كل مكافئ. ولذلك قال النبي صلى
الله عليه وسلم: »طلب العلم فريضة على كل مسلم« وفيه تأويلان:
أحدهما علم مألاً يسع جهله من العبادات، والثاني جملة العلم إذا لم يقم
بطله من فيه كفاية. وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض
بعضه على الأعيان وفرض جميعه على الكفاية كان أولى مما لم يجب
فرضه على الأعيان ولا على الكفاية. قال الله تعالى: »فولأ نفر من
كل فروقهم طائفة ليتفقوا في الدين وليبذروا قومهم إذا رجعوا أيهم
لعلمهم يلذرون.« وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بجلسين أحدهما ىذرونه
الله تعالى والآخر يتفقون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«كل المجلسين على خير وأ todavíaهم أحدهم من صحابه. أما هؤلاء
فيذرون الله تعالى ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأاما
المجلس الآخر يتفقونافقه ويعمون الجاهل وإنما بعثت ماما
وجلس إلى أهل الفقه. وروى مروان بن جناب عن يونس بن ميسرة
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الخير عادة والشر لجاعة
وبين يد الله به خيراً يفقه في الدين. وروى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم أنه قال: خيار أمي علماؤها وخير عمالها فقاتها. وروى
معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العدوى قال: قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه
تعريف الفعالين والاتصال المبطلين وتأويل الجاهل. وروى عن النبي
 صلى الله عليه وسلم أنه قال: على بخلاف ذلك قالوا: ومن خلفائه قال: الذين يحيون سنين يعمونها عباد الله. وروى خيبر عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الفقه في الدين فرض على كل مسلم ألا فتعاموا أو عاصموا وتفقهوا ولا تمتنوا جهالاء. وروى ساینت بن يسار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ولقيته واحد أشد على الشيطان من أهل فأبد وقى شهد وعماد الدين الفقه. وربما قال بعض المتلاهون بالدين إلى الالو العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدم استنفلا بحمايته الدين من التكليف واسترداها مما جاء به الشرع من التعب والتوقيف والكلام مع مثل هذا في أصل لا يتسنى له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحب رويته لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هملا أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادن لأهوائهم المشتركة لما تقوله الله في أمورهم من الاختلاف والتلازيم وتفضي إليه أحوالهم من التبائن والتقاطع فلم يستنغا عن دين يتألفون به وينتقالون عليه ثم العقل موجب له أرتأه له ولتصور هذا الذي التصور أهل الدين ضرورة في العقل وأن العقل للكثير من أصل لقصر عن التقصير وأدنا للحق ولكن أهل نفسه فضلٌ وأصل. وقد يتعلق بالدين علوم قد بيد الشافعي رجحه الله فضيلة كل واحد منها فقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نقبل مقصدته ومن كتب الحديث قويت جحيه ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. ولعمري إن صيانة النفس أصل الفضائل لأن من أهل صيانة نفسه تقة بما منحة العلم من فضيلته ووكالا على ما يلزم الناس من صيانة سلوك فضيلة عامة ووسموه بقيبه تبذل فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذيل لأن القبيح أن من الجليل والرذيلة أشهري من
الفضيلة إذ الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المناقسة
تتصرف عيونهم عن المحسن إلى المساوي فلا يخفون محسنا ولا يجابون
مشينا لاسيما من كان بالعلم موسوما وليه مسموحا فإن زلته لا تقال
وهفته لا تعود إما لOUGH أمرها واعتزاز كثير من الناس بها. وقد قيل
في منتور الحكم : زلة العالم كالسفينة تغرق ويوغرق معها خلق كثير. وقيل
لميسى بن مريم عليه السلام : من أشد الناس فتنة قال زلة العالم إذا زل
هلك بلغه عالم كثير وهذا وجه وإما لأن الجهل بذمه أغرى وعلى
تنقيشه أجا لياسله فضيلة التقدم وينعوه مياسة التخصص عندما
لمشية جهلوه ومفتى الله باينه لأن الجاهل يرى العلم تكفا فثواباسا أن العالم
ترا الجهل تغلبه وذلته. وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه :

ومنزلة السفينة من القفية كنزلة الفقيه من السفينة
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزدهر منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في غماطة التقيه

وقال يعني بن خالد لابنه : عليك بكل نوع من العلم تغذ منه فان المرء
عدد ما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم وأشد :
তبن وخذ من كل علم فاتم يفوق أسرور في كل فن له علم
فانت عدد وليهد أمت جاهل به وعلم أن تتقن سلام
وإذا صان ذوا العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها من تعيير
الموانئ وتنتقي المحايد وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة وعزة
التزهاء فصار بالمزيلة التي يستحقها بعضإلهاء. وروى أبو الدرداء أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : العالماء ورثة الأنبياء لان النبياء لميروروا دينارا
ولاءرها وانف وربعوا العلم. وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه
 وسلم قال للأنبياء : عند العلماء فضل درجتين للفقهاء على الشهداء فضل
درجة. وقال بعض البلاء : إن من الشريعة أن تجل أهل الشرعه ومن
الصينية أن تزرب حسن الصنيعة فيبغي فين استدل بطغته على استحسان الفضائل واستقبال الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الأهمال باستيقاظ المعاناة ورغب في العلم رغبة متحفظة لفضائله واقع بمنافعه ولا يلهه عن طلبه كثرة مال وجدية ولا توذ أمر وعاز منزلاً فإن من نذى أمره فهو إلى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق. وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الحكمة زيد الشريف شرفًا ورفع العبد الملوك حتى تجلسه مجلس الملوك. وقد قال بعض الأدباء: كل عن لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤده عقل مرضه. وقال بعض علماء السلف: إذا أراد الله الناس خيراً جعل العلم في ملوكهم وملك في علومهم وقال بعض البلاغة: العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويرفعهم إلى العلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية حتى حقوا أن يعرفوا حقه ويستبانوا أهله. فأما المثال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كتهره فضيلة ولو كانت فيه فضيلة خصص الله به من اصطفاه لرسالته واجباه لنبوته وقد كان أكثر أنيبيه الله تعالى مع مختصهم الله به من كرامةهم وفضائلهم على سائر خلقه قراء لا يجدون بلغة ولا يقرون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلاً قال الباحث: 

فقرأ كفقر الأنبياء وغيره وصيانة ليس البلاء بواحد ولعدم الفضيلة في المجال منه الله الكافر وحريم المؤمن.

قال الشاعر:

كم كافرون بعه أمتعه
وهمع مسداً على كفره
يزداد إياها على فقته
بالائم الدهر وأفعاله
مشغولاً يرزى على دهره
ينصرف الدهر على أمره
أدب الدنيا والدين

وقد بين على بن أبي طالب رضي الله عنه فضل ما بين العلم والمطالع.
قال: العلم خير من المال العلم يدرس وتنت تحرص المال العلم حاكم ومال حكيم عليه مات خزان الأموال ولكن خزان العلم آليهم مفقودة وأشخاصهم في القلوب موجودة. وسائل بعض العلماء أيضاً أفضل المال أم العلم قال: الجواب عن هذا أيضاً أفضل المال من العقل.
وقال صالح بن عبيد الفدوس:

لاخير فين كان خير شئه في الناس قولهم غنى. وعندمما اشتهى الإنسان من طلب العلم كبير سنه واستحياه من تقديره في صغره أن يتعلم في كره مبتدأه ويرفع يعانص فرحة ذوي الأساتذة فيه أولية وابتداء من سهولة فضيلة ولا يكون شيخاً منعاً. أولئك من أن يكون شيخاً جاملاً. حكى أن بين الحكفاء رأى شيخًا كبيرًا يلعب النظير في العلم ويجب أن يكون له: ياجدهما أتستينجى أن تكون في أثر عمرك أفضل مما كنت في أوله. دخل على المأمون وحدث جمعة يتكلمون فيه وقال: يا معتمداً ما عندك هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين: شغلونا في الصغر واشتعلنا في الكبر فقال: إنما تعلمتم اليوم قال: أويسن بمثل طلب العلم قال نعم والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قاعاً بالجاهل قال: والما يحسن في طلب العلم قال: ما حسن بك الحياة لأن الصغير أبعد و إن لم يكن في الجاهل تعلم لأنه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الاهال. وقد قبل في منشور الحكم: جهل الصغير معذور وعلم محترم. فأما الكبير فجلال به أحق. ونصصه عليه أفضح لأن علو السن إذا لم يكتب فضلاً ولم يفده عاماً وأتت أيامه في الجاهل ما تبين ومن الفضل...
لأبي الحسن البصري

خاليه كان الصغير أفضل منه لأن الرجاء له أكثر والأمل فيه أظهر وحسبه نقطا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه، وأشهدت لبعض أهل الأدب:

إذا لم يكن مر السنين مترجما عن الفضل للإنسان سميته طفلا وماتنعب الأعوام حين تدتها ولم تستند فيه علما ولا فضلا أرى الدهر من سوء التصرف مثالا إلى كل ذي جهل كان به جهلا وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادّة وشغله اكتسابا عن التناس العلم وهذا وإن كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك إلا عند ذي شبر وعين وشهوة مستعدة في ينبغي أن يصرف للعلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه إلى الكسب حتى لا يترك لها فراغا إلى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسرا الخرس. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لكل شيء فترة فإن كانت فترة إلى العلم فقد نجا. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين خالفوا العلماء وعملنا عالما يدللهم على الهدى ويردكم عن الردى. وقال بعض العلماء: من أحب العلم أحاديثه به فضائية. وقال بعض الحكفاء: من صاحب العلماء وفر ومن جاس السفهاء حقر. وربما منه من طلب العلم ما يظن أنه صعوده وبعد غايته ويغشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخبينة أهل العجز لأن الاختبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر:

لا تكون للآمور هويو با فالخيبة يصير الهمو

وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلم العلم وأخفف أن أضيفه فقال: كفّي بترك العلم إضاعة. وليس وإن تفاضلت الأذهان
وتفاوت الفطن ينبغي لمن قال منها حظه أن يأمل من نيل القليل وإدراك البسيط الذي يخرج به من حد الجهلة إلى أدنى مراتب التخصص. فأنه لم يكن معينه في صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الذي في نفس راغب شهير وطالب خال لاسيما وطالب العلم منان. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب" وربما من هذا السفاهة من طلب العلم أن يصور في نفسه حرفة أكبره وتضايق الأمور مع الاستغلال به حتى يسمح بالادبار ويتسمهم بالحرمان فإن رأى محببة تطير منها وإن وجد كتابًا أعرض عنه وإن رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير علما مقبلا وجاهلا مدبرا. ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخشى عنهم ما يصحبيه من محببة وكتاب تقرأونهن عندم مستنقتلا وإن كان البعد عنهم مؤنها ومصلحا والقرب منهم موحبشا ومفسدا. فقد قال برجي وأهل الجهل في القلب كالنزن في الأرض يفسد ما حوله لكن أتبت فيهم الحديث المروي عن أبي الأشمش عن أبي عبيدة عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خالطوا الناس بأخلاقهم وخالقهم في أعمالهم". ولذلك قال بعض الباحثين: رب جهل وقبر به عامة وسهم حيث به حلمًا. وهذه الطرقية ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لأن من اعتقد أن العلم شيئان وأن تركه زين وان للجهل إقبالا جديدا ولعلم ادبارا مكما كان ضلاله مستحبا ورشاده مستبدا وكان هو الخامس الهالك الذي قال فيه على بن أبي طالب رضي الله عنه: أُخذ عالمًا أو متعلما أو مستمعًا أو محبا ولا تكون الخامس فهلك. وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندًا وليس من هذه حاله في العزل يقع ولا في الاستسلام مطمع وقد قبل لبر جهه: ما لكم لا تعابتون الجهل فقال: إذًا لا نكلف العلمي أن يصروا
ولأسمه أن يسمعوا وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا التفسير وتائد أهل هذا العدل ترى العقل بهذه المثابة وتتفرر من العقلاء هذا النفوذ وتعتقد أن العاقل محارف وأن الأحق محدود وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم هل يكون غير أهلاً أولضياء موضعًا.

وقد قال بعض البلاغاء: أحسب الناس المساوي بين الحسان والمساوي وعيلة هذا أنهم ربما رأوا عاقلاً غير مخطف وعالمًا غير مرزوق فضلاً أن العلم والعقل حما السبب في قلة حظه وزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرم أثر أكثر التوكي و إدار أكثر البحيرات لأن في العقلاء والعامة عقلة وعليهم من فضله سماحة ولدابل قبل: العلماء غراباء لكثره الجهال فإذا ظهرت سماحة فضلهم وصادف ذلك قلة حظه بعضهم تؤوّها بالميز والشهروا بالتعيين فصاروا مقصدين بأشارة المعتنين ملاحولين بإياء الشاميين والجهال والمحق لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوذ فلم يحظى المحرومن بطرف شامته ولا قدص البلاد المجدد منهم بإشارة عابت فلذلك ظن الجاهل المرزوقي أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهال والحق والوقشت أحوال العامة والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال في أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحق مع كثرتهم لوجدت الحرمان في أكثرهم وإنما يصير ذو الحال الواصلة منهم ما يجوز مشتهرًا لأن حظه عجب وإقامة مستغرب كأن حرام على العاقل العالم غريب وإفلاسه عجب. ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين به معتربين حتى قبل الجهل وطهر ما أعجب الأشياء فقال نجح الجاهل وإقداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته وإجراء الأمور على مشيئته. وقد قالت الحكمة: لو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمها أبو تمام الطائي فقال:

ينال الفقى من عيشه وهو جاهل ويكدي القوى من دهشه وهو عالم.
ولو كانت الأرزاق تجري على المجا هلكن إذن من جهالين البهائم
وقال كعب بن زهير بن أبي سالم:
لوكنت أهُبَب من شيء ابتعذب سعي الفقي وهو سمحوب له القدر
يعني الفقي لأمور ليس يدركها النفس واحدته وعرضه منتشر
علي أن العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قل معهما المال وضاقت
معهما الحال والجهل والحق حرام إدبار وكُرَّر معهما المال واسعت
معهما الحال لأن السعادة ليست بكثرة المسأل فكم من كثرت شقيَّة وقل
سعيد وكيف يكون الجاهل الفقي سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون
العالم الفقي شقيا والعلم يرفعه. وقد قيل في متثور الحكم: كم من ذلٍ
أعنى عمه ومن عزى أذله جهله. وقال عبد الله بن المعتز:
"نعمه الجاهل كروضة منبولة. وقال بعض الحكاء: كنا حسنت نعمة الجاهل ازداد
قيحا. وقال بعض العلماء ليبيه: يا حني تعلموا العلم وإن لم تنالوا به من
الدنيا حظا فلا أن يدِم الزمان لكم أحب انب من أن يدم الزمان لكم.
وقال بعض الأدباء: من لم يند بالعلم غالاكسب به جمالا وأنشد بعض
أهل الأدب لن طباظا:
حسود من وبض القلب يخني أنيته
ويضحي كئيب البال عندى حزينه
ويحلم على أن رحت للعالم طالبا. فأعرف أبكار الكلام وعوته
أحفظ مما استنفدي عيونه
ويحنُّ بالجهل الذميم ظنونه
فقيمته حكيل الناس ما يحسونه
فأنا استعذب parole من خدع الجهيل المذل وبوادر الحق الفضيلة وأساله
السعادة بعقل رادع يستقبي به منزلا. وعلم نافع يستبدي به من ضل.
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا استرذل الله عبدا
حظر عليه معناس

أدب الدنيا والدين
في ينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغباً وليست عنيفاً، وليست عنيفاً على أنه يكون له طالباً وليست غبياً. وليست غبياً لأنه مستكثراً وليست مستكثراً. وقد قال الشاعر:

"لا تعذرني في الابتسامة إنه شرار الرجال من بني عباد".

وليس سيف نفسه بالموائد الكاذبة ويليها بانتظار الأشغال المتحدة.

فإن لكل وقت شغلاً وفكر لكل زمان غذراً.

وقال الشاعر:

"زوج ونفسٌ دو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي.
وتموت مع المدرء حاجاته وتنتقى له حاجة ما بقي.
ويعتبر طلب العلم وافتاً بتسير الله قدما وجه الله تعالى بذاء خالصة
وعريمة صادقة.
فإذا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تعلم
عاماً لغير الله وآراؤه عنيش فليفتنوا مقعدته من النار". وروى أبو هريرة
رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تعلموا العلم قبل أن يرفع
ورفعه ذهب أهلها فان أحمد لا يدرى متي يحتاج إليه أو يمتحن.
وإذا تعلموا العلم تنصرفوا به السفهاء ولا تعلموا العلم لنجدالا به العلماء.
فإن فعل ذلك منك يفلت النار مثواه".
وليس الحوسري هو الماناظر فيه
طالباً للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يدع عليه من فاسد أو صحيح
ومن جاء السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"لابتدال إلا منافق أو مجرم".
وقال الأوزاعي إذا أراد الله بقوم شراً
أعطاه الجمل ومنعهم العمل.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم:
"أجل دينه غرضاً لديني.
وأترك ما عانته لرأى غيري.
وليس الرأي كالعلم الليين
يصرف في الشمال وفي الغرب.
 وما أنا بالخصومة Wage شئ ولا
"
فقد بين ذلك بعض العلماء فقالوا صاحبه: لا يملك حذر المراه من حسن الملاحظة فإن الممارد هو الذي لا يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجع أن يتعلم من أحد واعلم أن لكل مطلوب باعتنا والباشت على المطلوب شهان رغبة أو رهة فليكن طالب العلم راغباً ورها. أما الرغبة فنبي ثواب الله تعالى طالبي مرضاته وحافظ على مقتضاته، وأما الرهة ففي عقاب الله تعالى لتذكرني أوصية ومهملي زوجتي فذا اجتمعت الرغبة والرهة أذنت إلى كنه العلم وحقيقة الزيادة لأن الرغبة أقوى الباشت على العلم والرهة أقوى السببين في الزيادة، وقد قالت الحكاء: أصل العلم الرغبة وتمرينه السعادة وأصل الزيادة الرحمة وتمرينه العبادة فذا اقترب الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وإن افترقا فبايشد من منكر. فهي أضر افترقاهما وأصبح انفرادهما. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من ازداد في العلم رشدًا ولم يزيد في الدنيا زهدًا لم يزيد من الله إلا بعدا». وقال مالك بن ديبار: «من لم يؤت من العلم ما يcuryه فما أقوى منه لا ينعقوه». وقال بعض الحكاء الفقيه وغيرهم كلا إسراج يضيء البيت ويحرق نفسه.

فصل) واعلم أن للعلوم أوراء تؤدى إلى أناجها ومداخل تفضى إلى حقاتها فليتهذ طالب العلم بأوراءها ليتهذ إلى أناجها ومداخلها ليفضى إلى حقاتها ولا يطلب الأحرف الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لأن البناة على غير أسد لا ينف إلى أن يغير من غير غير، ولا يبنى ولذلك أسباب فاسدة ودواع ومعيبة. فإنها أن يكون في النفس أعراض تختص بنوع من العلم فييدعو الفرض إلى قدش ذلك النوع ويعدل عن مقاساته كرجل
يؤثر القضاء ويتضمن الحكم فيقصد من علم الفقه إلى أدب القضيّة وما يتعلق به من الدعوى والبيانات. أو يجب الاتساع بالظاهرة فتتعلم كتاب الشهادات لقالاً يصير موسوماً يجهل ما يعاني. فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جهوره وأدرك منه مشهوره ولم يرمياً يقل إلا غامضا طلبته عناء وعوياً استخارته فناء لقصوره همته على ما أدرك وإنصرفها مما ترك ولو نصح نفسه لعلم أذى ما ترك أثراً مما أدرك لأن بعض العلم مرتبط ببعض. والكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الأوانر إلا بأوائلها. وقد يصبح قيام الأوائل بأنفسها فيصير طلب الأوانر بتلك الأوائل تركاً للأوائل والأوانر فإذا ليس يعرف من لوم وإن كان تارك الكل ألوام. ومنها أن يجب الاشتراك بالعلم إلا أن تكون أولاً تجلب فيقصد من العلم ما اشترى من مسائل الجمل وطريق النظر ويعطى على علم ما خالف فيه دون ما اتفق عليه لانظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويعادل الحصوم وهو لا يعرف منها مفصوصاً ولقد رأيت من هذه الطبقة عدد قد تحققوا بالعلم تحتك المكتومين واشتراكاً به اشتراك المتربحين إذا أخذوا في مناظرة الحصوم ظهر الكلامهم وإذا استلوا عن واقع مذهبهم ضلت أفهامهم حتى أنهم ليخطدون في الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يقتراهم جواب لم لا يرون ذلك نقصاً إذا نتقوا في المجانس كلاهما مرصوفاً وفقوا على المخالف حجاجها مألفاً وقد جهلو من المذهب ما يعمره البنددي ويبدأه الناشئ فيلم داً في نطق مضلّ أو غلط مدلّ. ورأيت قوماً منهم يرون الاشتغال بالمذهب تكلفاً والاستكبار منه تخذاً وحاججياً بعضهم عليه فقال: كيف يكون علم حافظ المذهب مستوراً وعلم المناظر عاماً مشهوراً فنقلت: كيف يكون علم حافظ المذهب مستوراً وهو سريع الجواب كثير الصواب لأنه إن لم يسأل سكت فلن يعرف والمناظر إن لم يسأل سأل فعرف وقلت
أليس إذا سئل الحافظ ناصباً بأن فضله قال نعم كتب: أفليس أداست
المناظر فاختناً بأن تقصده وقد قيل: عند الامتلاك يكرم المرء أو يهان
فاسمك عن جوابي لأنه أن أكرا كأكبر المعقول ولو اعترف زمنه المجهة
والمساك إذان وسكت ورا، ولأن ينقل إلى الحق أولى من أن
ينتهز الباطل وهذه طريقة من يقول أعروف وهو غير عروف
ولا معروف ويعدهم لم يعرف العلم أن يعرفه به، وقد قال زهير:
ومهما تلقي عند أمرى من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم
ومن أسباب التقصير أيضاً أن يغفل عن العلم في الصغر ثم يستغل
.Color

بي في الكبير فيستحي أن يبتدي بما يبتدي الصغير ويستخف أن يساويه
الحدث الغريب فيبدأ بأوامر العلوم وأطراقها ويتم بخواشيها وأكناها
ليتقدم على الصغير المبدي ويساوي الكبير المستن. وهذا من رضى
بـحـدـاف نفسه وقـع بـدابة حسه لأن معقوله إن أحس ومعقول كل ذي
حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق بالختمة هذا النخيل لأنه شيء
لا يقوم في وهم وجه وجال ما يبتدي به المعالم أقبح من جهل ما ينتهي إليه
العالم. وقد قال الشاعر:

ترق إلى صغير الأمر حتى يرقب الصغير إلى الكبري
فتعثر بالناشكت في صغير كبيرا بعد معرفة الصغير

وهذا المعنى وأشباكه كان المعنى في الصغر أحمد. روى مروان بن
سالم عن إسحاق بن أبي الدروادة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر والذي يتعلم في كبره
كالذي يكتب على الماء". وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه:
قلب الحدث كالأراضي الخالية ما ألق فيها من شيء قبلته. وإنما كان
ذلك لأن الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلنا وأيسر تبدلا وأكثر تواضعًا

وقد قيل في منثور الحكم: المتوافع من طلاب العلم أكثرهم علماً
كما أن المكان المنخفض أكثر البقاء ماء فأما أن يكون الصغير أضيق
من الكبير إذا عرض من هذه الموانع وأوعى منه إذا خلا من هذه
القواطع فلaxe. حكي أن الأخنف بن قيس تجمع رجلا يقول: التعلم في الصغر
كان نقص على الحر فقلا الأخنف: الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغال قلبا
ولعمري لقد فحص الأخنف عن المعنى وبنى وهبه على العلة لأن قواتع
الكبير كثيرة. فهنا ما ذكرنا من الاستحياوية. وقد قيل في مثير الحكم:
من رق وجهه رق عامه. وقال الخليل بن أحمد: يرتع الجهل بين الحياة
والكبر في العلم، ومنها وفور شهوانه وتقشم أفكاره. وقال الشاعر:
صرف الحموي عن ذذي الحموي عريز. إن الحموي ليس له تميز.

وقال بعض البلغاء: القلب إذا عاق كالحن إذا غلق. ومنها الطوارق
المزاجية والجموم المذهلة. وقد قال في مثير الحكم: النمر في الحواس.
وقال بعض البلغاء: من بلغ أشدته لا قل من العيش أشدته. ومنها كثرة
أشغاله وترادف أحواله حتى إنها تستوعب زمانه وتستنفد أيامه فذا
كان ذا رياضة ألهته و إن كان ذا معيشة قطعته ولذلك قيل: تفقوا قبل
أن تسعودوا. وقال بزرجمهر: الشغل مجهده والفراغ مفسده. فينبغي لطالب
العلم أن لا ينغي فطلبه وينتهي الفرصة به فربما شغ الزمان ما صحيح
وضن بما منح ويتبدى من العلم بأوله و يأتيه من مدخله ولا يضاغل
بطل مالا يضر جهله فيمنعه ذلك من إدرائه ما لا يسعه جهله فإن لكل
علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة إن صرف إليها نفسه قطعته عما هو
أهم منها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم أكثر من أن يعشي
نفسه من كل شيء أحمسه. وقال بعض الحكماء: ت ترك ما لا يعنوك يتم لك
ما ينكب ولا ينبغي أن يدعو ذلك إلى ترك ما استصعب عليه إشعارا
نفسه أن ذلك من فضول عامه وإذاراه لها في ترك الاشتغال به فإن
ذلك مطية التوكي وعذر المتضررين ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه
ما تعدر كان كالقانص إذا امتنع عليه الصيد تركة فلا يرجع إلا خائياً إذ ليس يرى الصيد إلا متنع كذلك العلم طبه صعب على من جهله سهل على من عمه لأين معانيه التي تتوصل إليها مستودعه في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظاً مسموحاً ومعاني مفهومة فانلفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب. وقد قال بعض الحكاءات: العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه قلب مفكر ولسان معيوب وبيان مصور فإذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه وإذا فهم المعاني سقط عنه كلمة استخراجها وفق عليه معاناة حفظها واستتقرها لأن المعاني شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسلان فإذا حفظها بعد الفهم أنست وإذا ذكرها بعد الأنفس رست. وقال بعض العلماء: من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستند إلى لم يعلم. وقال الشاعر: 

"أذا لم يذكر ذو العلوم بعامة ولم يستفد عالمًا نسي ما تعلم.
فكم جامع للكتاب من كل مذهب يزيد مع الأيام في جمعه عمي وإن لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المعاني منها بعلم العلة في تعذر فهمها فإنه يعرفة أسباب الأشياء وعلها يصل إلى تلافي ما شذ وصلاح ما فسد. وليس يخلو السبب المعاني من ذلك من ثلاثة أقسام إما أن تكون لفظة في الكلام المترجم وإما أن يكون لفظ اصله في المعنى المستودع وإما أن يكون لفظة في السامع المستخرج. فإن كان السبب المعاني من فهمها لفظة في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال: أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سبباً ماناً من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من أحد وجوهين: إما من حصر المتكلم وعيسه وإما من بلادته وقلة فهمه والحال الثانية أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى تقصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجوهين: إما من هذا.
المتمكن وإثارة وإما لسوء ظنه بهم سامعه، والحال الثالثة أن يكون لمواضحة يقصدها المتمكن بكلامه فإذا لم يعرفها السامع لم يكون معانيها. فأما تقصير اللفظ وزيادته في الأسباب الخاصة دون العامة لأنك ليست تجد ذلك عامة في كل كلام وإنما تجد في بعضه فان عدلت عن الكلام المقتصر إلى الكلام المستوفي وعن الزائد إلى الكافي أرجح نفسه من تكلف ما ينكر خاطرك وإن أقتب على استخراجه إما لضرورته دعتك إليه عند إعجاز غيره أو لمحة دخلتك عند تذكر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فإن كان التقصير لحصر والزيادة لهذين سهل عليه استخراج المعنى منه لأن ما له من الكلام محصول لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح وفي الأكثرين الأفلا دليل، وإن كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتمكن بهم السامع كان استخراجه أسهل، وإن كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتمكن فهو أصعب الأمور حالا وأبعدها استخراجا لأن ما لم يفهمه مكلمك فأنت من فهمه أبعد إلا أن تكون بفطذ ذلك كاذب وجودة خاطرك تتبته بإشارة على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستئناف لك وتحت التقدم له.

وأما المواضعة فضبان عامة وخاصية. فأما العامة فهي مواضعة العامة فيها جعله ألقابا لمعان لا يستنغي المعنى المتعلق عنها ولا يقف على معنى كلامهم إلا بها كما جعل المتّكلين الأزهر والأعراض والأجسام ألقابا ووضعها لمعان اتفقوا عليها، وليست تجد من العلوم عامة يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا.

وأما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بداخل كلامه غير ظاهره فإذا كانت في الكلام كانت رمزها وإن كانت في الشعر كانت لغزا. فأما الزمن فلست تجد في علم معنى ولا كلام لغزا وإنما يختص غالبا بأحد شؤونه، إما بذهب شنوع يخفيه معتقده ويجعل الزمن سببا لتطلع النفوس إليه.
وابحاث التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه وإما ما يدعى أربابه أنه علم معاوضة وإن إدراكه بديع معجز كالصنعة التي وضعها أربابه اسما لعلم الكيمياء فلزموا بأوصافه وأخفوا معانيه ليهوهوا الشع بله والأسف
عليه خديعة للعقل الواهية والآراء الفاسدة. وقد قال الشاعر:
منعت شيئا فكثرت الوالع به وحب شيء إلى الإنسان ما منع
ثم ليكونوا براء من عهدة ما قالوه إذا جزء ولو كان ما تضمن هذين التوسعين وأشباههما من الروم معنى صحيحا وعلما مستفادا خرج من الزمن الخفي إلى العلم الجلي فان أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على ست سليم و إخفاء معيد. وقد قال زهير:
الستر دون الفاحشات ولا يالطاك دون الخير من ستر
وربما استعمل الزمن من الكلام يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه
من الألفاظ ليكون أخيل في القلوب موقعا وأجل في النفوس موضعا
فيسير بالرغم سارا و في الصحف خفيا كالذي حكي عن فيثاغورس
في وصايا المرموزة أنه قال: احتفظ ميزانك من الندى وأوزانك من
الصدى يريد بحفظ الميزان من الندى حفظ الإنسان من الحنا وحفظ
الأوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى. فصار هذا الزمن مستحسننا
ومدؤول ولوقاله باللغظ الصريح والمعنى النصيحة لما سارع عنه ولا استحسن
منه وحلة ذلك أن المحسب عن الأفهام كالمجروح عن الأوصار فيا
يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم وما ظهر منها
ولم يتجيب هان واستذنل وهذا إذا يصح استحلاله فيه كل وهو
باللغظ الصريح مستقل. فاما العلوم المتشرة التي تطلع النفوس إليا
فقد استغنها بقوة البالغ عليها وشدة الداعي إليها عن الاستدعاء إليها
يرمز مستحلي ولغظ مستعمر بل ذلك مبخر عنها لما في الاستغلال
باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها وتصور معانيها. فهذا حال
ال الزمن. وأما اللغز فهو تقدى أهل الغر وشغب ذوى البطالة ليتنافسوا في تبأين قرايحهم. ويتفانروا في سرعة خواطرهم فيستكذوا خواطر قد منحوا صحتها فيها لا يجيء نفعا ولا يقيد عاما. فهم أهل الصراع الذين قد صرفوا ما منهجوه من صحة أجسامهم إلى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد أجسامهم لا يكسبهم حمقا ولا يجيء عليهم نفعا. أنظر إلى قول الشاعر:

رجلا مات وخلف رجلا
ابن أم ابن أبي أخت أبيه
معه عن بن أولاده
ابو أخت بن عمه أخوته
أخبرني عن هذين البيتين
وقد روعك صعوبه ما تضمناه من السؤال
إذا استكذلتك فكر في استخراجه فعامت أنه أراد ميتا خلف أبا وزوجه
وعما ما الذي أفادك من العلم ونفتك عنصل جهل ألتست بعد عامه تجهل
ما كانت جاهلًا من قبله ولو أن السائل قلب لك السؤال فأما قد قدم
فقدما ما أدارك في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل الأول
وقد كبدت نفسك وأتعبت خاطرك ثم لا تقدم أن يرد عليك مثل هذا
ما تجاهلها فتكون فيه كما كنت قبله. فاصرف نفسك تولي الله. رشدك عن
علوم النوك وتكافل البطلان قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال: «من حسن إسلام المرء ينكر ما لا يعنه». ثم اجعل ما بلغته
به عليك من صحة الفرجة وسرعة الخاطر مصرفًا إلى علم ما يكون إفاق
خاطرك فيه مدختورا. وكذ فكرك فيه مشكورا. وقد روى سعيد بن
أبي هند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: «نعمت نعمة فهما كثير من الناس الصحة والفراغ»
ويحن نسياعيد بالله من أن نغيب فضل نعمته علينا وتجهل نفع إحسانه
الله. وقد قيل في منثور الحكم: من الفراغ تكون الصبوة. وقال
بعض البلغاء: من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أذاه
أو لمجد أثيه أو حصله أو خير أنسه أو علم افتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه. وقال بعض الشعراء:
لقد هاج النزاع عليك شغلا وأسباب البلاء من النزاع.
فهذا تعليل ما في الكلام من الأسباب المشائعة من فهم معانيه حتى
خرج بما الاستفقاء إلى الاطالة والكشف على الأغمان.
وأما القسم الثاني وهو أن يكون السبب المنحن من فهم السامع لعلاقة
في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام: إما أن يكون مستقلًا بنفسه أو يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره.
فأما المستقل بنفسه فضرورة جلي وإخراج فأما الجلي فهو يسبق إلى فهم متصوره من أول وصلة وليس هذا من أقسام ما يشكل على ذي تصور وأما الجلي فيحتاج في إدراكه إلى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلي عما أخفي وينكشف مما أغضض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به والارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للسياحة جراء وللدرداعة تأثيرا. وأما ما كان مقدمة لغيره فضرورة فبأن أحدهما أن تقوم المقدمة بنفسها وإن تعدت إلى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه في تصوره وفهمه وإن كان مستدعا لنتيجته ويفتح أن يكون مقترا إلى نتياجه فتجدد في نفس المقدمة إلا أنه يتبعها من النتيجة لأنها تكون بعضًا وتبعيض المعنى أشكل له وبعضه لا يغني عن كله. وأما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك إلا بأوله ولا يتصور على حقيقته إلا بمقدمة والانتقال به قبل المقدمة عبء وإعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته أدى. فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الأسباب المبسطة من فهمها وأما القسم الثالث وهو أن يكون السبب المائع لعلاقة في المستقبل فذلك ضرر أن أحدهما من ذاته والثاني من طارئ عليه. فأما ما كان من ذاته فيشيع نوعين أحدهما ما كان منا عن تصور المعنى وفهمه والثاني ما كان
لأبي الحسن البصري

ما معنا من حفظه بعد تصويره وفهمه فأما المانع من تصوير المعنى وفهمه فهو البلاد وقيلة القطفنة وهو الداء العياء. وقد قال بعض الحكاءة: إذا فقد العالم الذين قل على الأضداد احتاجاجه وبكرى الكتب احتاجاجه وليس من بلبه إلا الصبر والاقلال لأنه على القليل أقدر وبالصبر أقوى أن ينال ويعطر. وقد قال بعض الحكاءة: قدّم لهاجتك بعض حاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه حالته إلا أن يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشقر قلب الصبر لقوة شهوته ويكلف جسدك احتال للعب لبعد همته فإذا لاح له المعنى بمساعدة الشهوة أعقبه ذلك إلحاح الآمالين ونشاط المدركين فقلت عندك كل كبير وسهل عليه كل عسير. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تسألون ماتكون إلا بالصبر على ماتكونون ولا تبلعون ماتكونون إلا بترك ماتكونون» وقيل في مثثور الحكم: أنبى قدمك فيكمن من تعب قدمك وقال بعض البلغاء: إذا أستعد الكافه هات الكاف وآشد بعض أهل الأدب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

لا تعجز ولا تدخلك مضجرة فالنجاح يملك بين العجز والضجر وأما المعان من حفظه بعد تصويره وفهمه فهو النسيان الجاشد عن غفلة التقصير وإهمال التوقيفي ينبغي من بليبه أن ينستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بمادة النظر فقد قيل: ان يدرك العلم من لابطيل درسه ويكده نفسه وكثرة الدرس ك لا يصبر عليه إلا من يرى العلم متهما والجهالة مغرما فيحمل تعب الدرس اندرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل فإن نيل العظيم بأمر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب ومحاسب الراحة يكون التعب وقد قيل: علة الراحة قلة الاستراحة. وقال بعض الحكاءة: لا كل الراحة ما كانت عن قد التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استقل المعالم الدرس والحفظ وانكل بعد فهم المعاني على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون.
لا يمكن أطلق ماصده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الناقة
الانسجة والتفرط إلا إذا. وهذه حال قد دفعت إليها أحد ثلاثة أشياء:
إما الضجر من معاناة الجفر وسياحته وطول الأم في التوفر عليه عند
نشاطه وفساد الرأى في عزيمته وليس بعلم أن الضجر خائب وأن الطويل
الأم بغرو وأئ فاسد الرأى مصاب والعرب تقول في أمثالها: حرف
في قلبك خير من ألف في كنتك وقالوا: لا خير في علم لا يعتر معك الوادى
ولا يعبر بك النادى وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه:
على معنى حيثما يمت يتبعي قلي وعاء له لا بناء صمد يؤس.
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أوكنت في السوق كان العلم في السوق
ور بما عزمت المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا
الأناقة المعاني فيها بتلاوتها وهو لا يتصور ولا كيفه ما تضمنته يروى بغير
روية ويفجر عن غير خبره فهو كالكتاب الذي لا يدعع شبهة ولا يؤيد سمة
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "هما السنهاء الرواية
وهما العلماء الرعاية". وقال ابن مستور رضي الله عنه: "كونا للعلم رعاية
ولا تكونوا له رواة فقد يروى من لا يروى وروى من لا يرى.
وحتى الحسن البصري يحديث فقال له رجل: يا أبا سعيد عن قال:
ما تصنع بعمن أنت فقد نالك عظته وقامت عليك حجمه. وربما
اعتمد على حفظه وتصوره وأغلق تقييم العلم في كتبه ثقة بما استقر
في ذهبه وهذا خطأ منه لأن الشك معترض والنسيان طارق.
وقد روي أن رجلاً شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن قال: "قيدوا
العلم بالكتاب". وروى أن رجلاً شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم
النسان فقال له: استعمل يكد أي أكتب حتى ترجع إذا نسيت الي
ما كتب. وقال الخليل بن أحمد: أجعل ما في الكتب رأس المال
وما في قلب الناقة. وقال مهيز: لولا ما عقدته الكتب من تجارب
الأولين لا خلل مع النسبية عقود الآخرين. وقال بعض البلغاء: إن هذه الآداب تناولت عن عقل الأذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والأقلاع لها رعاة. وأما الطارئ فنانون: أحدثها شبهة تعرض المعنى فتمتع من تصويره وتدفع عن إدراك حقيقتها في ينبغي أن يزيد تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل إلى تصوير المعنى وإدراك حقيقتها. ولذلك قال بعض العلماء: لا تخلي قلبك من المذاكرة فتعود عقباً ولا تعفر طبعك من المناصية فتصل颖 سقياً وقال بشار بن برد:

شفاء العمي طويل السؤال وإما دوم العمى طويل السكتة على الجهل فكن سائلاً عندك قامراً دعى أحا عقل لمبحث بالعقل والثاني أفكار تعارض الخاطر فتعده عن تصوير المعنى وهذا سبب فلما يرى منه أحد لسيا من أنسبت آله واتسعت أمانية وقد يقل فيمن لم يكن له في غير العلم أرب ولا فيها سواء همة نان طرأت على الإنسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة ذلبه على التصور لأن القلب مع الاكراء أشد تفولا وأبعد قبولاً وقد جاء في الآخر بأن القلب إذا أكره عمي ولكن يعمل في دفع ما طرأ عليه من هم مذهل أو مكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعاً. وقد قال الشاعر:

ليس بمغنى في المودة شافع. إذا لم يكن بين اللبائع شماع
وقال بعض الحكاء: إن لهذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش فتأثموها بالاقتصاد في التعليم والتوزيع في التقدم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهذا تعديل ما في المستمع من الأسباب المائعة من فهم المعاني. وناهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعزى من بعض الكلام فليذلك لم يدخل في حيلة أقسامه ولم نستجز الأخلال بذكره وهو الخطأ لأن من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج في فهمه إلى تأمل الخط به والمسانع من فهمه هو على ما ذكرنا من أقسامه ومنه ما كان
مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذة بالاستخرجاق فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه. وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:
«أو أتارة من علم» قال الخط. و«عن مjahد في قوله تعالى: «يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوقى خيرا كثيرا» يعني الخط والعرب تتولى
الخط أحد اليسانين وحسنه إحدى القصاصتين. وقال جعفر بن يحيى
الخط ستمح الحكمة به يفصل شذورها وينظم مثيرها. وقال ابن المتقي:
الهستن مقصور على القريب الحاضر والعلم على الشاهد والغائب. وقال
حكيم الروم: الخط هندسة روحانية وإن ظهرت بآلة جسمنية. وقال
حكيم العرب: الخط أصول في الروح وإن ظهرت نحوس الجسد. واختلف
في أول من كتب الخط فذكر كتب الأحبار أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثين سنة في طين نمطبه
فأما غرقت الأرض في أيام نوح على نبينا وعليه السلام ففي الكتب
فأصاب كل قوم كتبهم وبي الكتب العربي إلى أن خص الله تعالى به
استمعيل فأصابه وتعامه. وحكم ابن قديمة أن أوّل من كتب إدريس
على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تكى قدر الخيط وتعدّ من أجل
نافع حتى قال عكمة: بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى أن الرجل
ليففادى على أنه يعلم الخط لما هو مستقر في تنويعهم من عظيم خطره
وجلالته قدره وظهور نفعه وأثره. وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه
 وسلم: «اقرأ و بِكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلمَ» فوصف نفسه بأن علم بالقلم
كما وصف نفسه بالكرم. وعذ ذلك من نعمة العظيم ومن أيانه الغسام
حتى أقسم عليه في كتابه فقال سبحانه وتعالى: «بِنَيْنَا وَالْقَلمِ وَمايْسِطِرْ»
فأقسم بالقلم كما أقسم بما ينط بالقلم. واختلف في أوّل من كتب بالعربية
فذكر كتب الأحبار أن أوّل من كتب بها آدم عليه السلام ثم وجدها
بعد الطوفان إسحويل على نبينا وعليه السلام. وحكم ابن عباس رضي

للأبي الحسن البصري

الله عنهما أن أُولى من كتب بها ووضعها إسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه. وحكى عروة بن الزبير رضي الله عنه أن أُولى من كتب بها قوم من الأولئك أساؤهم أجد وحوز وحكي وكأس وسعفوس وفرشت وكانوا ملوك مدين. وحكى ابن قتيبة في المصارف أن أُولى من كتب بالعربية مراضي بن مرة من أهل الأنبار ومن الأنبار انتشرت. وحكى المدائني أن أُولى من كتب بها مراضي بن مرة وأسلم بن سددة وعاصم ابن جرارة فرماض وضع الصور وأسلم فصل ووصل وعاصم ومضع الالجام. ولما كان الخط بهذه الحال وجب علي من أراد حفظ العلم أن يعني بأمرين: أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها والثاني ضبط ما استتب منها بالنقط والأشكال الم_CIDحة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحظة نظمه فانتهاز زيادة حذق بصنعته وليس بشرط في صحته. وقد قال علي بن عبيد: حسن الخط لسان اليد وهجة الصميم. وقال أبو البسمر المهر: رداءة الخط زمانة الأدب. وقال عبد الحميد: البيان في اليسان والبنان. وأنشدني بعض أهل العلم لأحدهم سهرة البصرة:

اعتر أخاى على رداة خطه
واعتر نذالته بحولة ضبطه
واعتر بأنا الخط ليس يرادمن
تركيبه الاثنين سبسطه
فذا أبان عن المعاني لم يكن
تسينه إلا زيادة شرطه

وحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة
عمل ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الألفاظ وصحة الأعراب
وابذكى قالت العرب: حسن الخط إحدى الفصاحتين وكما أنه لا يعذر من أراد التقدم في الكلام أن يطرح الفصاحة والأعراب وإن فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدم في الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور وإن فهم وأفهم، ومما تقدم بالخط من كان الحسن أجل فضائله وأشرف خصائصه حتى صار عاما مشهورا وسيدا مذكورا غير

لا يوجد صورة.
أن العلماء أظهروا صرف الهمة إلى تحسين الخضير لأنه يشعؤهم عن العلم.
ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء في الأغلب رديئة إلا من أسعد القضاء وقد قال الفضل بن سهل: من سعادة المرء أن يكون رداء الخضير. لو أصب الزمان الذي ينفيه بالكتابة يشعؤه بالحفظ والنظر وليس رداء الخضير هو السعادة وأما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم وعامة ذي الخضير الحسن أن يتشاغل بتحسين خذه عن العلم فإن هذا الوجه صار براءة خشه سعيدة وإن لم تكن رداء الخضير سعادة.
واذا كان ذلك كذلك فقد يعرف للخضير أسباب تنعيم من فهمه وصحته والأسباب المهنة من قراءة الخضير وفهم ما تضمنه قد تكون من ثمانية أوجه: (الوجه الأول) إسقاطه ألغاظا من إماة الكلام. يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخرجه ولا يفهم معناها وهذا يكون إما من سهو الكاتب أو من فساطر تنهى وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما سما ممن على ما سقط أو فسد لا سيا اذا قل لأن الكلمة تستدعي ما يليها ومعرفة المعنى توضع عن الكلام المرتجع عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فإنه يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيما إذا كان كثيرا لأنه يحتاج في فهم المعنى إلى الفكر والروية فقا قد استخرجه بالكتابة فإذا هو لم يعرف تمام الكلام المرتجع عن المعنى قصر فهمه عن إدراك وصلة فكره من استنباطه (والوجه الثاني) زيادة ألغاظ في إماة الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا لأنه يقصد الكتاب تعمية كلامه فيدخل في أشياء ما يمنع من فهمه فيصير ذلك وهذا يعرف بالمواضيع فاما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلامين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتضى وغيره (والوجه الثالث) إسقاط
حروف من الاشباك الكلامية تمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا
تأثر من السهو فيقل وتارة من ضعف اللهجاء فيكثر والتقول فيه كالقول
في الوجه الأول (والوجه الرابع) زيادة حروف في أشواق الكلمة بشكل بها
معرفة الصحيح من حروفها وهمذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل
ولايمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لعمية ومواعظة يقصد بها
الكاتب إخفاء غرضه فيكتئر الترجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه
الثاني (والوجه الخامس) وصل الحروف المصولة وفصل الحروف
الموصولة فيدعو ذلك إلى الاشكال لأن الكلمة ينبه عليها وصل حروفها
ويمكن تصميمها من مشاكلها غيرها قات كان ذلك من سهو قل فشمل
استخراجه وإن كان ذلك من قلة معرفة بالخط أو مشاك تسبقه اليد كثير
فصعب استخراجه إلا على المرتاض به ولذلك قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه: علي الكتابة المشق كما أن شر القراءة المسذمة وإن كان
للعمية والرحس لا يعرف إلا بالمواضعة (والوجه السادس) تغيير الحروف
عن أشكالها وإبدالها أغيرها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد
على شكل الراء وهذا يكون في رموز الترجم لا يوقف عليه إلا بالمواضعة
إلا لم قد زاد فيه الذكاء فيقدر على استخراج المعنى (والوجه السابع)
ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة وإبانتها على
الأوسماء الحقيقية حتى لا تقام الحروف تمتاز عن أغيرها حتى تصير
العين الموصلية كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداء الخط
وضعه اليد واستخراج ذلك يمكن بفضل المعاناة وشدة التأمل وإن
كان ربما أضحى قارئه وأوجي معانيه ولذلك قبل: إن الخط الحسن
ليزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) إغفال النقط والأشكال التي تميز
بها الحروف المشتقة وهذا أيسر أمرا وأخف حالا لأن من كان متميزا
بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم
ماتضمنه مع إغفال النقط والأشكال فإن الاستحقاق الكتب ذلك في المكتبات ورأوه من تقصير الكتب أوسوء عليه بين المكتبات وكان استحقاقهم له في مكتبة الرؤساء أكثر. حتى قدامة بن جعفر: أن بعض كتاب الدواين حاسب عاملا فشكا العامل منه إلى عبد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجاً لصحة دعوته وجوس ووضوح شكوكه دعوى فيها عبد الله بن سليمان -هذا هذا فأخذها العامل وقرأها فظن أن عبد الله أراد بهذا هذا إثباتاً لصحة دعوته وصدق قوله: كي يقال في إثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة إلى كتاب الدواين وأبلغ خط عبد الله وقال له: إن عبد الله قد صدّق قوله: وصحيح ما ذكرت نفيًا على الكتاب أن فاتني عليه만 وأطيف به على كتاب الدواين فلم يقفوا على مراد عبد الله فرد إليه ليسأل عن مراده فشذد عبد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها و dalle المستعان استعظاماً منه لتنصيصهم في استخراج مراده حتى احتاجت إلى إبنته بالشكل فهذه حال الكتاب في استحقاقهم إنجاز المكتبات بالنقط والأشكال فأما غير المكتبات من سائر العلم فلم بروه قيحاً بل استحسنوه لاستيا في كتب الأدب التي يقصد بها معرفة صيغة الألفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر وغيره فأن الحاجة المضطجعة بالشكل والإجماع أكثر وهي مما سواء من العلوم أيسر وقد قال النور: الخطوط المعجمة كالبرود المعروفة. وقال بعض البلاغة: إجماع الخط يمنع من استعجامة وشكله يؤمن إشكاله: وقال بعض الأدباء: رب علم لم تفجع فصوله فاستعمج محصوله. وكا استحقِّ الكتاب الشكل والإجماع في المكتبات فإن كان في كتاب العلوم مستحسنًا فذلك استحسنوا مشق الخط في المكتبات وإن كان في العلوم مستحبًا وسبب ذلك أنهم لفورت إدلاهم بالصناعة وتقدمهم في الكتابة يكتونون بالإشارة ويتصرعون على التلويح ويرون الحاجة إلى استيفاء شروط الأبانة تقصيراً وقصداً
ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا ما نبِه عليه من سواه المداد آثراً جليلاً وعلى الفضل والتخصيص دليلاً. حكى أن عيسى بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفراء فأخذ من مداد الدواء فطلاه به ثم قال:

المدادينا أنهن من الزعفران وأنشد:

إنا الزعفران عطر العذاري
ومداد النَّور عطر الرجال
فهذه جملة كافية في الأبانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام
ومعرفة معانيه لنفساً كان أو خطأ والله ولي التوفيق.

فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول إلىه. ثم يكون بعد ذلك سائعاً لنفسه مدبراً لما في حال تعلمه فان للنفس نفورة يفضي إلى تقصير دوقورا يؤدي إلى سرف وقيادها عسر. ولها أحوال ثلث: مسال عمل وإنصاف وحالة غلو وإسراف وحالة تقصير وإجحاف. فاما حالت العدل والانصاف فهذا أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسائر وشفقة كافية فطبعتها تمنع التقصير وشفقتها ترد عن السرف وهذه أحمده الأحوال لأن ما منع من التقصير تساوء وما صد عن السرف مستديم وتفوق إذا استدام فأخطى به أن يستكيل. وقال بعض الحكاء: ياك! وفكرة الاعتدال فان المسرف مثل المقرص في الخروج عن الحد. وأما حال الغلو والاسراف فهي أن تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيما اختص الطاعة على إفراز الجهاد ويفضي بها إفراز الجهاد إلى عجز الكلام فئدها عجز الكلام الى الشرك والاهمال فتصير الزياة تقصانة وربت خمراً. وقدقالت الحكاء: طالب العلم وعامل البركا كل الطعام إن أخذ منه قوتاً عصمه وإن أصرف فيه أبضمه وربما كان فيه منجبة كأنه الأدوية التي القصد فيها شفاء وتجاوز الحد فيها السم الميت. وأما حال التقصير والإجحاف فهي أن تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة
فإدعوها الاشراق إلى المعصية وتمتعها المعصية من الإكراه فلا تطلب شاردا ولا تقبل عادأ ولا تخفف مستودعا ومن لطلب الشارد ويقبل العاد ليخفف المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون. وقد قال بعض الحكاء: المعززم الولاع والقوت مع النواح. وقد يكون لنفس مع الأحوال الثلاث حالان مشتركان بلغة إحدى القوتين فيكون للنفس طاعة وإشراق وإحداهما أغلب من الأحمر فإن كانت الطاعة أغلب كانت إلى الوفور المجاز أميل وإن كان الاشراق أغلب كانت إلى التقصير أقرب فإذا عرف من نفسه قدر طاعته وخبير منها كنه إشراقها ضاع نفسه ليلبث على أحد حالاتها. وقد أشار إلى ما وصفنا من حال النفس المتزدق في قوله:

لكل أمري نساء نفس كرية وأخرى يعاصيها النقي ويطيعها ونسائ من نفسها تشفع لندى إذا قل من أحرارها تشفعها فأن أهل سياستها وأغلب رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة وحلت معاناتها فلم تنفد إلى طاعة ولم تنكف عن معصية. وقال سابق البريري:

إذا زجرت بلوجا زدته علقا وجلت النفس منه في تمامها فعد عليه إذا مات نفسه جمعت باللتين ينتظر الله ينيرهما فإذا استصغب عليه قيد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناه رياضتها تركها ترك راحة ثم عاودوها بعد الاستراحة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن القلب يموت ويحيا ولو بعد حين»، وقال ابن مسعود: للقلوب شهوة وإقبال وفترة وابتراقها من قبل شوتها ولا تأتوها من قبل فترتها. وقال الشاعر:

وأما الشروط التي يتوقف بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب وما سيه الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب...
لأبي الحسن البصري

مع ما يلاحظ به من التوفيق ويعد به من المعونة فتسعة شروط: (الأول) العقل الذي يدرك به حقائق الأمور (والثاني) الخصائص في النجاح التي يتصرف بها. غواصين العلوم (والثالث) الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره، وفهم ما عامة (والرابع) الشهوة التي يدنيه بها الطلبه ولا يسرع فيها الملذ (والخامس) الاكتفاء بمادة تغذية عن كلف الطلبه (والسادس) الفراخ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والتاسع) عدم القواطع المذهبة من هدوء وأشغال وأمراض (والثامن) طول العمر وانتساب المدة ليتبقى بالاستكثار إلى مهار الكمال (والثامن) الظفر بعالم سمع بعمه مكتوب في تعليمه. فإذا استكمل هذه الشروط النسعة فهو أبعد طالب وأصبح متعلم. وقد قال الإسكندر: يحتاج طالب العلم إلى أربع: مدة وجدية وقريحة وشهوة وتمائمها في الخامس معلم ناجح (فصل) وساذكر طرفما يتأدبه به المتعلم و يكون عليه العالم. أعلم أن للتعلم في زمان تعامله ملقا وتحالا إن استعملهما غنم وإن تركهما حرم لأن التلقى لعالم يظهر مكونه عامله والذالك له سبب لإداة صبره وباظهار مكونه تكون الفائدة وباستنادا صبره يكون الاكتثار. وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليس من أخلاء المؤمن الملحق إلا في طلب العلم". وقال عبده الله بن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالبا فعززته مطالوبا. وقال بعض الحكاءين: من لم يتحمل ذل العلم ساعة يبقى ذل الجهل أبدا. وقال بعض حكياء الفرس: إذا قعدت وأنت صغير حين تعب تقدمت وأنت كبير حين لا تتعب. ثم يعرف له فضل عامله وليشكر له جميل فعله. فقد روى عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من وقر عالما فقد وقر وهب". وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل. وقال بعض الشعراء:
إن المعامل والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاضبر لدائمك إن جفوت طبيبه وإصره لجلوبك إن جفوت عماه
ولايمنه من ذلك علو منزلته إن كانت له وإن كان العالم خالما فإن
العلماء بعمهم قد استحقوا التظالم لا بالقدرة والمال، وأنشدني بعض
أهل الأدب لأبي بكر بن ديريد:

أثوابه في عيون رامقة
والنظر إليه بين ذي أدب
فالمسك بينا تراه متهما
حتى تراه في عرضي ملك
وموضع الناج من مقارقه
ولكين مفتديا بهم في رضى أخلاقهم متشابها بهم في جميع أفعاله ليصير
له آله自动驾驶ها ناشئا ولما خالفها مجانا. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"خيار الشاباك المتشابهون بشيوخهم وشرارشوخهم المتشابهون بسبابكم".
وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
"من تشبه يقوم فيه منهم"، وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر
ابن ديريد:

العالم العاقل ابن نفسه،
وراه جنس عامة عن جنسه
كن من شئت وكن مؤتيا
فأنا المسرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لنفسه
ويعجز المتعلم التبسط على من يعامة وإن أسسه والادلال عليه وإن
تقدمت صحبه. فقد قيل لبعض الحكاء: من أذال الناس؟ قال: علم
بهر عليه حكم جاهل. وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية
من السير قال لها: من أنف قالت: بن الرجل الجواد حامث قال صلى
الله عليه وسلم: "أرحموا عز وقومن ذل أرحموا غنيا افتقر، أرحموا عالمًا
ضاعت بين الجهلاء". ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فإن

آدم، والأدب والدين
في ذلك كفرنا لتعمله واستخفنا بحقه وربما وجد بعض المتعامدين قوة
في نفسه بحجة ذكائه وحدوده خاطره فقضى من يعلمه بالاعتنى له
والاعتراض عليه إزراء به وتبتكي لكي فيكون كن تقدم فيه المثل السائر
لأبي البطحاء:

أعلمه الركة كل يوم فلما آشهد ساعده رماني

وهذه من مصائب العلماء وإنكاس حظوظهم أن يصيروا عند من
يعملوا مستجداً وبين من قدموه مسلتذين. وقال صالح بن
عبد القدوس:

فبحسب جهولا أنه منك أعلم
متى يبلغ البنان يوما تسممه
أتذا كنت تبنيه وغيرك فيدم?
متى ينتهى عن سبي من أثني به
إذا لم يكن منه عليه تنتم؟

وقد ربح كثير من الحكاء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم:

يا فاخر للسماها بالسلاف
وتاركا للعالما والشرف
لأن جعلا عرائض التلف
من علم الناس كان نيرأب
ذاك أبو الروح لأيوب الفحيف

ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبه منه ولا يدعوه
ترك الأعين له على التقليد فيا أخذ عنه فإنه رما على بعض الأتباع
في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل وأن اعتقاده حجة وإن
لم يجعل فيضى به الأمر إلى التسليم له فإ أخذ عنه ويؤول به ذلك إلى
التقصير فيا يصدر منه لأنه يجتهد بحسب اجتهاد من بأخذ عنه فلا يعد
أن تبطل تلك المقالة إن انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيا
شارك لأته قد لا يرى لم من يأخذ عنهم ما كنا يرونهم من أخذوا عنه
فيتاهم بما قصرها في ضعفها عن إياهم ويعجزوا عن نصره فيذهبوا
ضائعين. ويصيروا عجزة مضميون، ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا
يناظر في مجلس حفل وقد استدل عليه الحضور بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة ووجه سادها أن شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فأمسك عنه المستند تعمجا ولأن شيخه كان محترفا وقد حضرت طائفة من فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم أقبل المستند على وقال لى: والله لقد أحسنني بجذه وصار سار الناس المبزين من هذه الجهلة من بين مستهر ومتمتعب ومستعديب بالله من جهل، غرب فهل رأيت كذلك عالمًا أوغل في الجهل وأدل على قلة العقل وإذا كان المنتظم مستدل الرأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يعلم منه حتى لا يحمله الأعان على اعتراض المبكتين ولا بعثه الغلو على تسليم المقالين برى المنظم من المدمنين وسر المعمل من الهجمين وسر العقل، كثرة السؤال في آتيس إعتنا ولاقبول ماصح في النفس تقليدا. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العلم خزيان ومنتاحه السؤال فاسألوا وحكم الله فاما عامر في العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخرون. وقال عليه الصلاة والسلام: "هلا سألوا أنا لم يعموا فاما شفاعة النبي، فأمري بالسؤال وحيث عليه. ومن أخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم: "أنهم كن عن قبل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال. وقال عليه الصلاة والسلام: "إياكم وكثرة السؤال فاما هلك من قبلكم بكثرة السؤال" وليس هذا مالإلى الأول واما الأمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونعني عنه من قصد به إعتنا وما سمع وإذا كان السؤال في موضوعه أزال الشكوك ونفى الشبهة. وقد قيل لابن عباس من الله عنهم: "بُنِت هذا العلم قال: بلسان سؤال وقبب عقول وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حسن السؤال نصف العلم" وآنشد المبرد عن أبي سفيان الفموي: فصل الفقيه تكون فقيها مثله لا خير في علم بغير تدبر"
لا يُبقي الأحسى البصري

وأذا تعسرت الأمور فأرجها وعليك بالأمر الذي لم يعسر
ولياخذ المتعلم حظه من وجد طلبه عنده من نيين وحالف ولا يطلب
الصيت وحسن الذكر باببع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفع
بغيرهم أعم إلا أن ي سوى النفعان فتكون الأخذ عنم شتهر ذكراد وافتقم
قدره أولى لأن الانساب إليه أجمل والأخذ عنه أسرح. وقد قال الشاعر:
إذا أست لم يشترك علمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس بقبيه.
وإن صانوك العلم الذي قدحته، أناك له من يجمده ويجمعه.
وأذا قرب منك العلم فلا يتطلب ما بعد وأذا سهل من وجه فلا
تطلب ماصعب وإن ذند مئ حبرته فلا تتطلب من لم تختره. فإن
العدل ورب الفقير إلى البعيد عمتة وترك الأسهل بالأصعب بلاء.
والانتقال من المخبر إلى غيره خطر وقد قال على بن أب طالب رضي
الله عنه: عقب الأخر مضره والمتعسف لا تدومن له مسره وقال بعض
الحكام: القصد أسهل من الشعف والكلف أودع من التكلف وربما
ينبئ الإنسان من بعد عنه استهانة عن قرب منه وطلب ماصعب
احترقا لمساهل عليه وانتقال إلى من لم يخبه ملا عن خبره فالأذرك
محبباً ولا يظفر بطل مقاله. وقد قال العرب في أمثالها: العالم كالمكعبة
يأتيها البعده ويزهده فيها القرباء وأنشدني بعض شيوخنا لمسه بجيار
لأتي لا مالم يغسل بقوم فبحلوه غير دار المواض.
فإذا توجد السلامة والصحة مجموعين في إنسان،
فأذا حلت مكاناً صائحاً فهما في النفس مشوقان
هذه مكة العزيزة بيت الله يسعى لهجال الثقاب.
وترى أزهد البرية في الحج لما أهل لقرب المكان.
فلا يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التي يهم
ألق ولهلم أزم فالتوضيح وبجانبة العجب لأن التوضيح عطوف والعجب.
منفر وهو بكل أحد قبيل و بالعلماء أقبح لأن الناس بهم يقتدون وكثيراً ما يداخلهم العجب لتوجههم بفضيلة العلم ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواصل بهم أولى ومجلوبة العجب بهم أخرى لأن العجب نقص ينافي الفضل لسماً مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن العجب لا يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" فلا ينفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب. وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قليل العلم خير من كثير العبادة وكتب بالماء علما إذا عبد الله عن ولد وكتب بالمرء جهالاً إذا أعجب برأيه. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعمموا العلم وتعلموا للعلم السكتة والعلم وتواضعوا من تعلمون منه ليتوضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا تقوم عالمكم بجعلكم. وقال بعض السلف: من تكبر بعلمه وترفع وضعيه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به. وعدها المجدبهم انصرف نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهالة وانصرف نظرهم عمين فوقهم من العلماء فانه ليس متنائاه في العلم إلا وسيد من هو أعلم منه إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر. قال الله تعالى: "نرفع درجات من نشاع، ونوقع كل ذئ علم على" يعني في العلم. قال أهل التأويل: يعني فوق كل ذئ علم من هو أعلم منه حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى. وقيل لبعض الحكاة: من يعرف كل العلم فال كل الناس. وقال الشعبي: ما رأيت مثله وما أراه أن ألقى رجلاً أعلم منه إلا لكيته لم يذكر الشعبي هذا القول تفضيلاً لنفسه فيستيق منه وإنما ذكره تعظيماً للعلم عن أن يحاط به فينفيه من علم أن ينظر إلى نفسه بقصيرة ما قصر فيه ليسلم من نجب ما أدرك منه. وقد قال في منشور الحكم: إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهالة ولكن انظر الى من فوقك من العلماء. وأنشدته لابن العميد:
من شاء عيشا هنالك يستفيد به في دينه ثم فيدنياه إقبالا فلا ينظر إليها من فوقه ادبا ولينظر إليها من دونه مالا
وقدما تجد بالعلم معجبا وما أدرك منه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصدع عن العجب به. وقد قال الشاعر: العلم ثلاثة أشباه
فإن نال منه شيربا شيخ بأنه وظن أنه ناله ومن نال الشهر الثاني صفرت إليه نفسه وعلم أنه لم يلته واما الشهر الثالث فهمه لا يناله أحد أبدا، وما أنذرك به من حال أني صنفت في البيوع كتاب جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نسبي وكذبت فيه خاطري حتى إذا تهدبت واستكمل وكذلت أعجب به وتصورت أني أشت الناس اضطلاعا بعامة حضرني وأناج مجلسي أشعر بهي然 فسأتلاني عن بع عقداء في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحد مهني جوابا فأطهرتها مفكرا وبحالي وحالمها معتبرا. فقالا: ما عندك فيها سأبتك جواب وأنت زعم هذه الجمعية قبئ: لا. فقالا: واهذا لك وانصرفنا أنتيا من ينقدمه في العلم كثير من أعجابه فسأتلاء فأعطهما مسيرا بما أقنعهما وانصرفنا عنه راضيين بجوابه حامدين لعامة فقية مرتيبا وبحالهما وحالي معتبرا واني لعل ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقت فكان ذلك زاهرا نصيحة وندير عظة تدلل بحما قيد الناس واتخضف لياجاح العجب توفيقا منحته ورشدا أوتيته وحق على من ترك العجب بليخسن. أنبدع التكلف لما لايفسق فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بلله منها، ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الحاظه في كتاب البيان حيث يقول: اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لايفسق كما نعوذ بك من العجب بليخسن ونعوذ بك
من شر السلاطنة والهذر كأنه يغزو بك من شر العي والحصر. ونحن نستعيد بإلهة تصالي مثل ما استدعى فليس مكن تكلف ما لا يحسن غاية بثني إلى يدك وحده، ومن كان يقلب نفسه غير محدود فأخرجته، فأن يضيل و بإلزام. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سائل فأقل مث nike ضلال وأفضل". وقال بعض الحكماء: من العلم أن لا تتكلم فيه لا تعلم بكلام من يعلم نفسه جهل من عقلك أن تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن زيادة بن زيد حيث يقول:

إذا ما تسنى على تناهت عندك أطل فامل أو تناهي فأقصر
ويحصرني عن غالب المرء فعله كنف الفعل عما غيب المرء مخبرا

فأنا لم يكن للحاصلة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقع به أن يقول لا أعلم فيها ليس علم. وروى أن رجلاً قال: يارسول الله أرى البصاع خير وأرى البصاع شر فقال: لا أدرى حتى أسأل جبريل. وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: وما أدركها على القلب إذا سائلーム أحكم فيها لا أعلم أن يقول الله أعلم وإن العالم من عرف أن ما يعلم فيها لا يعلم قابل. وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله. وقال بعض العالماء: هكذا من ترك لا أدرى. وقال بعض الحكماء: ليس من فضيلة العلم إلا علم إلى لست أعلم. وقال بعض البلغاء: من قال لا أدرى علم فدرى ومن انتقل ما لا يدرى أهملت فوهى ولا ينبغي للرجل وإن صار في طبقة العلماء الأفضل أن يستنكر من تعليم ما ليس عنه ليس علم من التكلف له. وقد قال عيسى بن مريم على نبينا عليه السلام: يا صاحب العلم تعليم من العلم ما جهله وعلم الجهل ما علمت. وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: خمس خذوه عن عنى فلو كتب الفلك ما وجدتموه إلا عندي ألا لا يرجعون أحد إلا ربه
لا يتفق إلا ذنبه ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده وإذا سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم ومنزلة الصبر من الأشنان ومنزلة الرأس من الجسد.
وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لو كان أحد مكتفي من العلم لاكتفي منه موسى على نبيا وعليه السلام. ولما قال هل أتبعك على أن تعلمين ما عامت رشدنا. وقيل لخيل بن أحمد: بم أدرك هذا العلم قال: كنت أذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته. وقال بزوجره من العلم أن لا تخبر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم. وقال المنصور لشريك: أى لك هذا العلم قال: لم أرغب عن قليل أستفده ولم أبقي بكثير أفيده على أن العلم يقتضي ما يقتضي وينبغي ما تأخر عنه وليس للراغب فيه قناة معه. وروى عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «منهومان لا يشعبان طالب علم وطالب دنيا» أما طالب العلم فإنه يزداد من الرحمن قربا ثم قرأ «إنه يخشى الله من عباده العلماء» وأما طالب الدنيا فإنه يزداد طفيا ثم قرأ «كلا إن الإنسان ليطمئن أن رآه استطيع» ولكن مستفلا لفضيلة مه لزداد منها مستكثرا للقصيدة فيه ليتمي عنها ولا يزعج من العلم بما أدرك لأن القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل. وقد قال بعض الحكاء: عليك بالعلم والانتشار منه فإن قليله أشبه شيء بقليل الخير وكثيره أشبه شيء بكثيره. ولن يصيب الخير إلا القليلة فأما كثرة فانها أمنية. وقال بعض البلغاء: من فضل علمك استقلالك لعلمك. ومن كل عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمه ولا يتجاوز بها قدر حقها. لأن يكون بها مقصرًا فيذعن بالانقياد أول من أن يكون بها مجزأا فيكف عن الأزدياد لأن من جهل حال نفسه كان لغيرها أجهل. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: يارسول الله تمتي يعرف الإنسان ربه قال: إذا عرف نفسه. وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس في علموه.
أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة لا يخلو حال الإنسان منها فقال: الرجال أربعة: رجل يدرى ويدري أنه يدرى فذلك عالم فأسألوه ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدرى ويدري أنه لا يدرى فذلك مستشهد فامهو ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه. وأنشد أبو القاسم الآمنى:

إذا كنت لاتدرى ولم تكن بالذي جهلت ولم تعليم بأنك جاهل فمن كان تدرى بأنك لا تدرى إذا جئت في كل الأمور بقمة فهكذا أرضيدها الذي يدرى ومن أعجب الأشياء أنك لاتدرى وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى.

ولكن من شيته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأثر بما يأمر به ولا يكن من قال الله تعالى فيهم: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحار يحمل أسفارا". وقد قال قتادة في قوله تعالى: "و إنه لدو عالم لما عماناه" إنه العامل بسم علم. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ويل لجماع القول ويل للنصرين" يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به. وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الحضر على نبينا عليه السلام قال لموسي عليه السلام: "ابن عمران تعليم العلم لعمل به ولا تعليمه لتحتث به فيكون عليك بوره ولغثيك نوره". وقال على ابن أبي طالب: إذا زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم. وقال أبو الدرباء: "أخف ما أخفما" عما أخفوا. والآن يعذب الله أن يقول قد عانت فانما عملت وكان يقال: خير من قول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله. وقيل في مثور الحكم: "لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به". وقال بعض العلماء: "ثمرة العلم أن يعمل به وثمرة العمل أن يؤخر عليه". وقال بعض العلماء: "العلم مهتف بالعمل فإن أجابه ولا ارتحل. وقال بعض الحكمة: خير العلم مالفع وخير القول
لأبي الحسن البصري

ماردع. وقال بعض الأدباء: ثمرة العلوم العمل بالعلوم. وقال بعض البلاغاء: من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فن استعمل علمه لم يفل من رشاد ومن استقل عمله لم يقص عن مراد. وقال أبو تمام الطائي:

ولم يحصدوا من علم غير عامل خلاقا ولا من عامل غير علم.
رأوا طرفات المجد عوجا فظيفة. وأنفع عجز عندهم عجز حازم.
لأنه لما كان علمه حجة على من. أخذ عنه واقبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير إليه كان عليه أجز وله ألزم لأن مرتبتة العلم قبل مرتبة التول كأن مرتبتة العلم قبل مرتبة العمل. وقد قال أبو العناية رحمه الله:

استمع إلى الأحكام تحملها الرواة اليك عنك.
وأعلم هديت بأنها حجيب تكون عليك منك.
ثم لينجب أن تقول ما لا يفعل وأن يأمر بما لا يأمر وأن يسر
غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر هذا:

اعمل بقولك وإن قصرت في عالي ينفعك قول ولا يضررك تقصيره.
عذرا له في تقصيره فيضره وإن لم يضر غيره فإن إعداد النفس يجريها
ويفضب لها مساويا فان من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن أمر بما
لا يأمر فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المكر والخديعة صاحبهما في النار». على أن أمره بما لا يأتي مطرح وإنكاره ما لا ينكره من نفسه مستقب. بل ربما كان ذلك سببا لأغراء الأمور بترك ما أمر به عنادة وارتكاب ما نهى عنه كيدا. وحكى أن أعرابيا أتي ابن أبي ذنب فساه عن مسألة طلاق فأتاه بطلاق أمرته فقال: انظر حسنًا قال: نظرت وقد
بانت منك فولى الأعرابي وهو يقول:
أتيت ابن ذئب أتمنى الفقه عندها فطقق حتي البيت بتبث أناهبه أطلق في توي ابن ذئب حليته وعند ابن ذئب أهله وحالائه فظّن بجهله أنه لا يقمعه الطلاق بقوله من لم يلزم الطلاق فما ذلك يقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلاه وقال أحمد بن يوسف:
وعامل بالفجور بأمر بالـسـبركة يحوض في الظلم أو كطبيب قد شنه ستم وهو يداوي من ذلك الستم يأوات الناس غير معطر تؤين يِهـر أو لا فلا تلم وإن آخر عود لساناك قنال البنظة واحفص كلامك أنا حفظة
يأك أن تعظ الرجال وقد أصبحت محتاجا إلى الوعظ
وأما الانقطاع عن العلم إلى العمل أو الانقطاع عن العمل إلى العلم إذا عمل بموجب العلم فقد حكي عن الزهد فيه ما يغني عن تكلف غيره وهو أنه قال: العلم أفضل من العمل به ما جهل والعمل أفضل من العلم لمن علم وأما أفضل ما بين العلم والعبادة إذا لم يبحث بواجب ولم يقتصر في فرض فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"بيعت العالم والغابه فيقال للعابد: انحن الجناة ويرحال للعالم: انتص على تشفع الناس". ومن آداب العلماء أن لا يبتازوا بتعالم ما يحسنون ولا يمتناوا من إفادة ما يعلمون فإن البخل به يوم وظلم والمنع منه حسد وإثم وكيف يسوع لهم البخل بما منجحو جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل أم كيف يجوز لهم الشج بما إن بذلوا زاد وما وإن كتموه تناقص وهم و او هستن بذلك من تقدهم مما وصل العلم الهم ولانقش عنههم بانتراضهم ولصاروا على مرور الأيام جهالاً وبتقلب الأحوال وتناقصها أرجالاً وقد قال الله تعالى: «وإذ أخذ
لأبي الحسن البصري

مستدعى وطالب فَأَمَا المَسْتَدْعِي إِلَى الْعَلَمِ فَهُوَ مِنْ أَسْتَدْعَاهُ الْعَالَمِ إِلَى التَّعْلِيمِ بِما ظَهَرَ لَهُ مِنْ جُودَةِ ذِكَارِهِ وَبَانِهِ مِنْ قَوْةِ خَاطِرِهِ فَإِذَا وَافَقَ أَسْتَدْعَاهُ الْعَالَمِ شَهْوَةَ المَتَعْلِمِ كَانَتْ نَتَجِهُ إِلَى دُرِّ النَّجْبَاءِ وَظَفْرِ السُّعْدَاءِ لِأَنَّ الْعَالَمِ بِأَسْتَدْعَاهُ مَتَوْفِرِ وَالْمَتَعْلِمُ بِشَهْوَتِهِ وَذِكَارِهِ مُسْتَكْثَرُ وَأَمَّا طَالِبُ الْعَلَمِ لِدَاعِ يُدْعَوْهُ وَبَاعْتِ يُدْعَوْهُ فَإِنَّ كَانَ الدَّاعِي دَيْنِيَّ يُبِينَ وَإِنَّ الْمَتَعْلِمُ فَطَنَا ذَٰلِكَ وَجَبَ عَلَى الْعَالَمِ أَنْ يَكُونَ عَلَبِهِ مَقِبلًا وَعَلَى تَعْلِيْمِهِ مُتَوْفِرًا لَا يَجِنَّ عَلَيْهِ مَكَّنُونًا وَلَا يَطُوِّي عَنْهُ مَخْرُوْنَاءَ وَإِنَّ كَانَ بَلِيْداً بَعْدَ الفَطْنَةِ فَيُبْنِيَّ فَأَنْ لَا يَمْنُعُ مِنَ الْبِسْرِ يُفْحِرُ وَلَا يَجِلُّ عَلَيْهِ بِالْكِثِّرِ فِي زَوْلُم. وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: "لا تَمْنِعُوا الْعَالِمِ أَهَالَهُ فَتَظَاهِرَوا وَلَا تَضْعِحُوا فِي غَيْرِ أَهَالِهِ فَتَأْثِمُوا". وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ: لَا تَمْنِعُوا الْعَالِمُ أَحْدَاهُ فَإِنَّ الْعَالَمِ أَمْنَعَ جَانِبَهُ. فَأَمَّا أَنْ لَمْ يَكُن الدَّاعِي دَيْنِي نَظَرَ فِيهِ فَأَنْ كَانَ مَبِحَاحَ كَرِجلٍ دْعَاهُ إِلَى طَلْبِ الْعَلَمِ حَبْبِ النَّبَاهةِ وَطُلْبِ الْرَّيْاسَةِ فَقُولَهُ فِي قَيْلِهِ قَولُ الْعَالِمِ وَقَالُ الْعَالِمُ: "كَانَ مَا كَانَ مَرَأَضَ بِالْكِتَابِ وَطْرِيعَتِهِ وَطَلَبَهُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم". وَقَالَ عَبْدَانَا النَّبِيَّ بِنَبْلِهِ: طَلَبْنَا الْعَلَمِ لِلدُنْيَا فَذَلِكَ عِنْهُ الْعَالِمِ، وَإِنَّ كَانَ الدَّاعِي مَحْضَرَ كَرِجلٍ دْعَاهُ إِلَى طَلَبِ الْعَلَمِ شَرْكَأَمِنٍ وَمُكَّرِّبٍ بَاطِنٍ يَرِيدُ أَنْ يُسْتَعْلَمُهُمَا فِي شَهْبِ دَيْنَةٍ وَحِيلٍ فَتَهَيْهِ لَا تَجِدُ أَهَلُ الْسَّلَامَةِ مِنْهُمَا مَخْلِصًا وَلَا عَنْهُمَا مَدْفَاعًا. كَأَنَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "أَهْلُكَ أَمْيَةٌ رَجُلُانِ عَالِمٌ فَأَجِرَ وَجَاهَلٌ مَّتَعْبَدُ فَقِيلُ: يَأَيُّوْسُرُ اللَّهُ أَيَّ النَّاسِ شَرْقًا قُالَ: الْعَالِمَاءِ اذَا فَسَدُوا". فَيُبْنِيَّ لِلْعَالِمِ اذَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الْحَالِهِ أَنْ يَمْنِعَ مِنْ طُلْبِهِ وَيَصْرَفَهُ عَنْ غِيْبِهِ وَلَا يَنْعِهِ عَلَى إِمْضَاءِ مَكَّرَهُ وَإِكِيَالِ شَرَهِ. فَقَدْ رُوِى أَنَّ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: "يَعْلَمُ الْعَالِمُ"
في غير أهلنا كقاض الخنازير ولفظه أبي وعليه السلام. لا تلقوا الفهم إلى الخنازير، فصاغه أفضل من اللفظ ومن لا يستحقه شر من الخنازير. وهم أن لم يبدأ سأل علماً عن بعض العلوم فلم ينده فقيل له: لم متعته فقال: لكل شرب غرب، ولكل بناء أس. وقال بعض البلقاء: لكل ثوب لا بلس، لكل علم قابس.
وقال بعض الأدباء: أمرت لروضتها توسطها خنزير وابله لعلم حواء شرير. وينبغي أن يكون للعالم فرصة ستموسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليطيبه ما يتحمله بذكائه أو يضعع عنه بلادته فإنه أروح للعالم ونجح للتعلم. وقد روى ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عبادا يعرفون الناس بالتوسوم.
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا أنا لم أعلم ما لم أقرأه، مات ما رأيت. وقال عبد الله بن الزبير: لا مشابه لم في من يقرأه ما لم ير.
وقال ابن الرومي:

المسيّر يرى بأول رأى آخر الامر من وراء الهغيب
اللودي له فؤاد ذهبيّ ماله في ذكائه من ضريب
لا يؤدى ولا يطيب طرفًا وأكفو الرجال في تقليب
وأما كان العالم فينوس المتعلم في هذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبراً لم يضع له نعنه ولم يحبه على يديه صاحب وابن لم يتلهم وخفى عليه أحواهم وميلغ استحقاقهم كانوا وآية في عناء مكّد ونسبة غير محدود لأنها لا يعلم أن يكون فيهم ذكي يحتاج إلى زيادة والبدء يكتفي بالقابل فيضجر الذكي ويعجز البلد ومن ترد أحدب بين عجز ويختر ملوه ولمهم. وقد حكي عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال: قال الحضر لوسي على ما السلم: يطالب العلم إن التفاوت أقل ملاءة من المستمع فلا تمل جهاء كذا إذا حدثتهم أموسى وعلم أن قلك وعاء.
أدب الدين والدین

لا يحب الحسن البصري

تحت يد الله وفي كنفه ما لم يملّ قزالها أمرهاها ولم يركب صلحاؤها بغيرها ولم يمار أخيرها أشارها فذا فعلنا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبارتهم فسماهم سوء العذاب وضربهم بالفاة والنقير ومالاً قلوهم رعباً. ومن آبائهم نزارة النفس عن شبه المكاسب والفناء بالديسورة عن كذّ المطالب فإن شبه المكاسب إثم وكذّ الطلب ذل والأجر أجدر به من الامام والعز أليق به من الذل. وأنشدنا بعض أهل الأدب لعلّ ابن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى:

يقولون لي فيسك أنقباض وإما أرى الناس من دناهم هان عندهم ولم أفصّ حق العلم فإن كان كساً وما كل برق لاح لي يستغزى إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى أنهمها عن بعض ما لا يشتهى ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي أنشق به غرسا وأجنيه ذلة ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولكن أهانوه فهان ودنسوا على أن العلم عوض من كل لذة ومغنى عن كل ش هوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيها يجد بدًا منه. وقال بعض البلاءه: من تفرز بالعلم لم توحش خلوه ومن تسل بالكتب لم تفته سلوه ومن أسسه قراءة القرآن لم توحش مفارقة الأخوان. وقال بعض العلماء: لا سمير كعلم ولا ظهر كالممل. ومن آداؤهم أن يقصدها ووجه الله تعليم من علموا ويطولوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا من غير أن يعتابوا عليه عوضاً ولا يلبمسوا عليه رفقة. فقد قال الله تعالى: «ولا تشتروا يا بني مَثْناِي...»
قليلاً». قال أبو العالية: لا تأخذوا عليه أجراً وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول يابن آدم علم مجاناً كما علمت مجاناً. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أجر المعلم كأجر الصائم القائم". وحسب من هذا أجره أن يلتمس أجراً. ومن آدمهم نصح من أموره ورفق بهم وتسهيل سبيل عليهم وبذل الجهود في رفعهم ومعونتهم فإن ذلك أعظم لأجرهم وأسنى لذكروهم وأنشروا علومهم وأرسوا لمعلموهم. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عليك كريم الله وجهه. يا علي، لأن تไหล الله بك رجلاً خيراً طلعت عليه الشمس". ومن آدمهم أن لا يعفوا متعاً ولا ينقروا ناشئاً ولا يستساغوا مبتدئاً فإن ذلك أدعى لهم وأعطف عليهم وآخذ على الرغبة فيما لديهم. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عاصروا ولا تعتدوا فإن المعلم خير من المعنف". وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وقروا من تعامون منه ووقروا من تعامونه". ومن آدمهم أن لا يمنعوا طالباً ولا ينبعوا راغباً ولا يؤيدوا متعاً بما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والذهاب فيها لديهم واستمرار ذلك منفرد إلى انقراض العلم بانتقراضهم. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "آلا أن تكثر بالفقيه كل الفقيه قالوا: بل يارسول الله قال: من لم يقطن الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيدهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة إلى ما سواه ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفهيم ولا علم ليس فيه تفهيم ولا قراءة ليس فيها تدبر". فهذه جملة كافية والله ولى التوفيق.

باب أدب الدين

إعلم أن الله سبحانه وتعالى إما كلف الخلق متعبداته وألزمهم مفترضاته وبعث اليها رسوله وشرع لهم دينه لغيير حاجة دعنه إلى
تكفينهم ولا ضرورة قادته إلى تعبدهم وإنما قصد نفعهم نفعًا من نعمة بل النعمة في تبدهم به أعظم لأنه نفع ما سوى المتعددات مختص بالدنيا العاجلة وتفع المتعددات يستعمل على نفع الدنيا والأخرة وما جمع نفع الدنيا والأخرة كان أعظم نعمة وأكثر نفعًا وجعل ما تبدهم به مأخوذًا من عقل مبتوع وشرع مسموع فالعقل مبتوع فيا لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيا لا يمنع منه العقل لأن الشرع لا يرّد بما يمنع منه العقل والعقل لا يقبل فيا لا يمنع منه الشرع فلذاك توجه التكلف إلى من كل عقله فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشروكون فبلغهم رسوله وألزمهم جمهم وبين لم شريعته وتلا عليهم كتبابه فيها أحله وحمره وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه وما وعد به من التواب في أطاعه وأوعده من العقاب من عصاد فكان وعده ترقيًا ووعيه تزامن لأن الرغبة تبعث على الطاعة والرقبة تكلف عن المعصية والتكليف يجمع أمراً بطاعة ونها عن معصية ولذلك كان التكلف مقرناً بالرغبة والرقبة. وكان ماتخلل كتباته من قصص الأنباء السالفة وأخبار الفون الخالية عظة واعتباراً تقوى معهما الرغبة وترتفع بما الرقبة وكان ذلك من لطفه بنا وفضله علينا فالحمد لله الذي نعمه لا تخني وشكره لا يؤدى ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان محدلاً وتفسير ما كان مشكلاً وتحقيق ما كان محتملاً ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزية التفويض إليه. قال الله تعالى: "وأذننا إليك الكل لتبين للناس ما نزل اليكم والله لينفكون" ثم جعل إلى العامل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد به فيمثازوا بذلك عن غيرهم ويتخصوا بثواب اجتهادهم
قال الله تعالى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين آتوا العلم درجات» وقال الله تعالى: «وما يعلم بأوّله إلا الله والرى في العلم» فصار الكتاب أصلا والسنة فرحا واستنباط العلماء إيضاحا وكشفا. و روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «القرآن أصل علم الشرعية بصوصه ودليلا، والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والآمة المجتمعة حجة على من شد عنها» وكان من رأته بتفهته وتفضله على عباده أن أقرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عليهم فها تبعدهم ليكونوا مع ما قد أعد لهم من خيروهان بفعل المطاعن ووجانبية المعايضة. قال الله تعالى: «لا يكفي الله نفسا إلا وسعها» وقال: وما جعل عليك في الدين من حرج، وجعل ما كلفني به ثلاثة أقسام قسمها أمرهم باعتقاده وقسمهم أمرهم بنعه وقسمهم أمرهم بالكذب عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وآمنه على فعاله حكمة منه ولطفا وجعل ما أمرهم باعتقادهم قسمين قسما إثباتا وقسما تفيا فأما الإثبات فإنما توحيد وصدقه وثبتت بعثه رسالته وتصديق بهد صل الله عليه وسلم فيا جاء به وأما الرفيق فدفى الصاحبة والولد والباحة والمحاكيم أجمع وجد القسماً أول ما كانه العاقل. وجعل ما أمرهم بنعه ثلاثة أقسام قسمة على أبنههم كإصلاحه والصيام وقسمه في أمواتهم كالزكاة والكتابة وقسمه على أبنائيهم وفصولهم كالحج والجهاد ليس بعملهم فعله ويفحهم أداءه نظر منه تسال لهم وتفضلا منه عليهم. وجعل ما أمرهم بالكذب عنه ثلاثة أقسام قسميا لاحياء نورهم وصلاح أبنائيهم كنفيه عن النقتل وأكل الحبائث وشرب الخمور المؤذية إلى فتاد القتل وزواله وقضية لا لائتلافهم وإصلاح ذات بينهم كنفيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفظى إلى القطعة والبغضاء وقضية لحفظ أبنائيهم وتعظيم محارمهم كنفيه عن الزنا ونكاح ذوات الخمار فكانت نعمته فيها حظرة علينا كنعتنه فيها أباحه لنا
وتفتضّله فيا كيفنا عنه كتفضّله فيا أمرنا به، فهل يجد العاقل في روايته مساحة أن يقرّف فيا أمرنا به وهو نعمة عليه أو يرى فسحة في ارتكاب مانهي عنه وهو تفضّله عليه وهل يكون من أنتم عليه نعمة فاهلها مع شدة فاقته إليها إلا مذموراً في العقل مع ما جاء من وعيد الشرع. ثم من لطّفة نعمة وتفضّله على عبادة أن جعل لهم من جنس كل فضيلة تفلا وجعل لهم من النواب قسطاً ونذيبهم إليها نذباً وجعل لهم بالحسناء عشراً ليساعف نواب فاعله ويفضّع العقاب عن تأركه. ومن لطيف حكّته أن جعل لكل عبادة حالين حال كمال وحال جواز رفّاً منه يخطّه لما سبق في عهده أن فيهم العجل المبادر والبطيء المتناقل ومن لا صبر له على أداء الاكل ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير قادر في فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك من نعمة عليّنا وحسن نظره إليما فكان أول ما فرض بعد تصديق نبيّ صلى الله عليه وسلم عبادات الأبدان وقد قدمها على ما يتعلق بالأموال لأن النوس على الأموال أشج وبما يتعلق بالأبدان أشج وذلك الصلاة والصيام يقدم الصلاة على الصيام لأن الصلاة أسهل فعلاً وأيسر عرضاً وجعلها مشتملة على خضوع له وابتعاله إليه فالخضوع له رحمة منه وابتعاله إليه رحمة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قام أحدهم إلى صلاته فاكمل ينaji ربه فاينظر بيم يناجييه". وروى عن علی بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة أصفي مرة وآخر أجرى قبل له في ذلك فقال: أنتي الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأين أن يجعلني وأشفي منها وحلتها ولا أدرى أشي فيها أم أحسن. ثم جعل لها شروط لازمة من رفع حدث وإزالة نجس ليستبدّم النظافة للقاء ربه والطهارة لأداء فرضه ثم ضعوها تلاوة كتابه المنزل ليتبرّوا فيه من أؤمِر، ونواهيه ويعتبر إنجاز ألقائهما ومعانيه
تم علقها بأوقات راتبة وأزمان متلافة ليكون ترافق ازمنتها وتناغم أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع له والابتعال إليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاً لها على الكمال والتقصير فيها عن حال الحواز وقد روى عنه النبي صلى الله عليه وسلم «الصلاة مكاحل فن ون في لغه ومن طنف فقد علمت ما قال الله في المطففين» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من هانت عليه صلاته حكاك على الله عزّ وجل أهون» وأنشئت لبعض الفصحاء في ذلك:

أقبل على صلواتك الخمس كم مصيب وعوداء لا يمسى
واستقبل اليوم الجديد بتوية تحمو ذنوب صحتين الأمس
فليفعل ووجهه الغض البلي فة فعل الظلام بصورة الشمس
ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الأموال لتعلق الصيام بالأبدان وكان في إيجابه حيث على رحمة الفقراء واطعامهم وسط جيوثهم لما عانوه من شدة المجاعة في صومهم. وقد قيل ليوسف على نبيا وعليه السلام: لم تجوع وأنت على خزائن الأرض فقال: أخف أن أشع فاندى الجائع. ثم لما في الصوم من قهر النفس وإذاها وكسر الشهوة المستودية عليها وإشعار النفس ما هي عليه من الحاجة إلى يسير الطعام والشراب والمحتاج إلى الشيء ذليل به وهنا احتج الله تعالى على من أخذ عيسى على نبيا وعليه السلام وأته إلهام من دونه فقال: «ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسول وأته صديقة كما يأكلان الطعام» ففعل حاجتهما إلى الطعام تقصيها فيما عن أن يكونا إذن. وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى في قصصه تقص الأنسان بالطعام وغيره فقال مسكيق ابن آدم مختوم الأجل مكتوم الأمل مستور العلول
يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه تؤذية البقية وتنتره العرقة وتقتله الشرقة لا يملك لنفسه ضرا ولا فعلا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. فانظر إلى لطفه بما أوجبه من الصيام علينا كيف أيطغ العقول له وقد كانت عنده غايلة أو متفاقلة وفع النفوذ به ولم تكن لولاه متفاقعة ولا تافعة.

ثم فرض زكاة الأموال وقدمدها على فرض الحج لأن في الحج مع إنفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس إلى الزكاة أسرع إجابة منها إلى الحج فكان في إجابةها مواساة للقروء ومعونة للدوى الحاجات تمكنهم عن البضائع وتمتعهم بالتقاطع وبضمان على التواصل لأن الأهم وصول والراجي هادب وإذا زال الأمل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت البضائع واشتد الحسد وحدث التقاطع بين أرباب الأموال والقراء ووقعت البداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء حتى تفضي إلى التغالب على الأموال والتغريب بالنفوس. هذا مع ما في أداء الزكاة من تر تعد النفس على الساحة المحمودة وعجانة الشج المذموم لأن الساحة تبعث على أداء الحقوق والشج يصحدها وما يبعث على أداء الحقوق فأجد به حدا وما صدده عن فاكهته نتيجة الله عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «شرما أعطي العبد شج هالع وجبان خالع». فسبحان من دبرنا بلطيف حكنته وأخفى عن فطتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باحتفائها أعظم مما استوجبها بابذائها.

ثم فرض الحج فكان آخر فروضه لأنه يجمع عملا على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الأبدان وفرض الأموال ليكون استئناسهم بكل واحد من التواريخ ذريعة إلى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان في إجابةه تذكر ليوم الحشر بممارسة المال والأهل وخضوع المزيج والدليل في الوقوف بين يديه واجتاع المطيع والواصل في الرهبة.
منه والرغبة إليه وإقلاع أهل المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على
ما أسلموه فقل من حлей إلاأ وأحدث توبة من ذنب وإقلاع من معصية
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من علامة الحجة المبرورة أن يكون
صاحبها بعدها خيرا منه قبلها" وهذاء صحيح لأن الندم على الذنوب
مانفع من الاقدام عليها والتدببة مكفرة لما سلف منها فإذا كاف عمكم
يقدم عليه أبناء عن صحة توبته وصحة النوبة تستثنى قبول سمحة ثم نبى
بما يعاني فيه من مشاق السفر المؤدى إليه على موضوع النعمة برفعه الإقامة
وأمانة الأوطان ليحنو على من سلب هذه النعمة من أبناء السبيل
ثم أعلم بمشاهدة حمته الذي أنشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله
عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التي أعن الله بها أهل طاعته وأذل
بنصبة نبيه عليه الصلاة وسلام أهل معصيته حتى خضع له عظاء
المتجرفين وتدلل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع
ولا قوى بعد الضعيف البين حتى طبق الأرض شرفًا وغربًا بعظيمة
ظاهرة ونصر عزية. فاعتبر الله همك الشكر ووقفك لنقوه إنجاعه عليك
فيك كلفت وإحسانه عليك في تعبك فقد وقتك في طالتك وأحلته
على بصيرتك بعد أن كنت لك رائدًا صدقا وناصحا شفيفا هل تحسن
هوضًا بشكرو إذا فعلته ما أمرك وتقبل ما كلفك كلا إنه لا يوليك
نعمة توجب الشكر إلا وصلها قبل شكرك سلف بنعمة توجب الشكر
في المؤنف. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: نعم الله أكثر من
أن تشتري إلا ما أعان عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر إلا
ما عفا عنه. وأشارت لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصري رحمه الله تعالى
شكر الاله نعمة موجبة لشكره
فكيف شكري بزه وشكرك من بزه
وإذا كنت عن شكر نعمة عاجزا فكيف بك إذا قصرت في أمرك
أو فرطت فيا كلبه وتنعه أعود عليك لو فعلته هل تكون لسوا歧 نعمة
اللهم حلاك كما ينتقوها. قال محترم: أي يعرفون ما عقد الله عليهم من
نعمة ويتنقوها بقولهم إني م ورثوا عن آبائهم وأكشبوها بأفعالهم.
وروى عن النبي صل الله عليه وسلم أنه قال: "يقول الله يابن أدم
ما أنسنتني أنت في النعم ونعتنكت إلى المعاشر حتى اليم نزل
وشرك إلى صاعدكم من ملك كريم يصعداني منك بعمل قبيح". وقال
بعض صلحا السلف قد أصيب بنا من نعم الله تعالى ما لا تحصيه مع
كثير ما نقصصه فلا ندرى أيهما تذكر أجمل ما يبشر أم قبيح ما يستحق
على من عرف موقع النعمة أن يقبلها ممتئلا للألا كاف منها وقوبها يكون
بأدائها ثم تتذكر الله تعالى على ما أنتم به من إسدياها فإن بنا من الحاجة
التي نعمة أكثر مما كان من شكر تعمه فإن نحن أداه حق النعمة
في التكليف تفضل بسلاسة النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمان
ومن لزمته النعمان فقد أولى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد على
الاستحقاق وإن قصرنا في أداء ما كادنا من شكره قصرنا ما لا تكليف
فيه من نعمة فنفرت النعمان ومن نفرت عنه النعمان فقد سلب حظ
الدنيا والآخرة فلمكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي
بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذولب صحيح ولا عقل
سليم. وقد قال الله تعالى: "ليس بأماتكم ولا أمان، أهل الكتاب من
يعمل سوءا يجزيه". وروى الأعشش عن مسلم قال: قال أبو بكر الصديق
رضي الله عنه يارسول الله ما اشتر هذا الآية "من يعمل سوءا يجزيه". فقال:
يا أبا بكر إن المصيبة في الدنيا جراء، واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى:
"سنعذبهم مرتين" فقال بعضهم: أهدا العذابين من الفضيحة في الدنيا والثاني
عذاب القبر: وقال عبدالله بن يزيد: أحد العذابين مصاعبهم في الدنيا.
في أموالهم وأولادهم والثاني عذاب الآخرة في النار وليس وإن نال أهل المعاصي لذة من عيش أو أدركوا أمية من الدنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجاً وتقلمة. وروى ابن طهية عن عقبة ابن مسلم عن عقبة بن عمير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«إذا رأيت الناس يعذبون يSHOT المأمونين على مشاهدهم فإنا فدانا ذلك استدراج منهم لهم ثم قال: فلا نسموا ما ذكرنا به فتيحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا رحوا بما أوتوا اخذاهم بعثنا فاذنا هم مبسلون».

أما المحرمات التي يمنع الشرع منها وأستقر التكليف عقلًا أو شرعاً بالنهي عنها فتقسم قسمين: منها ما تكون النفوس داعية إليها والشهوات باعثة عليها كالبئسافح وشرب الخمر فقد زجرها عنهما تقوه الباعث عليها وشدت الميل إليها بنوعين من الزجر. أحدهما حيث دفعه عاجل يرتد عجل به الجريء والثاني وعبيد أحل يزجر به النقي. ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كأ كل الحبات والمستقبلات بشرب السموم المتلفات فاقتصر الله في الزجر عنها بالوعيد وحده دون أحد لأن النفس مستعدة في الزجر عنها والشهوات مصروفة عنها وعن ركوب المحظور منها. ثم أكد الله زواجها بالنكار المتكررين لها فأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المتكررات من الأمر بالمعروف تأكيداً لأوامره والنهي عن المتكرر تأبيداً لزوجها لأن النفس الأشرة قد ألحتها الص acos على اتباع الأوامر وأذلتها الشهوات عن تلك الزواج فإنما إنيك المجرمين أجزها بما بيج المخلطين ألغ فيها ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أقر قوم المتكررين أظهرهم إلا عمهم الله بعدم محضرة». وإذا كان ذلك فلا يخلو حال فعلي المتكرر من أمرين: أحدهما أن يكونوا آحاداً متفقين وأفرادا متبذلين لم يتحزبا فيه ولم يضادوا عليه تهم رعبة مشرورون وأينذا مستضعفون فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ونهيهم
لنرى الحسن البصري

عن المتكرر المكشوفة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه وسمي من قائليه وانها اختفوا في وجوه ذلك على متكره هو وجب عليهم بالعقل أو بالشروق فذهب بعض المçekرين إلى وجوه ذلك بالعقل لأنه لم يوجب بالعقل أن يبت عمن الفقير وجب أيضا بالعقل أن يمنع غيره منه لأن ذلك أدى إلى مماتته وألغ في مشارفته.

وقد روى عبد الله بن المبارك رحمه الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن قوما ركبوا سفينة فاقطسما فأخذ كل واحد منهم موضعًا فنقر رجل منهم موضعه بقأس فقالوا: ما تصنع فقال: هو مكاني أصنع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا. وذهب آخرون إلى وجوه ذلك بالشروق دون العقل لأن العقل لم يوجب النهى عن المتكرر ومنع غيره من الفقير لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار أهل الدمة على الكناك وترك التكرار عليهم لأن واجبات العقول لا يجوز إبطالها بالشروق وفي ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لا إنكاره فأما إذا كان في ترك إنكاره مضرية لاحقة بمتكره وجب إنكاره بالعقل على قولين مما فأما إن حق المتكرر مضرية من إنكاره ولم تحققه من كفوه وإنكاره هو يجب عليه الإنكار بالعقل ولا بالشروق. أما العقل فلا لأنه يمنع من اجتلاج المضارات التي لا يوازيها فنع وآمة الشرع فقد روي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنكر المتكر بيدك فإن لم تستطع فبلسانك فإن لم تستطع فقلو ذلك أضعف الإيمان". فان أراد الابتدام على الإنكار مع حق المضركة بنظر فإن لم يكن إظهار التكرار مما يتعلق بأعزاز دين الله ولا إظهار كمامة الحق لم يجب عليه التكرر إذا خشي بغالب الظن تلبنا أو ضررا ولم يحسن منه التكرر أيضا وإن كان في إظهار التكرار إعزة دين الله تعالى و إظهار كمامة الحق حسن منه التكرر مع خشية الاضرار والتفش و إن لم يجب عليه
إذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وإن انتصر أوقتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من أفضل الأعمال كلها حق تقال عندسلطان جائر" فاما إذا كان يقتل قبل حصول الغرض فسيج في العقل أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المتعلى إغواء بفعل المنكر ولجاجا في الاكتوار منه فسيج في العقل إنكاره. والخالة الثانية أن يكون فعل المنكر من جماعة قد تضافرت عليه وعذبة قد تزيدتهم، ودعت اليه فقد اختلف الناس في وجوب إنكاره على مذهب شتي: فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار: لا يجب إنكاره والأولى بالأنسان أن يكون كافا مسما وملازما ليسه وادعا غير منكر ولا مستفز، وقالت طائفة أخرى من يقول بظهور المتناصر: لا يجب إنكاره ولا العرض لازالت إلا أن يظهر المتناصر فيقول إنكاره بنفسه ويكوونا حينئذ أعوانه. وقالت طائفة أخرى منهم الأصم: لا يجوز للناس إنكاره إلا أن يجتمعوا على إجماع عدل فصيح على من كان ضعفا، وقال جمهور المتتكفين: إنكار ذلك واجب والدفع عنه لا زام على شروط من وجود أعوان بصاحون له فأنا معتقد الأعوان على الإنسان الكفؤ لأن الواحد قد يقول قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل أن يتعرض له. فهذا حكم ما أدرك الله تعالى به أواخره وأيد به زواجه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من أحوال الأمرين به والإثاث عنه في لا يجوز إشكال الناس فيها أمرنا به ونهوا عنه من فعل الطاعة واجتناب المعاصي من أربعة أحوال: فنحن من يستجيب إلى فعل الطاعة ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي أكمل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين. فإذا استحق جزاء العاملين وثواب المطيعين. روى محمد بن عبدالله المدائني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الذنب لا ينسى والبر لا يليل والديان لا يموت فكنا شئت".
لاي يحسن البصري

وكانا تدين تدان! وقد قيل: كل يقصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا: زرع يومك حصاد عليك. ومنهم من يجتمع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي. وهي أخبرت أحوال المكالمين وشر صفات المعتقد فهذا يستحق عذاب الالهى عن فعل ما أمر به من طاعته. وعذاب المجتهر على ما أقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة:

"فيجبت لمن يحتسب من الطيبات شفاعة الداء كيف لا يحتسب من المعاصي. شفاعة النار فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال:

جسمك قد أفيتته بالحمى دهرا من البرد والحر.
وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي حذر النار.


أيضمن إلى فقي ترك المعاصي وأرهنه الكفالة بالخلاص

أطاع الله قوم فاستراحوا ولم يترعوا غصص المعاصي ومنهم من ينتمي من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي. فهذا يسمح عذاب اللاتي عن دينه المهتد بثقة يمينه. وروى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كانت صحف موسى على نبي وعليه السلام كلها عبارة عببة لمن أبقى بالنار ثم يضحك وحجبت لمن أبقى بالقدر ثم يتحب وحجبت لمن رأى الدنيا وتقلتها باهلها ثم يطمئن اليها وحجبت لمن أبقى بالموت ثم يفرح وحجبت لمن أبقى بالحساب غدا ثم لا يعمل». وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اجتهدوا في العمل فإن قصر بك ضعف فكنوا عن المعاصي» وهذا واضح المعنى لأن الكف عن المعاصي ترك وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو أثقل ولذلك لم يعج الله تعالى ارتكاب المعاصية بعد ولا بغير عذر لأنه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه. وأنما أباح ترك الأعمال بالأذار لأن العمل قد يعجز المعذور عنه. وقال بك بن عبد الله: رحم الله امرأك فقاً فاعمل قوته في طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا
فكيف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الأعلى بن عبد الله الشامي رحمه الله تعالى :

العمر ينقص والذنوب تريد
وتقال عثرات النقي فيعود
هل يستطيع محمود ذنب واحد
رجل جواره عليه شهود
والمرء يسأل عن سدنه فيشتهي تقليلها وعن النفاس يجد

واعلم أن لأعمال الطاعة ومجانيه المعاصره أهتمها : إحداهما تكسب الوزير . والأخريه توهن الأجر . فأها المكاسبة للوزير فاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لأن الاحجاب به يفضي إلى حالتين مذمورتين : إحداهما أن المعجب بعمله متمتن به والتمتن على الله تعالى جاحد لمعمه قال ابن عباس رضي الله عنهما : أويلى الله تعالى إلى نبي من أبنائه أما زهدك في الدنيا فقد استعملت به الراحة وأما انقطاعك إلى فهو عزر لك فذاتك ك وبيت أنا . والثانية أن المعجب بعمله مدل به والمسلم بعمله مجزئه والجزئه على الله عاص . وقال مورق العجل : خير من المعجب بالطاعة أن لا يأتي بطاعة . وقال بعض السلف : ضاحك متعث بهذته خير من ذلك مدل على ربه وبالنادم على ذنه خير من ضاحك متعث بثبوته . وأما الموتة لأخرى فالتقدير بما أسفل والركون إلى ما قدم لأن الثقة تُنول إلى أهمرأ : أحدهما يحدث اتكالا على ما مضى وتفصيرا فيا يستقبل ومن قصر وانكل لم يرج أجرا ولم يؤد شكرًا . والثاني أن الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خايف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه أومره وسهلت عليه زواجه . وقال الفضل بن عياش : رهبة المرء من الله تعالى على فدر عامة بائته تعالى . وقال مورق العجل : لأن أبيت ناما وأصبح ناما . وقال الحكاء : ما بينك وبين أن لا يكون فيك خير إلا أن ترى إلى أن فيك خيرا . وقيل لرابعة العدوية
رحمها الله: هى عملت عملاً قطًّا تربع أنه يقبل منها قالت: إن كان شيء معلوماً من أن يرد على عملي. وحكي أن بعض الزهاد وقف على جمع فنادى بأعلى صوته: يا معشر الأغنياء لكم أقول: استكثروا من الحسنات فإن ذهوك كأنك يا معشر الفقراء لكم أقول: أقبلوا من الدين فإن حسناتكم قليلة. فينبغي أن يحسن الله الإيك بالتوفيق — أن لا تضيع سمعتك. فجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعدا ولا مافات مستدركا وللفراغ زرع أو ندم ولخلوة ميل أو أسف. وقال عمر بن الخطاب: الراحة للرجال غفلة ولنساء غمتة. وقال بزرجه: إن يكن الشغل مجهدة فالتفرج منسدة. وقال بعض الحكفاء: إيكم والمخلوقات فإنها تشد العقول وتعد العقول. وقال بعض البلاغاء: لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنعة فالعمر أقصر من أن ينفد في غير المنافع والمال أقل من أن يصرف في غير الانتفاع والعقول أمل من أن يقضي أيامه فيها لا يعود عليه شعه ويتبغ أمواله فيها لا يخصص له ثوابه وأجره ولا يبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام: البر ثلاثة: المقطع والنظير والصمت فإن كان منطقته في غير ذكر فقعد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سماه ومن كان صحته في غير فكر فقد لها. وعلم أن الناساً في كله من عبادته ثلاث أحوال: إحداهما أن يستوفى من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها، والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها. فأما الحال الأولى فهي أن يأتي بها على حال الكلام من غير تقصير فيها ولا زيادة تطوع على رأيتها فهي أوسط الأحوال وأعداً لأنه لم يكن منه تقصير فضلا ولا تكبير فيجز وقد روى سعيد بن أبي سعيد رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال: «سددوا واتبعوا ويسروا واستعينوا بالغدودة والروحة وشيء من الدبلجة» وقال الشاعر:

عليكم بوسائل الأمور فأنبأوا نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

أما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال: إحداهما أن يكون لعذر أخذته عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم القصيرين وباحته بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز. وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من عامل كان يعمل عملًا يقطع عنه مرض إلا وكله تعالى به من يكتب له نواب عمله». والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغتارة بالمسامحة فيه وراه العفو عنه فهذا متحدو العقل مغروب بالجهل فقد جعل الطلق ذنبا وراح عدة فهوب كفقط سقاء غير زاد ظنا بأنه سيضجه في المفاوض الجدبة في قضى به الطلق إلى الهلكة وخلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه. وحكى أن إسرائيل بن محمد الناضل قال: لقيتي مجنون كان في الحرابات فقال: يا إسرائيل خف الله خوفًا يشغلك عن الرجا كان الرجاء يفسدك عن الخوف وفر إلى الله ولا تنسى منه. وقيل لمحمد بن وأسع رحمه الله: ألا تبتقي؟ فقال تلك حلبية الآمنين. وحكى أن أبا حازم الأشعري أخبر سالان بن عبد الملك بوعيد الله للذينين فقال سالان: أين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين. وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: ما أنتفعت ولا أعظمت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه إلى علي بن أبي طالب كيزم الله وجهه: أما بعد فأن الإنسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوراً ما لم يكن ليدره فلا تبتقي لنا من دنياك فرحًا ولا لما تاتك منها ترحًا ولا تكن
من يرجع الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل فكان قد وصلما.
وقال محمود الوراق رحمه الله:
أناجع على المحسن المتسلق وأرجولاً من الهوفات المميزة
فذلك خوقي على محسن فكيف على النظام المعند؟
على أن إذا ازيف قديمSharedPreferences  
والحال الثالث أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما أخل به من بعد قيداً
بالسيرة في التقصير قبل الحسننة في الاستثناء اعتساراً بالأمل في إمالة
ورجاء لتلافي ما أسفل من تقصيره وإخلاء ما فلا ينتهي به الأمل إلى
غاية ولا يفضى به إلى نهاية لأن الأمل هو في ثانى حال كبير في أول
حال. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من يعمر
أفيش غدا فإنه يؤمل أن يعيش أبدا" وعمرى إن هذا صحيح
لأن لكل يوم غدا فأذن يفضى به الأمل إلى الفضول من غير درك
ويؤديه الرجاء إلى الأهمال من غير تاليف فيصير الأمل خيبة والرجاء
يأساً. وقد روى عمرو بن سعيد عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال: "أول صالح هذين الأمة بالزهد واليقين وفسادها
بالبخل والأمل" وقال الحسن البصري رحمه الله: ما أطلع عبد الأم
إلا أساء العمل. وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة: أكل حاجة في بغداد؟
قال: ما أحب أن أسط أمرى إلى أن تذهب إلى بغداد وتتجيء.
وقال بعض الحكمة: الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله.
وقال بعض البلقاء: الأمل كالسراب غزمن. رأه وخاب من رجاه.
وقال محمد بن يزيد: دخلت على المأمون وكتبت يومئذ وزيه فرأيه قاما
وبهده رقعة فقال: يا محمد أقرأت ما فيها؟ قالت: هي في يد أمير المؤمنين
فرمي بها إلى طريدها مكتوب.
إنك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل.
أما ترى الموت محيطا بها يقطع فيها أمل الآمل؟
تجلب بالذنب لما تستنى وتأمل النوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بفترة ما دالك فعل الحالم العاقل.
فاما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى: هذا من أحكم شعر قرأته.
وقال أبو حازم الأعرج: نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب
حتى نموت. وقال بعض البلاء: زائد الامثال رائد الأشمال. والحال
الرابعة أن يكون نقصره في استثقاله للاستفادة ونجاحا في التمام واقتصارا
على ما سانده وقولة أكثر: بها بيق هيدا على ثلاثة أضراب: أحدها
أن يكون ما أخيل به وقصر فيه غير قادر في فرض ولا منع من عبادة
كأن انحصر في العبادة على فعل واجباتها وعمل منفروضاتها وآخلا
بمسئونتها ويهبها هذا مسيء فيه ترتك إساءة من لا يستحق ويعيد ولا
يستطيع عنه إلا أن أداء الواجب يسقط عنه العقاب وإخلاله بالمستون
يمعن من إكمال الواجب. وقد قال بعض الحكاء: من تجاوز بالدين هان
ومن غالب الحق لان وقال الشاعر:

* وبصور توبته ويسترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ماصان الصدق ورجى أمانته ودينه
والضرب الثاني أن يكون ما أخيل به من مفروض عبادته لكون
لا ينادح ترك ما بقي فيص بتين كن أكمل عبادات وأخيل بغيرها فهذا أسوا
حالا من تقدمه لما استحققه من الوعيد واسسندوجه من العقاب.
والضرب الثالث أن يكون ما أخيل به من مفروض عبادته وهو قادر
فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها بعض فيكون المفسر في بعضها
تأركا جميعا فلا يحتسب له ما عمل لأخلاقه بما بيق له هذا أسوا أحوال
المفسرين حاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف مالا يسقط فرضا
ولا يؤدى حقا فقد ساور التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم.
في تكلف ما لا يتفيد فصار من الأخريرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لعله لا يطعن لنائمه ولا يشعر بخسارته. وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله إن ولي واحتيل:

وأنتدبي بعض أهل العلم:

أيأ إن من الرجال بحيمة في صورة الرجل السريع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر:

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد في كلفه فهذا على ثلاثة أقسام:

أحدها أن تكون الزيادة رياة للناصرة وتصنعا للخلوقين حتى يستعطف
به القلوب النافرة ويغذيه به العقول الواهبة فيتبهر بالصلاحاء وليس
همم يولدان في الأخيرات وهو ضدهم وقد ضرب رسول الله صلى الله
عليه وسلم للرآئي بعمله مثل فقال: "المتشبع بما لا يملك كلا بس ثوب
وزور"، يريده بالمتشبع بما لا يملك المترنماً بما ليس فيه وقوله كلا بس ثوب
وزور هو الذي يلبس تيسيب الصلحاء فهو رياه محرومة الأجر مذموم
الذكر لأنه لم يقصد وجه الله تعالى في جر عليه ولا يخفي رياه على
الناس فيحمد به قال الله تعالى: "فمن كان يرجع لقاء ربه فليمعل عمل
سالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً" قال جمعي أهل<TSourceيل: معي قوله
ولا يشرك بعبادة ربه أحداً أي لا يراني بعمله أحداً بفعل الرياء شركا
لأنه جعل ما يقصده به وجه الله تعالى مقصداً به غير الله تعالى.
وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قوله تعالى: "ولاتبه بصلالتك
ولا تحافث بها"، قال: لاتبه بصلالتك ولا تحافث بها حياء. وكان سفيان
ابن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى: "إذ إن الله يأمر بالعدل والاحسان
وإيتياء ذي التطير ونبي على الفحشاء والمنكر والبغي"، أن العدل استواء
السريرة والعلانية في العمل له تعالى والاحسان أن تكون سريرته أحسن
من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان
لاَبِي الْحَسَنِ الْبَصَرِي

غيره يقول العدل شهادة أن لا إله إلا الله والحسن الصبر على أمره ونفيه وطاعة الله في سره وجهره و إيتاء ذى القدر صلالة الأزهار ونفيه عن الفحشاء يعنى الزنا والمنكر القبائح والبني الكبير والظلم وليس يخرج الرياء بالأعمال من هذا التأويل أيضا لأنه من جمع القبائح.


صل فالجبنين وصام فرابي، نح القلوص عن المصلى الصائم.

فانظر إلى هذا الرياء مع قبحه ما أدهله على صفح عقل صالح يور بما ساعد الناس مع ظهور رياهه على الاستهتزاء بنفسه كلاً حكي أن زاهدا نظر إلى رجل في وجهه سجادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال: مثل هذا الدروهم بمن يعذب، وأنت ماافقهنا فقال: إنه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلافة التي يدفع بها تهجين العلماء. ولقد استحسن الناس من الأشاعت بن قيس قوله وقد خخف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خفت صالاته جدًا فقال: إنه لم ينقطع رياه فتخلص من تقيصهم بئني الرياء عن نفسه ورفع التصنف في صلاتائه.

والقسم الثاني أن يفعل الزيادة افتداء بنيره وهذا قد تئمه جماليّة الأخيار الأفضل وتحدثه مكاثرة الأشياء الأمثل. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليته فليتشرى أحكم من يخلال". فذا كان رجيم المجتمع وطاول المؤسس أحب أن يقتدي بهم في أفعالهم ويتاى بهم في أعمالهم ولا يرضي لنفسه أن يقصر عنهم ولا أن يكون في الخير دونهم فتبعته المناسفة على مساراتهم وربما دعته الحيلة إلى الزيادة عليهم والمكانة لهم فيصيرون سببا لسعادته وباذة على استرادة وللعراب تقول: لولا الوئام لهلك الأذى أى لولا أن الناس يرى بعضهم بعضًا فيتعدى بهم في الخير لهلكوا. ولذلك قال بعض البلاغاء: من خبر الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار موذة الأشرف وهذا صحيح لأن الصاحبة تأتي في إكتساب الأخلاق فتتصلح أخلاق المرء بصاحبة أهل الصلاح وتفنيد بصاحبة أهل النساد. ولذلك قال الشاعر:
رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعدهم داء الفساد إذا فسد، يجعلهم في الدنيا بفضل صلاحه ويعظمه بعد الموت في الأهل والولد.
وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الحراري: لا تصبح الكلام في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد عدوى البليد إلى الجليل سريعة، والجمال يوضع في الرماد فيخمد.
والقسم الثالث أن يفعل الزيداء ابتداء من نفسه التماسا لتوابها ورغبة في الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزائدة ودواعي الرغبة الواضحة الدائرة على خلوع الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العامين وأعلى منزل العابدين. وقد قال: الناس في الخير أربعة: منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله ابتداء ومنهم من يتركه استحسانًا ومنهم من يتركه حرامًا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله ابتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانًا فهو رديء ومن تركه حرامًا فهو شقي، ثم لما يفعله من الزيداء حالتان: إحداهما أن يكون متقصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهي أفضل الحالتين وأعلى المنزليين عليها اقترض أخبار السلف وتبنيهم فيها فضلاء الخلف. وقد روى عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أيا الناس أفعالوا من الأعمال ما نظقون قنان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه".
وأدب تقول القدس والدم وآتى السابق الجواد. ولأنه من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة إلا في طاعته. وقال عبد الله ابن المبارك: كنت لراهب: متى عيدكم؟ قال: كل يوم لا أصلى، لأنه في يوم عيد، أناظر إلى هذا القول منه وإني لم يكن من مقاصد الطاعة ما أبلغه في حب الطاعة وأحثه على بذل الاستطاعة. وخرج بعض الزهد في يوم عيد في هيئة رئة قليل: لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة والناس مترينون! فقال: ما يترتين لله تعالى مثل طاعته. والحالة الثانية
أن يستكثر من الاستكثار من لا يهض بدوامها ولا يقدر على أصالة فهذا ربما كان بالقصير أشبه لأن الاستكثار من الزبادة إذا أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون الانتصيرا لأنه تطوع زبادة أحدثت نقصا وينغل من فرضها وإذا أن يعجز عن استدامة الزبادة وينم من ملزمة الاستكثار من غير إخلال بالزمن ولا نقصير في فرض فهي إذا قصيرة المدى قليلة اللب والقليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله عن وجل من كثير العمل في قليل الزمان لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويرتكز زمانا فرصا جحرا في زمان تركه لاهيا أو ساهيا والمقلل في الزمان الطويل مستبقات الأفكار مستديم التذكار. وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن للإسلام شرطة للشريعة فترة من سيده وقارب فارجوه ومن أشير إليه بالأصبع فلا تعدوه" فجعل للإسلام شرطة وهي الأيفال في الاكتبار وجعل للشريعة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يحل بما أثبت من أن تكون هذه الزبادة تقصيرا أو إخلالا ولا خير في واحد منه، وعلم جعل الله خبر كافاك كوك وعلبك وحكق قاتاك وك واليك أن الدنيا إذا وصلت جميعة وعندما مرت تفجعات محركة وليس لوصلاها دوم ولا من فراقها بدع فرض نسوك على قطيعها لنسلم من تباعاتها وعلى لفاشتها كنامن بفعاتها فقد قيل: المرو مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وإن طال قصير والفراغ وإن تمّ يسير، وأنشدت لعل بن محمد رحمة الله تعالى:

إذا كنت لله ستون حجة
فلم يحظ من ستين إلا بسديها
ألم تأتى النصف بالليل حاصلا
وتذهب أوقات المقيل بفسها
فتأخذ أوقات الحوم بخصوص
وأوقات أوجاع تثبت بمسها
فأنا من ذوقه النفس عن علم حديها
إذا صدقته النفس له سدس عمره.
لأبي الحسن البصري

ورياضة نفسك لذلك تتربب على أحوال ثلاث وكل حالة منها
تتشعب وهي لتسيل ما يليها سبب:

(الحالة الأولى) أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فإنك تلهيك عن
آخرك ولن تجعل سعيك لها فتملك حظلك منها وتوق الركون إليها ولا
تكن آمنا لها. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من
آشرت قلبة حب الدنيا وركن إليها وانتقل منها بشكل لا يفرغ عنه وأمل
لا يبلغ متها وحرص لا يدرك مداه". وقال عيسى بن مريم على نبيا
وعليه السلام: الدنيا لا تلبس مزروعة وأهله لها حراث. وقال على بن
أبي طالب: مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سهمها فأعرض عما
أنجب منها لقلبة ما يصحب منها وضع عنك همها ما أيقننت من فواقها
وكن أحد ما تكون لها وأنت آنس ما تكون به فان صاحبها كلا اطمأن
منها إلى سرور أشتته عنها مكروه وإن سكن منها إلى إيتاس أزاله عنها
إيجاه. وقال بعض البلاغة: الدنيا لا تصنف لشراب ولا تبقى لصاحب
ولا تخلو من فتنة ولا تخلي من محته فأعرض عنها قيس أن تعرض
عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فإن نعيمها يتقل وأحوالها
تبدل ولداتها تتفى وتبعاتها تبقى. وقال بعض الحكاية: انظر إلى الدنيا
نظر الزاهد المفارق لها ولا تأملها تأمل العاشق الوامد بها. وقال
بعض الشعراء:

"ألا إن الدنيا كأحلام نائمة وما خير عيش لا يكون بديهم
تأمل إذا ما نالت بالأمس لذة فأتيتها هل أنت إلا كالمال
فكتم غافل عنده وليس بفاعلاً وكم نائم عنده وليس بنائهما
"وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من هوان الدنيا على
الله أن لا يعصي إلا فيها ولا يبال ما عنه إلا بتركها". وروى سفيان
أن الخضر قال لموسى عليه السلام: ياموسي أعرض عن الدنيا وابذها
وراءه فانيها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وإنما جعلت الدنيا للعباد ليترودوا منها للعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال على كرم الله وجهه يصف الدنيا : أوقها عنة وآخرها فداء حلاها حساب وحرامها عقاب من صع فيها أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغني فيها فتق ومن انفتر فيها حزن ومن ساعتها فانيته ومن قعد عنها أشه ومن نظر إليها أعتمته ومن نظر بها بصريه . وقال بعض البلاغاء : إن الدنيا تقبل إقبال الطالب وتدر إدبار الانتزاب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول نفدها يسير وعيشها قصير وإقبالها خديعة وإدبارها شريرة ولذاتها فانية وتباعتها باقية فعذبهم غفوهة الزمان وانتظر فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغفك . وقال ويب بن منبه : مثل الدنيا والآخرة مثل ضررين إن أرضيت إحداهما أحكمت الآخرة . وقال عبد الحميد : الدنيا منزل فراحل ونازل ، وقال بعض الحكاء : الدنيا إذا تمسه نازله وإذا عمة زائفة وقيل في منزل الحكم : من الدنيا على الدنيا دليل . وقال الشاعر :

تمتع من الأيام إن كنت حازما فانها بين ناه وأمر اذا أبقت الدنيا على المرء دينه فانها من بليس بصائر فان تعد الدنيا جناح بعوضة ولا وزن ذر من جناح لطائر فان رضى الدنيا نوابا مؤمن ولا رضى الدنيا جراء لكوفر وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الدنيا يومان يوم فرح ويومهم وكلاهما زائل عنك قدعوا ما يزول وأعوبنا فوسكم في العمل لما لا يزول" . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : لا تنعزعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم . وقال علي بن أبي طالب : لا تكن من يقول في الدنيا يقول الزاهدين ويعمل فيها عم الراغبين . فان أعطى منها لم يسمع وإن
لم ينفع من بينها إلا من يملأ نفسه بالشكر، وإنما يرد عليه مما يذكره من الناس. قال الحسن البصري: دلناه كله غرفه، فما كان منها من سرور فور ريح. وقال بعض العلماء: إن الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائم وقدر قاطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك، فكونك ترى نواب أعمالك.

وقال بعض الحكماء: الدنيا إما مصيبة موجعة وإما منية مفجعة.

وقال الشاعر:

خير دينك إنها تعبانها، إنها لسلما من يعبرها، كل نفس فإنها تبتغى، الاها في تغيها.

فأذا استحدثت الحناء أعقب الحلو مرها، يستوي في ضريحه.

فإذا رست نفسك من هذه الحالة بما وصفت أعتضمت منها بثلاث خللاً: إحداهن أن تكونى إشراق الحب وحدر الواقف في نفس متفق، ثانية ولا خافر راحة، الثالثة أن تؤمن الاعتراب بأذلها، فتسلم من عادية دواهها فإن اللاهي بها مغروور والمغروور فيها مذعور، والثالثة أن تستريح من تعب السعي فأضا وصعب الكد فيها فإن أحب شيئاً طبه ومن طلب شيئا كتب له والمكدود فيها شقي إن طمر ومهدمة إن حاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للكعب: يكعب الناس عاديان فغاد بنفسه معتقه، وموقف نفسه موقته. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للا حرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل. وقال بعض البلغاء: من نكد
الدنيا أن لا تبقى على حاله ولا تتخلو من استحاله تصلح جانبا بإفساد جانب وتصر صاحبا بمساء صاحب فالكون النما خطر والثقة بها غرر.
وقال بعض الحكاءاء: الدنيا مرتجعة الهمة والدهر حسود لا يأتي على شيء إلا غيره. وإن عاش حاجة لا تنقضي. ولا بلغ مزدك من الدنيا أفضل ما سماه إليه نفسه نبذه وقال: هذا سرور لولا أنه غرور ونعلم لولا أنه عديم وملك لولا أنه هلك وغـناء لولا أنه فناء وجمـيمي لولا أنه ذمـيم ومجـود لولا أنه مفقود وغيـي لولا أنه مـي وارتفاع لولا أنه اتضاءـع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لوضـق له بغضد. وقال بعض الحكاءاء: قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاـهـد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت.
وقال أبو العتاهية:

هي الدار دار الأذى والذى
دار الفناء ودار الغضير
لمت ولم تقض منها الوطر
قلو ناتها بصادرها
أيا من يؤمل طول الخالود
طول الخالود عليه ضرر
فلا خير في العيش بعد الكبر.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخفش وعين لا تدعم حل يتوقع أحدكم إلا أنك مطاعي أو قرأ منسيا أو مسروضا مفسدا أو همها مقيدا أو الدجال فهو نشاق شر ينظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر. وحكى أن الله تعالى أوى إلى عيسى بن مريم عليه السلام أن هب لي من ملكك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فإني قريب. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: أوى الله إلي الدنيا من خدمتي فاخدميه ومن خدمك فأستخدميه. وقال بعض البلغاء: زد من طول أملك في قصير عملك فان الدنيا نظر الغام وحلم الاليام فإن عرفها
لأبي الحسن البصري

ثم طلبه فقصد اخطأ الطريق وحرم التوفيق. وقال بعض الحكفاء:

نهارك يا مغرور سهو وغفالة وليلك نوم والأسي لك لازم تسرّ بما يفني وتفرح بالمنى كما يسر باللذات في النوم حالم، وشغلك فيا سوف تكره عليه كذلك في الدنيا تعيش البهائم، وسمع رجل رجلا يقول لصاحبته: لا أراك Allah مكروها فقال: كأنك دعوت على صاحبك بالموت إن صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى مكروها، وقال أبو العتابة:

إن الزمان ولو يلي ملأه لهما مشاش خطواته المتبحرات كانت سواكن (والحالة الثانية) من أحوال رياضتها لها أن تصدق نفسك فيها منحتك من رغائها وأملها من غرائها فتعلم أن العطية فيها مرتوجة والمنح فيها مستردة بعد أن تبقي عليك ما احتقت من أوزار وصولها اليك وخبران خروجها عليك، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا اتزول قدماً ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث شبابها، فيها أبلاه وعمرها فإنما أفاناه وماله من أن يكتسبه وفيم أنفقه، وروى عن عيسى بن مريم

رب مغروس يعانا به عدمته عين مفترسه.
وكذلك الدهر ماتمه أقرب الأشياء من عرشه
فإذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضنت منها ثلاث
خلال: إحداثي نصح نفسك وقد استسلمت اليم والنظر لها وقد
اعتمدت عليك فان تاغي نفسه مغبون والمحترف عنها لأتون. والثانية الزهيد
في ليس لك لتكنى تكلف طلبه وتسليم من تبعات كسبه. والثالثة انتهاز
الفرصة في مالك أن تضع في حته وأن تؤذي لمستحته ليكون لك ذخرا
ولا يكون عليك وزرا فقد روي أن رجلا قال لرسول الله: إنى أكره
الموت قال: أكل مال قال نام قال: قد فان قال قل بقاب المؤمن عندنا
وقالت عائشة رضي الله عنها: ذهبنا شاه فتصدقنا بها فقلت لرسول الله:
ما يقي الاكتفنا قال: كلها يقي الاكتفنا. وحكي أن عبادة بن عبيد الله
ابن عتبة بن مسعود بع دارا بثمانين ألف درهم فقبل له: اتخذ لودوك
من هذا المال ذخرا فقال: أنا أجعل هذا المال ذخرا عن الله عن وجل
وجعل الله ذخرا لودوك وتصدق بها. وعوتب سلم بن عبد الله الموؤزي
في كثرة الصدقة فقال: لو أن رجلا أراد أن يبذل من دار إلى دار
أكان يقي في الأولى شيطنا. وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: ما لنا
تكره الموت: قال: لأنكم أخربتم أطركم ومجرتهم ديناكم فكرهتم أن تنقلوا
من العمرا إلى الحراب. وقال لعبد الله بن عمر: رتب زيد بن خارجة
مائة ألف درهم فقال: لكنها لاتركها. وقال الحسن البصري رحمه الله
ما أنتم الله على عبد نعمة إلا و عليه فيها تجما الأسلمان بن داود عليه
السلام فان انتن تعالى قال له: هذا عملت فامتن أو أملك بغير حساب.
وقال أبو حازم: إن عدينا من شر ما أعطينا لم يضروا فقد مازوعنا عنا.
وقال بعض السلف: قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلموا كلا فيكون عليكم.
وقال البراء: نم القوم السؤال يدقون أبيهم يقولون أنوجهون للآخرة
شيطنا. وقال سعيد بن المسبد: مرت في صلة بن أشي فما تمالك أن

أري الدنيا مه هي في بديه...

تشين المكرمين لها بصغر...

وتكرم كل من هانت عليه...

وخذ ما أنت تحتاج إليه...

هل أنت معتبر بين نحبت منه غداق قضى دسارة؟
ومن أذال دهر مصيره فتبرأت منه عماكره
ومن خلت منه أسرته وتعطلت منه منابرها
اين الملوك وأين عزهم؟ صاروامصيراً أنت صائره!
يا مؤثر الدنيا للساذته والمستعد لم يفاحره؟
نل مابدالك أن تتال من السدنين فان الموت آخر

فقال الرشيد رحمة الله عليه: والله لكأنى أخطب بهذا الشعر دون الناس
فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى مات رحمة الله. ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضت لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غروب أملك حتى لا يطيع لك الأمل أبدا قصيرة ولا ينسى موته ولا نشورا. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في بعض خطبه: "أيها الناس إن الأيام تطوى والأعمار تنتهي والأبدان تتبلى وإن الليل والنهار يتراكمان كترابكض البريد يقبران كل بعيد ويلحقان كل جديد
وفي ذلك عباد الله ما ألمى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات.
و قال مسار: كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله ولو رأيت الأجل ومسيره لأبلغضه الأمل وغروره. وقال رجل من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: من أكيس الناس قال: أكترهم ذكرى الموت وأشتد استعدادا له أولئك الأكاس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخيرة. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: كانتا بشك التموين

لا في الحسن البصري
الأبي الحسن البصري

الخطر. وقال بعض السلف من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة. وقال بعض الصلاة: استعن نفس الأجل وإمكان العمل وقطع ذكر المعاذير والعالم فانك في أجل محدود ونفس محدود وعمر غير محدود. وقال بعض الحكاء: الطبيب معدود إذا لم يقدر على دفع المعدود. وقال بعض البلاء: اعمل عمل المرحل فإن حادى الموت يجدوك ليمسك بك. وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لا يموت من جا أجهل
ولمن دنا من حتفه لم تفن عنه حيله
وما بقى آخر قد غاب عنه أوله?
والماء لا يصحبه في القبر إلا عمله

( وقال أبو العتاهية )

لا تأكل الموت في لحظة نفاس وإن تمتعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدري منها ومترس
ترجوا النجاة ولم تسلك مسالكها إن النسية لاجرى على اليس.
فاغدا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث
خلال: إحداها أن تكفيك تسويف أمل رديد وتسريل مجال يؤذيك
فان تسويف الأمل غرار وتسويل المجال ضرار، والثانية أن تستيقظ
لعمل آخرتك وتغتنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر أمه واستقل
اجله حسن عمله. والثالثة أن يهن عليك نزول ما ليس عنه محص
ويسهل عليك حلول ما ليس إلى دفعه سبيل فان من تحقيق أمرا توطا
حلوله فهان عليه عند نزوله. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال لأبي ذر: نبه بالتفكير قبلك وجاف عن النوم جنوك واتق الله ربك.
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي ذر رضي الله عنه: عظني فقال:
أرض بالقمر وخف من القمر واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت.
وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما رأيت قننا لا شك فيه أشبه
بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقترين إذا لمقي وئين كنا
جاحدين إلا للهلك. وقال الحسن البصري رحمة الله عليه: هكذا ضيفك
فأحسن اليسه فإنك ان أحسن اليسه ارتجل بسبك وان أست كل
ارتحل بذملك وكذلك لملك. وقال النحاز في كتاب البيان وجد مكتوبا
في حجر: يا ابن آدم لو رأيت بخير ما بقي من أجلك لزهدت في طول
مترجو من أملك ولربت في الزرادة من عملك ولقصرت من حرصك
وحلقنا وناست يلقالك عدا ندمك لو قد زالت بكم قدقم أساسك أهلك
وحسكم ونبرأ منك القريب وأنصرف عنك الحبيب. ولما حضر برثر
ابن منصور الموت فرح فقيل له: أنفرج بالموت فقال: آتتعلون قدمى
على خالق أرجوه كفاهه من حوله أخافه. وقيل لأبي بكر الصديق
رضي الله عنه في مرضاه الذي مات فيه: لو أرسلت الى الطبيب?
فقال قدر رأني. قلوا: فما قال لك؟ قال: قال أنا فعال لما أريد. وقيل
للفريج بن خيمان وقد اعتل: ندعو لك بالطبيب قال: قد أردت ذلك
فذكرت عادا وثعود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثيرا وعلمت أنه
كان فيهم الدلاء والدموارو فهلكونا جميعا. وسهل أنها
عيب الدنيا؟ أهان قال: إذا كان الذي ينبغي أن يعمله في حياته معمولا.
وقال بعض الحكماء: من ذكر المنية نسي الامنية. وقال بعض الأدباء:
عن الموت تسَّل وهو كررية تسَّل. وقال بعض البلاء: الأمل حجاب
الأجل. وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعلي رضى الله عنه:
فلو كنا إذا امتنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولحبنا إذا امتنا بعثنا ونسأل كنا عن كل شيء.
(وقال بعض الشعراء)

الإنسا الدنيا مقيل لراكب قضى وطرا من منزل ثم هجر أفارق ويايدير على قدمه ألا كل ما قصدته يبقى مورقاً وروى يزيد بن مسعود رضى الله عنه أن أبا الدرك رضى الله عنه قال يارسول الله: أوصني فقال صلى الله عليه وسلم: "آفسبا طيباً وأعمل صالحاً واسأل الله تعالى رزق يوم بيوت واحد نفسك من الموت" وكتب الربيع بن خثيم إلى أخه: 'قد جاءك وافر من زادك وكن وصي نفسك والسلام'. وقال بعض السلف: "أصاب الدنيا من حذوها وأصابت الدنيا من أميتها". ومحمد بن واسع رضي الله عليه يقوم يقول: 'هؤلاء زهد فقالوا: ما قدر الدنيا حتى يصمد من زهد فهل هو كائن كائن؟'

وقال بعض الحكاء: "السعيد من اعتبار أمسي واستظهف نفسه والشقيق من جمع له وبلغ عليه نفسه". وقال بعض البلاغاء: 'لا تبت من غير وصية وان كنت من جسمك في صحتك ومن عمريك في فسحتك فان الدهر خائن كل ما هو كائن كائن'. وقال بعض الشعراء:

من كان يعلم أن الموت مدركه والخبر مستنكره والدفن مستنكره ويوم القيامة أو نار استنكره فكل شيء سوى التقوى به سمح وما أقام عليه منه اسمه ترى الذي اتخذ الدنيا له وطننا لم يدر أن المصائر سوف تزاجيه وروى جعفر بن محمد بن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبته: 'أيها الناس إن لكم نهاية فاتهم إلى نهايةكم وإن لكم معلم فاتهم إلى معلكم وإن المؤمن بين مخافين أهل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وأهل قد مضى لا يدرى ما الله فاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لأخره ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأتم خلقتم للآخرة فوالذي نفس
أدب الدين والدنيا

١٠٤

هذا بيدّه ما بعد الموت من مستمتب ولا بعد الدنيا دار الا بجنة أو النار» وقال الحسن البصري رحمة الله عليه: أمس أجل واليوم عمل وغدا أمل. فأخذ أبو المعاهية هذا المعنى فنظمه شعرا:

ليس في ماضي ولا في الذي لم يأت من لهجت لمستحثيها
إذا أنت طول عمرك ما عمتنت في الساعة التي أنت فيها
قنع النفس بالكفاية والعالم طبقة فوق ما يكفيها
وقيل لرائد: ما بالك تمشى على العصا ولست بكبر ولا مريض؟ فقال:
إني أعظم أني مسافر وأنها دار بلغة وأن العصا من آلة السفر. فأخذه بعض الشعراء فقال:
حملت العصالا الصعب أوجب حملها على ولا أني تهنيت من كبر وحكتني أزمت نسي حملها لأعامها أنا مقيم على سمنر
نصح المشيب وان نجلس وقيل: مالغت شمس إلا وعذت بأمس.
وقال محمد بن شهير رحمه الله:
مضى يومك الدين شهيدا عادلا
وهمك هذا بالعمال شهيد
فان تلك بالأمس اقترنت إسماة
فئن بالله، وأنت حيد.
ولا ترج فعل الخير منك الى غد,
لعمل غدا يأتي وأنت فيقيد.
ووروى أبو بكر بن رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
«مارأيت مثل النجاة نام طالبا وما رأيت مثل النار نام هاربا» وقال عيسى
ابن مريم عليه السلام: ألا إن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم
يعجزون الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها وأل
أجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأماثوا منها ما خشوا أن يميت
قلوبهم وتركون منها ما أعظموا أنه سيتركهم. وقال عمر بن الخطاب رضي الله
 عنه: الناس طالبان يطلبون فطالب يطلب الدنيا فأشرفوها في فناره فإنه
رب أدرك الذي يطلب منا فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة
فاذال طالبان يطلب الآخرة فانفسوه فيها». ودخل أبو الدرداء رضي
الله عنه الشام فقال: يا أهل الشام اسمعوا قول آخر ناصح فأجتمعوا عليه
قله: ما لي أراك تبون ما لا تكنون وتجعون ما لا تأكلون إن الذين
كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأخلتو بعيدا وجمعوا كثيرة فأصبح أملهم غرورا
وجمعهم شورا ومساكينهم قبورا.
وقال أبو حازم: إن الدنيا غزت أقواما فعملوا فيها بغير الحق فقتأهم
الموت فلذوا مالتهم لان يجدهم وصاروا لمن لا يعرفهم وقدخلقننا بعدهم
فتبنيغ أن تنير للذي كرهنا من فنجتنة والذي غبتناهم به فنستعمله.
ومز بعض الزهاد بباب ملك فقال: باب جديد وموت عطيد وتزع شديد
وسفر بعيد. وزم بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: ما هذا
قالوا: مكانا، سرق منه رجل جبهة ومر به آخر فأعطاه جبة فقال:
صدق الله «إن سعيك لنشتي» وقال بعض الحكماء: ما أنصف من نفسه من أيقن بالحسد والحساب وزهد في الأجر والثواب. وقال آخر: يقال الأمل تقل القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب. وقال آخر: ياك والمنى فانها من بضائع الورك وتبتث عن الآخرة الأولى. وقال آخر: قصر أملك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبربرير. وقال عبد الله ابن المعتر رحمه الله:

نسيري إلى الآجال في كل ساعة وأيامنا تطوى وهن مراحل ولم نمشل الموت حقا كأنه إذا ما تخطته الأماني باطل فكيف به والشياب في الأس شمل ترحل عن الدنيا بزاد من التنق فعميك أيام تمعت قلائلك وكان عبد الملك بن مروان يتمنى بهذين البيتين: فاعمل على مهل فانك ميت واثب لنفسك أيها الإنسان فكان ماقد كان لم يك إذ مضى وكان ماهو كأن قدكانا (بصيغة) ونظر سليمان بن عبدالملك يوما في المرآة فقال: أنا الملك الشاب فقالت له جارية له:

انت نعم المتناع لوكنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان ليس فيها بدنا منك عيب كان في الناس غير أنك فاني وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال: خطبتا يسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقيته الجدء فقال: «أيها الناس كأن موت فينا عن غيرنا كتب وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان الذين شبع من الأموات سفرعبة مائل الذين راجعون نبؤتهم أجدائهم وتا كل نزاتهم كانوا خذلون بعدهم قد نسينا كل واعظه وأمنا كل جانيه طوى في من شغله عبيه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصبة ورحم هل الذل والمسكنة وخلط أهل السفة والحكمة طوي في من أدب نفسه
لاضم الحسن البصري

وحشنت خليقته وصلحت سريته طويلاً لم عمل بعلم وأثق من فضل وأمسك من قلته ووعسته السنة ولم يعدها إلى بدعة» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "زروا القبور تذكروا بها الآجرة وغسلوا الموتى فان معابرة الأجساد الخاوية موعظة بليغة" وحنفي الريعي بن خليم في داره قبلاً فكانت إذا وجد في قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فكث فيه ماء شاء الله ثم يقول رب أرجمون لعلي أعمال صلاته فيا تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعت أن بحث كيفك كذلك مائدة الله وقال أبو محترم الطفاوي كنفت القبور موعظة الأمال السالية. وقال لبعض الزهاد مأله العظام قال: النظري في حلة الأمور فأخذه أبو العتاهية فقال:

وعظتنا أجدات صمت وتعتقت أزمة خفعت ونكمت عن أوجهه تنبى وعن صور سبت وأرتقت قبرك في الحياء أنت حي لم تمت باشامتنا بمنفيت إين المنية لم تمت قبلنا انقلب الشما ووجد على قبر مكتوب قهرنا من قهرنا فصرا لنا أنظراً على طية. وعن آخر: من أجل الحياة وقد رأى مصارعاً فهو مغرور. وقيل في متروح الحكم: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه. وقال بعض الحكماء: من لم يمت لم يفت، قال بعض العلماء: لن أ groupId=1 من يظن بموت ولد لم يتعظ بقول أحد. وقال بعض العلماء: ما نقصت ساعة من أمسك الإبصرة من نفس فأخذه أبو العتاهية فقال:

إن مع الدهر فاعمال غداً فانظر بما ينقض في جيده ما ارتد طرف أمره بلذته ولا شيء يموت من جسده ولما مات الاسكدر قال بعض الحكماء: كان الملك أمس أطلع
أدب الدنيا والدين

منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال:

كفني حزنا بذفنك ثم أني نفست تراب قبرك عن يديا
وكان في حياتك له عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا
وقال بعض الحكاء: لو كان للنطيا ريح لا فتضح الناس ولم يحالوا
فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال:

أحسن الله دنا أتتخايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبه فضوح
وهذا جميعه مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو نكشفتم
ما ندافتتم وكتب رجل إلى أبي العتاهية رحمه الله:
يا ابا اتصاق إلى واثق منك بوذك
فأعنى بابي انتست على عيبك بشدك
( فأجابه بقوله)
أطيع الله بهدك راعبا أو دون جهادك
أعط مولاك الذي تطلب من طاعة عبدك
وقال بعض الحكاء: من سره بنوه ساءته نفسه فأخذ هذا المعنى
أبو العتاهية فقال:

أين ذي الآب كانا زاد منه مشروع زاد في فضاء أبيه
ما بقاء الأب الملح عليه بديب البلى شباب بنه
وفي معناه ما حكي عن زرتين حبيش أنه قال وقد حضرته الوفاة
وكان قد عاش مائة وعشرين سنة:

أذا الرجال ولدت أولادها وارعتشمت من كبر أجسادها
وجعلت أسقالها تعنادها تلك زروع قد دنا حصادها
(وكتب رجل إلى صالح بن عبد القدوس)
الموت باب وكل الناس داخله. فليست شعري بعد الباب والدار
(فأجابه بقوله)
الدَّار جنة عدن إن عملت بما يرضى الله وإن فرطت فالدار
هذا محلان ما للناس غيرهما. فأنا لنفسك ماذا آتيت
باب أدب الدنيا
إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَسْاَفَذَ قَدْرَتَهُ وَبَلَغَ حُكْمَهُ خِلَاقٌ اخْتُقِبٌ بِتَدْبِيرِهِ
وفقهم بتدبيره، فكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدر أن خلقهم
متاجرين. وفقطهم عاجزين ليكون بالغى منفرداً، وبالقدرة مختصاً حتى
يشعروا بقدرته إله خالق. ويعلمنا بناء أنه رأز فنذعن بصاعته رغبة
ورببة ونزام بقصصاً معزاً وحاجة ثم جعل الإنسان أكثر حاجة من
جميع الحيوان لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن نفسه، والإنسان
متبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانه صفة لازمة لطبعه، وخلقته
قائمة في جوهره، ولذلك قال أنس بعثمان تعالي: "وخلق الإنسان ضعيفاً،
يأتي عن الصبر، وما هو عليه مفتقر. واحتال ما هو عنه عجز، ولما كان
الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزاً لأن الحاجة
إلى الشيء مفتقر إليه والمفتقر إلى الشيء عجز عنه. وقال بعض الحكاء
المتقدمين: استقدموا عن الشيء خير من استغناه، واما خص الله
 تعالى الإنسان بكثرة الحاجة، وظهور العجز نعمة عليه، ولطفاً به ليكون
ذل الحاجة، ومنهاء العجز متعانه من طفيان الغني وينبى القدرة لأن
الطفيان مركز في طبعه إذا استغنى، والغني مستول عليه إذا قدر. وقد
أنى الله تعالى بذلك عنه فقال: "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى،
ثم ليكون أقوى الأمور شاهدا على نفسه، وأوضحته دليلاً على عجزه.
وأنتشيء بعض أهل الأدب لابن الروى رحمه الله:
أعبرت النقص والنقص شاملاً، ومن هذا الذي يعنى الكمال في كمال؟ وأشهد أن نقص غير أنى تتفاصل هذا الحقائق بالفاضل والمجاهد، فليس أيما هذا أنت تفضل؟ ولو منح الله الكمال ابن آدم فعند خلقه وله ما شاء يفعل. ولما خلق الله الإنسان مأس الحاجة ظاهر العجز جعل لنين حاجته أسباباً ولدفع حجزه حيالاً دله عليها بالعقل وأرشده إليها بالفطنة. قال الله تعالى: "والذي قد تر فهدى"، قال مjahد قدر أحوال خلقه فهدى إلى سبيل الخير والشر. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: "وهديهان التجديدين" يعني الطريقين طريق الخير وطريق الشر. ثم لما كان العقل دالاً على أسباب ما تدعو إليه الحاجة جعل الله تعالى الآدراك والظفر موقوفاً على ما قسم وقدر كلاً يعتمدوا في الأرزاق على عقوله وفي العجز على فطنه لتدوم له الرغبة والرهبة ويشبه منه الغني والقهرية وربما عزب هذا المعنى على من ساء ظنه تجئه حتى صار سبيلاً للضلال كفاعل الشاعر: 

سيبحان من أنزل الأيام متزلفاً وصير الناس مرفوضاً وصرموقاً فعافال فظن أعيب مذابه وهاجمل خرق تلقاه مزروفاً.

هذا الذي ترك الأئلاب حائره وصير العاقل التحرير زنديقاً.

ولو حسن ظن العاقل في صحنة نظره لعلم من علل المصاحل ما صار به صديقاً لا زنديقاً لأن من علل المصاحل ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض. ومنها ما هو مغيب حكاية استثنائه به. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حسن الظن بالله من عبادة الله" ثم إن الله تعالى جعل أسباب حاجاته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها دار تكليف وعمل بها جعل الآثرة دار قرار وجزء نلزم لذلك أن يصرف الإنسان إلى دنياه حظاً من عنايته لأنه لا غنى له عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الحلة فيها عند حاجته. وليس في هذا القول نقص لما ذكرنا قبل: من ترك
فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب
فضولها مذموم والرغبة إنما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول
إذا ينطق على ما زاد على قدر الكفاية. وقد قال الله تعالى لنبيه
صلى الله عليه وسلم: "فأذا فرغت فانصبه وإلى برك فارغب". قال
أهل التأويل: فأذا فرغت من أمور الدنيا فانصمب في العبادة برك وليس
هذه القول منه ترغبين لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبته إلى أخذ
البلغة منها. وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم: "ليس خيراً من
ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة الدنيا. ولكن خيراً من أخذ من هذته
هذه". وإذا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نعم الموتية
الدنيا فاتحلوها تباعكم الآخرة". وذم رجل الدنيا عند الله على بن أبي طالب
كرم الله وجهه فقال رضي الله عنه: الدنيا دار صدق لم صدقها ودار
نجة لم فهم عنها ودار غنى ممن تزود منها. وحكي مقاتل: أن إبراهيم
الخليل صلى الله عليه وسلم قال: "ارتب حتى أتريد في طلب الدنيا قليل له: أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب
الدنيا. وقال سفيان الثوري رحمة الله عليه: مكتوب في التوراة إذا كان
في البيت فرتعبد وإذا لم يكن فاطلب يابن آدم حركاً بذلك يسبب لك
رذقه. وقال بعض الحكام: ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون
العرض فيها. وقال بعض الأدباء: ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت
البدن. وقال محمود الوراق:
لا تسبغ الدنيا وأعباها ما وإن دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها إن بها تستدرك الآخره
فأذاً قد زمر بما بنيا النظر في أمور الدنيا رواج سبأ أحوالها
والفكش عن جهة انتظامها واحتلاها لنعلم أسباب صلاتها وفسادها
وموارد عمريها ونواحيها لينتفي عن أهلها شبه الحياة وتجلي لهم أسباب
الخيرة فيقصدوا الأمور من أبوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها
والآن أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أحدهما ما ينظم به أمور
جعلتهما، والثاني ما يصلح به حال كل واحد من أهلها فلا فهم لنا صلاح
لأحدهما إلا بصاحبه لأن من صلح حاله مع فساد الدنيا واحتلال
أمورها لن يعدد أن يتعدى إليه فسادها ويقدح فيه اختلافها لأنها منها
مستمدة ولهما يستمده ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانظام أمورها
لم يوجد لصالحها لذا ولا استقامتها أثراً لأن الإنسان الدنيا نفسه فليس
يرى الصلاح إلا إذا صلحت له ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه
لأن نفسه أخص وحالة أمه فصار نظره إلى ما يخصه مصروفا وفكره
على مايسمه موقوفا. وأعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مساعدة ولا
عن كافة ذويها معرضه لأن إعراضها عن جميعهم عقب ويسعدها
لكافهم فساد لائتمفهم بالاختلاف والتباين وافتقامهم بالمساعدة والتعاون
فذا تساوا حينئذ جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغير سبيلاء
وهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيه ضيعة ويلكونا نجزا وأما إذا
تبانوا واختتناصوا مؤلفين بالمعونات متواصلين بالحاجة لأن دا الحاجة
وصول والخلاص إليه موصول. وقد قال الله تعالى: "ولا يزالون مختلفين
لا من رحم ربك ولذلك خلقهم". قال الحسن: مختلفين في الرزق فهذا
غني وهذا فقير ولذلك خلقهم يعني للاختلاف بالغني والفقر. وقال الله
تعالى: "والله فضل بعضكم على بعض في الرزق" غير أن الدنيا إذا
صلحت كان إسماها موقورة وإعراضها ميسورة لأنها إذا منحت
هنات وأودعت وإذا استرقت رفقت وأبنت وإذا فسدت الدنيا كان
إسماها مكررا وإعراضها غداً لأنها إذا منحت كدت وأبت وإذا
استرقت استأصالت وأبحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر
هلها لوفور أماناتهم وظهور دياتهم وفسادها مفسد لسائر أهلها لقلة
أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفنا
كما يقتضيه دليل الحال تعليلاً وكشفًا فلا شيء أفع من صلاحيتها كما
لا شيء أضر من فسادها لأن ما نقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم
فلا شيء أحق به نفعاً كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا
شيء أجد به ضرراً. وأنشدت لأبي بكر بن دريد :
الناس مثقل زمانهم قد الحذاء على مشاله
ورجال دهوك مثل دهمرك في تقلب وحاله
وقدنا أذا فساد الزمان جرى الفساد على رجاله
وإذ قد بلغنا القول إلى ذلك فسندناه ذكر ما تصلح به الدنيا ثم
نتلوه بوصف ما يصلح به حال الإنسان فيها
علم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها متزامنة وأمورها
ملتحمة سنة أشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي ؛ دين متبوع وسلطان
قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دار وأمل فسيح
( فأما القاعدة الأولى) وهي أدين المتبوع فلأنه يصرف النفس عن
شهواتها ويعطف القلوب عن إراداتها حتى يصير قاهرًا للسائر زاجرًا
للضياع رقباً على النفس في خلوتها نصوحاً لها في ملائمتها وهذه الأمور
لا يصلح غير الدين الها ولا يصلح الناس إلا عليها فكان الدين أقوى
قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفا في انتظامها
وسلامتها ولذلك لم يفل لله تعالى خلقه مدى فطره عقلاء من تكلف شرع
واعتقاد دين يتقادون حكمة فلا تختلف بين الآراء ويستسامون لأمره
فلا تصرف بين الأهواء وإنما اختلاف العلماء رضي الله عنهم في العقل
والشرع هل جاء بطبعه واحدة أم سبقه العقل ثم تلقبه الشرع. فقالت
طائفة: جاء العقل والشرع مما بطبعه واحدة لم يسبق أحدها صاحبه.
وقالت طائفة: أخرى بل سبق العقل ثم تلقبه الشرع لأنه بكمال العقل
يستدلك على صحة الشرع وقتال أن الله تعالى: «أحبس الإنسان أن يتمكن سلتيّ» وذلك لا يوجد منه الااعداد كالعلقة فثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الواحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة ففيه العاقل أن يكون به متمسكاً، عليه مباشرةً، وقال بعض الحكاء: الأدب أدبان أدب شرية وأدب سياسة فأدب الشرعية ما أدب الفرض وأدب السياسة ما عمر الأرض وكلاهما يرجع إلى العدل الذّي به سلامة السلطان وعمار البلدان لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره.

وقال سعيد بن حيدر:

مأخضة أبدًا بنافعة حتى يصح الدين والخلق (وأما القاعدة الثانية) فهي السلطان قائمه لتتألف برهيته الأهواء المختلفة وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتتكافف بسماوته الأبدى المتغالبة وتتقاعف من خوفه النفس المتعادلة لأن في طباع الناس من حب المبالطة على ما أثربو الفضل من عادته ما لا يكتفون عنه إلا يعانق قوى ورادع ماله، وقد أفصح المتنبي بذلك حيث يقول:

لايسلم الشرف الرقيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم والظلم من شىء النفس فإن تجد ذاعة فلمعالة لا يظل

وإنهدل علة المنعمة من الظلم لاتغلو من أحد أربعة اشبة: إما عقل زاجر أودين حاجر أو السلطان رادع أو إجزاءً فذا تامة لها لم تجد خباها يفقرن بها وربة السلطان أبلغها لأن العقل والدين ربما كانا مضعفين أو لا يدعي الهوى مغلويين فتكون ربة السلطان أشد زجراً وأقوى ردعًا. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن السلطان ظل الله في الأرض يا ألي الظلم كل مظلمة» وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله ليزّع بالسلطان أكثر ما يزّع بالقرآن»، وروى عن النبي.
صلِّ الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله حَرَّسَنا في السياو وأنْشَدَّنا في الأرض فِرْعَانَهَا في السماوات وحَرَّسَهَا في الأرض الذين يقيضون أرزاقهم ويذبون عن الناس". وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الأمام البخاري خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار".

وقال عبد الله بن مسعود: السلطان يفسد وما يصلح الله به أكثر فإن عدل فله الأجر وعليكم الشكر وإن جار فعَّاله الوزير وعليكم الصبر. وقال أبو هريرة رضي الله عنه سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال: لا تسبروا فإنها عممت بلاد الله تعالى فعاش فيها عاد الله تعالى. وقال بعض البلغاء: السلطان في نفسه إمام مبتوع وفي سيرته دين مشروع فان ظللم لم يعد أحد في حكم وإن عدل لم يصر أحد على ظلم. وقال بعض الأدباء: إن أقرب الدعوات من اجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالأجر والثواب أمه ونهيه في وجه المصائب فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها. ثم لما في السلطان من حراسته الدين والذب عنه ودفع الأهواء منه وحراسته التبديل فيه وزوجه من شد عنه بارتداد أو بغي فيه بعند أور سعي فيه بفساد وهذة أموران لم تتحصى عن الذين بسلطان قويٍ ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذو الأهواء وتحرير ذو الآراء فليس دين زال سلطانه الا بذلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعم فيه بدعة ولكل عصر في وبينه أثراً كما أن السلطان إن لم يكن على دين تجمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضًا والناصر عليه حتى لم يكن للسلطان لبث ولا لأيامه صفو. وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين بجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت زعم الأمية ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه. وقد قال عبد الله بن المعتز:
الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى

واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة:

وجب بالعقل لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم المزعم إلى زعيم

مندوب للنظر في مصالحهم. وذهب آخرون إلى وجهه بالشرع لأن

المقصود بالامام القيم بأمور شرعية كقائمة الحدود واجتماع الحقوق

وقد كان يجوز الاستفادة منها بأن لا يرد التعدد بها فإن يجوز الاستفادة

 مما لا يراد إلا لها أولى. وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الأنبية فمن

 قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبية ومن قال بوجوب

 ذلك بالشرع منع وجب وجبة الأنبية لأنه لما كان المقصود ببعثتهم

تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلمين أن لا تكون هذه الأمور

صلاحة لم يجب بعثة الأنبية البديل. فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر

وأحد ونجل واحد فلا يجوز إجماعا. فأما في بلاد شتى وأمصار متباعدة

فقد ذهبت طائفة شايدة إلى جواز ذلك لأن الإمام مندوب للصالح

وإذا كان إبان في بلدين أو أحرايتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه

وأضيف لما يليه ولأنه لما جاز بعثة النبيين في عصر واحد ولم يؤذ ذلك

إيصال النبوة كانت الإمامة أولى ولا يؤذ ذلك إلى إبطال الإمامة.

وذهب الجمهور إلى أن إقامة إمامين في عصر واحد لا يجوز شرعا لما ورى

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا بوقع أمران فولوا أحدهما

وروى فاقتولا الأخير منها. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال: "إذا وليتم أبو بكر تجده قويًا في دين الله عن وجل ضعيفًا في بدنه

وإذا وليتم عمر تجده قويًا في دين الله عن وجل قويًا في بدنه. وإن

وليتم علينا تجدها هاديا مهديًا" فبين يظهر هذا الكلام أن إقامة جميعهم

في عصر واحد لا يصح ولوجود لآثار الله عليه وليه عليه. والذيلزم سلطان

الأمة من أمورها سبعة أشياء: أحدها حفظ الدين من تبديل فيه
والبحث على العمل به من غير إهمال له. والثاني حراسة البيضة والذب عن الأمة من عدو في الدين أو باغي نفس أموال. والثالث عمارة البلدان بـ عبادة مصالحها وتهذيب سبيلها ومسالكها. والرابع تقدير ما يتولاه من الأموال بين الدين من غير تحريف في أخذه وإعتقادها. والخامس معاناة المظلم والأخلاق بالتسوية بين أهلها واعتماد النصف في فصلها. والسادس إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها. والسابع اختيار خلافائهم في الأمور أتاب يكونوا من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها. فإذا فعل من أفضى إليه سلطان الأمة ما ذكرته من هذه الأشياء السبعة كان مؤذا بحق الله تعالى فيهم مستوجب طاعتهم ومناصحتهم مستحقة صدق ميلهم ومحبهم وإن قصر عنها ولم يتم تحقها وواجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاكما ثم هو من الرعية على استبدان معصية ومقت يتروصون الفرس لاظهارها ويتوحون الدوائر لاعلانها. وقد قال الله تعالى: "قل هو القادر على أن يبعث عليك عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا". وفي قوله تعالى: "عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأو يلائ: احدهما أن العذاب الذي هو من فوقهم أمراء السوء والدهمن من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني أن العذاب الذي هو من فوقهم الرجم والدهمن من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مjahid وسعيد بن جبير. وفي قوله تعالى: "أو يلبسكم شيعا تأو يلائ: أحدهما أنه الأهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني أنه الفتن والاختلاف وهذا قول مjahid. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من أمير على عشيئ إلا وهو يبني يوم القيامة مخلولًا يدا إلى عتقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه أو يوطنه". وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير أمتكم الذين تحتونهم ويعبونكم وشرت أمتكم الذين تبغضونهم ويعضونكم"

أما والله إن الفظام لوم وما زال المسئى هو الظلم إلى ديوان يوم الدين تمضى وعند الله تجمع الحصوم
لأبي الحسن البصري

ستعلم في المعاد إذا التقينا غدا عند الملك من الظلوم
فأخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديد ودعا أبا العتاهية فاستحله
ووهبه له ألف دينار وأطلقه

(وأما القاعدة الثالثة) فهي عدل شامل يدعو إلى الألفة ويبحث
على الطاعة وتعمير البلاد وتنمو الآموال ويكثرون معه النسل ويأمن
به السلطان فقد قال المهرجان لعمري حين رآه وقد نام مبتذلاً: عدلت
فأمنت فنمت. وليس شيء أسرع في حرب الأرض ولا أفضد لضياء الحق.
من الجلور لأنه ليس يقف على حد ولا ينتمي إلى غاية ولكن جزء منه
قسط من الفساد حتى يستقل. وقد روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم أنه قال: نحن الازاد إلى المعاد العدون على العباد. وقال صلى الله
 عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهنكات: فأما المنجيات فالعدل
في الغضب والرضا وخشيته الله في الدمر والعلانية والقصد في الغنى والفقر.
وأما المهنكات: فشح مطاع ودوى متبوع وإيجاب المرء بنفسه. وحكي
أن الأسكندر قال لحكام الهند وقد رأى قلة الشرائع بها: لمصرست سنن
بلادكم قليلاً ؟ قلوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فيفاقلم لم: أما
أفضل العدل أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل أغلب عن الشجاعة.
وقال بعض الحكمة: بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف. وقال
بعض البلاغاء: إن العدل ميزان الله الذي وضعه له الحق ونصبه للحق فلا تخالفه
في ميزانه ولا تعارضه في سلطته واستعن على العدل بثمان قلة العلم
وكثرة الوعي. فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا أنظم لها
الأبه ولا صالح فيها إلا منه وجب أن يبدأ بعد الإنسان في نفسه
ثم بعدله في غيره. فأما عدلله في نفسه فيكون يجعله على المصالح وكفها عن
التيان ثم بالوقوف في أحواضه على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقدير
فان التجاوز فيها جور والتقيض فيها ظلم. ومن ظلم نفسه فهو غيره أظلم

متي أوجت داهم تخطى اليك بعض أخلاق اللسان
وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل. وقال أبو بس: أطم من فوقك يطمك من دونك. وقال بعض الحكاء: الظلم
казал

الله تعالى لا يرضى عن خلقته الا بنادية حظه وحظه شكر التعمة ونصب الأمة وحسن الصنعة وزروم الشريعة. والقسم الثالث عدل الإنسان مع أكفائه ويكون بثلاثة أشياء: تترك الاستطالة ومجانية الإدلال وكيف الزاؤ لا تترك الاستطالة آلاف ومجانية الإدلال أعطى وكيف الزاؤ أنصف وهذه أموران لم تخصص في الأفكار أسرع فيهم تفاطن الأعداء ففسدوا وأفسدوا. وقد روى عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أكتب بشرا الناس" قالوا: أي بارسول الله قال من نزل (1) وحده ومنه رففه وجمله عبده ثم قال: أفلا أكتب بشرا من ذلك؟ قالوا: أي بارسول الله قال من لا يرجى خيه ولا يؤمن شره ثم قال: أفلا أكتب بشرا من ذلك؟ قالوا: أي بارسول الله قال من يغض الناس وتهضمونه.

وروى أن عيسى بن مريم عليه السلام قام خطبًا في بن إسرائيل فقال: يا بن إسرائيل لانتنتموا بحلفة عند الجهلاء فظلموا ولا تمنعوا أهلها فظالمهم ولا تكافئوا ظالمٍ فبطل فصلكم. يا بن إسرائيل لأمور ثلاثة أمر تبين رشد فتتبعه وأمر تبين عليه فاجتنبوه وأمر اختلت فين فردوه إلى الله تعالى وهذا الحديث جامعًا لآداب العدل في الأحوال كثيرة. وقال بعض الحكّاء: كل عقى لا يدأري به الكل فليس بعقلٍ فهم. وقال بعض الشعراء:

ما دمت حينا فدار الناس كلهم قاتلا أنت في دار المسددار من بدر دارو ومن لم يدرس فريى عمًا قليل نديما للندامات وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتى التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فقا جاور الاعتدال فهو نروج عن العدل. وقد قالت الحكاة: الفضائل هي ذات

(1) قوله من نزل المشهور بالحديث من أكل وعلى هذه رواية أخرى. كتبه مصباحه
من توسع سيئة بين حالين ناقصتين وأفعال الخير لتوسط بين رذيلتين
(الحكمة) واسطة بين الشر والجهالة (الشيوعة) واسطة بين التفخيم والحنين
(العفة) واسطة بين الشر ووضع الشهوة (السكينة) واسطة بين
السخط وضعف الغضب (الغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة
(الطرف) واسطة بين الخلافة والندامة (التواضع) واسطة بين الكبر
ودعاء النفس (السخاء) واسطة بين التذكير والتفتيت (اللم) واسطة بين
إقرار الغضب وعدمه (الموقة) واسطة بين الخلافة وحسن الخلق
(الحية) واسطة بين القحة والحرص (الوقار) واسطة بين الهزن والسخافة.
وإذا كان ما خرج عن الاعتدال إلى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل
إلى ما ليس بعدل كان ما خرج عن الأولي إلى ما ليس بأولي خروجا عن
العدل إلى ما ليس بعدل. وقد قال بعض البلاغاء: السلطان السوء يخفف
البري، ويصطنع الدنى، والبلد السوء يجمع السفن، ويوثر العلل، والولد
السوء يهبن السلف ويهم الشرف، وإختار السوء يشفي السير، ويهتك
الستر يجعل هذه الأشياء بخروجها عن الأولي إلى ما ليس بأولي خروجا
عن العدل إلى ما ليس بعدل، ولست تجد فسادا إلا وسبب نتاجته
الخروج فين حال العدل إلى ما ليس بعدل من حلالة الزادة والنصوان
فاذن لا شيء أرفع من العدل كما أنه لا شيء أضر مما ليس بعدل
(أوأما القاعدة الرابعة) فهي أمم عام تطمئن إليه النفس وتتيسر
في الهوى ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف فليس نخليف راحة
ولا حذر طمأنة. وقد قال بعض الحكاء: الأمن أهنا عيش والعدل
أقوى جيش لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويمجوزهم عن
تصرفهم ويفكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملهم
ولكن كاب الأمن من نتائج العدل واللوجر من نتائج ما ليس بعدل
فقد يكون الحور تارة بمقاس الأدميين الخارجحة عن العدل وتارة
يعكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فن أن الجء ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعاً عن أن يكون الأمن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فإذا كان ذلك كذلك فالأمن المطلق ماعم والخوف قد يتوقع تارة ويعم فتنويه بأن يكون تارة على النفس وتبارة على الأهل وتارة على المال وعمومه أن يستطيع جميع الأحوال والكل واحد من أنواعه حن من الوهان ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتناقص بيناو جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة في خلاف عليه من أجل ذلك لم يجز أن يتصرف حال كل واحد من أنواعه بقدر من الوهان ونصيب من الحزن لاسيما والتائه على الشيء في خلاص الحن به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لا خوف له إلا أيى فهو يغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواء فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل وعمه سواء غافل ولهما صرف عنه أكثر مما ابتلي به.

على أنها ت퇴 الكاوم و إذا يركب بالأذى وإن جيل ما يضى (وحكى) أن رجلا قال وأعماي حاضر ما أشد ويع الشرس! فقال الأعرابي: كل داء أشد داء كذلك من عمه الأمن كن استوات عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخفف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة بعافية حتى يصاب. وقال بعض الحكفاء: إنما يعرف قدر النعمة بتقاسة ضدها فأخذ ذلك أبو تمام الطائي فقال:

والحادثات وإن أصابك يعجزها فهو الذي أنباك كيف نعيمك فلا أولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيها سوى ذلك من عافية وامنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوك شكا و بالجزع صبرا و لا يكون فرحًا مسرورا. حكى أن يعقوب قال ليسف عليهما السلام حين لقيه. أي شيء كان خبرك بعد؟
قال: لا تسأل عما فعله ب إخوتي سلتي عمما صنعه بي ربي. وقال الشاعر:
لا تنسب في الصحة أيام السقم فإن عقبي تاكرب الحزن ندم (وأما القاعدة الخامسة) فهي خصب دار تنشع النفوس به في الأحوال ويشتركون فيه ذو الاكثر والاقللا فيقل في الناس الحسد وينتقى عنه نباغض العدم وتنسع النفوس في التوسّع وتكثر المواضعة والتواصل وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها ولأن الخصب يؤول إلى الغني والغني بورث الأمانة والسعادة. كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: لا تنسقين إلا ذا حسب أومل فإن ذا الحسب يخف العواقب. وهذا المال لا يرغب في مال غيره. وقال بعض السلف: إنه وجدت خير الدنيا والآخرة في الغني والغني وشر الدنيا والآخرة في النجور والفقر. وقال بعض الشعراء:
ولم أر بعد الدين خيرا من الغني ولم أر بعد الكثير شرا من الفقر وحسب الغني يكون إقلاال البخيل وإعطاءه وإنكار المواد وسطاهم كما قال دعبل:
أين كنت لانثني ندى دون إمرة فلست بمول ملأنا آخر الدهر وأيّ إنا لم يفض عند ملته وأيّ بخيل لم يفعل ساعة الوفر.
وإذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من أسباب الفساد ما وصفها وكي أن صلاح الخصب عام فكل ذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح إن وجد عم به الفساد. إن فقد فاخر أن يكون من قواعد الصلاح ودعايا الاستقامة والخصب يكون من وجهين: خصب في المكاسب وخصب في المواد. فالأمة خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الأمن المقترن بها. وأما خصب المواد فقد يتفرع عن أسباب إلهية وهو من نتائج العدل المقترن بها.
(وأما القاعدة السادسة) فين أمل فسيح يبعث على اقناع ما يقصر
العمر عن استيعابه ويبعث على اقناع ما ليس يؤمل في درك بحياة أربابه
ولولا أن الثاني يحقُّ بـ ما أنشاه الأول حتى يصير به مستفنتا لاقتفر
اهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى وأراضي
الحرت وفي ذلك من الأعوار والتذرات والمكان ما لا خفاء به فلذللك ما أرفق
الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمره الدنيا فتم صلاحها وصارت
تنتقل بعمراتها إلى قرون بعد قرون ففيما الثاني ما أنشأه الأول من عممارتها
ويرت الثاني ما أحدثه الثاني من شعما تنعكس أحوالا على الأعصار
ملتئمة وأمورها على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال ما تجاوز
الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكن كانت تنقل التي من بعده
خرباً لا يجد فيها ناقة ولا يدرك منها حاجة تم تنقلاً إلى من بعد بأسوأ
من ذلك حالا حتى لا يعي بها نبت ولا يمكن فيها لبث. وقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأمل رحمة من الله لأمتى ولولا
ما غرس عارس شجرا ولا أرضعت أم ولدا». وقال الشاعر:

والنفس وإن كانت على وجل من المنينة آمال تقوى فيها
فالصبير يضعف والدهم يقبضه والنس نشرها الموت يطوى
وأما حال الأمل في أمر الآخرة فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها
وقيلة الاستعداد لها وقد أفسح لبيد بن ربيعة مع أعراة بعده بما نتين به
حال الأمل في الأرميين فقال:

وأكتب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يرى الأمل
غير أن لا تكذبها في التقي واحرها بالذِّكر له الأجل
وفرق ما بين الآمال والأمانين أن الآمال ماتفيدت بسائب والأمان
ما تجزت عنها
فهذه القواعد السات التي تصلح بها أحوال الدنيا وتنظم أمور جملتها
فان كالت فيها كل صلاحها. وابيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا
وأن يكون صلاحها عامة شاملا لأنها موضوعة على التغير والفناء منشأة
على التصرم والانتقاء. وسمع بعض الحكاء رجلا يقول: قلب الله الدنيا
قال: فاذن تستوى لأنها مقلوبة. وقال بعض الشعراء:
ومن عادة الأيام أن خطو بها إذا سر من جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام إلا ذمنية ولا الدهر إلا وهو لا أتار طالب
وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها
(فصل) وأما ما يصلح به حال الإنسان فيها فثلاثة أشياء وهي قواعد
أمره ونظام حاله وهي: نفس مطيعة إلى رشدها منتهية عن غيها. وألفة
جامعة تعطف القلوب عليها ويندفع المكرود بها. ومادة كافية تسكن
نفس الإنسان إليها ويستقيم أودها بها
(فأما القاعدة الأولى) التي هي نفس مطيعة فإنها إذا أطاعته
ملكها وأدا عصيته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن
لا يملك غيرها أخرى ومر عصيته نفسه كان بأخصصة غيرها أولى.
وقال بعض الحكاء: لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه
ممنوعة عليه وقد قال الشاعر:
أن تعط أن يطيع كل سعيد وترم أن قلبك قد عصاك؟
وطاعة نفسه تكون من وجهين: أحدهما نصح والثاني انغيد. فاما
النصيح فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه
ويرى النغي غيا ويستقبله وهذا يكون من صدق النفس إذا سامت
من دواعي الهوى ولذلك قيل: من تفكر أبوصر. فاما الانتقاد فهو أن
تسرع إلى الرشد إذا أمرها وتنبه عن النغي إذا زوجها وهذا يكون
من قبول النفس إذا كنت منازعة الشهوات. قال الله تعالى: «وريد
الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيا»، ولنفس آداب هي تمام
الطاعتها وเอกال مصالحها، وقد أفردنا له من هذا الكتاب بابا واقتصراً في هذا الموضوع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقرب (وأما القاعدة الثانية) التي هي الألفة الجامعة فإن الإنسان مقصود بالأذينة محسود بالنعمات فأما لم يكن الآثاما مألوفاً تخفيفته أبدى حاسديه، وتحكت فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصرف له مدة فذا كان الآثاما مألوفاً انتصر بالألفة على أعاديه وامتعه من حاسديه فسؤمت نعمته منهم وصفت مديته عنهم وإن كان صفو الروان غزه وسماه خطراً.

وقد روى ابن جريح عن عطاء رحيمان الله عن جابر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "المؤمن آلف مألوف ولا خير فيه لا يألف ولا يلف ولغير الناس أنت لهم للناس". وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله تعالى يرضا لكم ثلاثاً ويكز لكم ثلاثاً يرضا لكم أن تعبدوا ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبسه جميعاً ولا تترعوا وأن تنصحوا من ولاد الله أمركم ويكز لكم قيل وقال وكثيرة السؤال وإضاءة المال"، وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة، والعرب تقول: من قال ذل، وقال قيس بن عاصم: "إن القداح إذا اجتمع فرماها بالكسر ذو حنق وبطلش أيد، عزت فلم يكسر وان هي يددة فلوهرن والتكرير للثيщения وباذ كأنها الألفة بما أثبت تجمع الشمل وتمع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها، وأسباب الألفة خمسة: وهي الدهر والنسب والمصاحبة والموكدة والبر. فأما الدهر وهو الأول من أسباب الألفة فلا أنه يبعث على التنافر ويتبع من التنافع والتدابير. وبمثل ذلك ودعى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فرؤى سفيان عن الزهراء عن أنس رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تتقاطعوا ولا تدا بوا ولا تخاصدوا وكونوا عباد الله إخوانا لا جدل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث". هذا وإن
كان اجتياعهم في الدين يقتضيه فهو علي وجه التحدير من تذكر ترات الباهلياء وأخى الرسالة فقد بعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشذ تقاطعا وتعاديا وأكثر اختلافا وتعادا حتى إن بين الأب الواحد كانوا يترفون أحرابا تثور بينهم بالتجربة والاقتراب أحقاد الأعداء وإن البعداء وكانت الأنصار أشد تقاطعا وتعادا وكأن بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم إلى أن تسلموا فذهبت إخونهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالإسلام إخونا وتوأصلن وألف الدن أخونا مناصرين. قال الله تعالى: "واذكروا إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصلحوكم بنعمته إخونا" يعني أعداء في الباهلياء فألب بين قلوبكم بالإسلام. وقال تعالى: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وذا يعين حياة. وعلي حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه إذا اختلف أهله فان الإنسان قد يقطع في الدين من كان به إزاء عليه مشافنا هذا أبو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والأثر المشهور في الإسلام فقتل أبا بكر بدر وأي برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعله من قيمه فضلا واحمد في طغائه فلم يعطفه عليه رحمه ولا كشف عنه شفقة وهو من أبرز الأبناء تغلبا للدين على التنسب ولطاعة الله تعالى على طاعة الأبد. وفيه أنزل الله "لا تاجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوافقون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أباههم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشرينهم". وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتنباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الأديان وعند ذلك أن الدين والاجتياع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الألة كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة وإذا نكازا أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين
لا يدأ وأكثر عددًا كانت الصدأة بينهم أقوى والإجح فيهم أعظم ل لأنه ينتمي إلى عداوة الاختلاف تمحاكسة الأكفاء وتناقص الظرفاء. وأما النسب وهو الشاق من أسباب الألفة فلا أن تعاطف الأرحام وحية القرابة ينبغي أن يدفع الناس في النصرة والألفة ومنع من التحالف والفرقة. أنته من استعلاء الأبد على الأفDONE وتوقيا من سلطان الغربة الأجانب وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الرحم إذا تماست تعاطفت" ولذلك حفظت العرب أسبابها ما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الأديان عنها لتكون به متظافرة على نواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت بآونة "الأناس تناصرها على النوى الأبد" وتحكت فيه تحكم المسلط المتشبط. وقد أعذر نهى الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرته تنصره فقال لمن له تبيهم: "ل أأن لا يبكك قوة أو آوى إلى ركن شديد" يعني عشيرته مامعة وروي أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد" يعني الله عزوجل. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بعد الله تعالى من نبي بعد إلا في ثروة من قومه". وقال وهب: "قد رأته الرسول صلى الله صلى وقلوا: ان ركك شديد وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك لمر مثيرا حتى يسممه إلى قبيلة يكون عليها. قال البراشي: المثير الذي لا يسمى إلى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة وكف عن الفرق وتلكر قال صلى الله عليه وسلم: "من كفر سواهم فهمهم". وأما كان النسب بهذه المنزلة من الألفة فقد تعرض له عواوض تنفع منها وتبعت على الفرقة المنافية لها فإنه قد لزم أن نصف حال الأسباب وما يعرض لها من الأسباب. فبعلة الأسباب أنها تنقسم ثلاثة أقسام: قسم والدون وقسم مولدون وقسم مناسبون لكل قسم منهم منزلة من البر والصلة
وعدوا ينظر في عيشة على الحقوق والقطيعة. فاما الوالدون فهم الآباء والأمهات والأجداد والجدات وهي موسومون بالسلامة أنحالفهم بخلقين: أحدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب. فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفق وذلك لا ينطلق عن الوالد بحال.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لكل شيء ثمرة وتمرة القلب الولد" وروى عنه أنه قال: "الولد مبخلة مجهلة مجهولة محزنة" فأخبر أن الحذر عليه بكسب هذه الأوصاف وحدث هذه الأخلاق.

وقد كره قوم طلب الولد كرابهة لمسه هذه الحالة التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحودونها حتيا. وقيل ليحيى بن زكريا عليه السلام:

ما بالك تكره الولد؟ قال: مالى وليولد إن عشى كذنى وإن مات هدئى.

وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: ألا تستروج، قال: إذا يحب التكافل في دار البقاء. فأما ما كان حادثا بالاكتساب فهو المحبة التي تبنى مع الأوقات وتتغير مع تغير الحالات. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الولد أنوتو" يعني أن حبه ملصق بياض القلب فانصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلاوة حدثت من عقوبة أو تقصير مع بقاء الحذر والاشفق الذي لا يزول عنه ولا ينطلق منه. فقد قال محمد بن علي رضي الله عنه: "إن الله تعالى رضي الآباء للابناء من الخذرين فتعتيم وهم بوصمو بهم ولم يرض الأبناء للآباء فأوصامهم بهم وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى الحقوق وشر الآباء من دعاه البر إلى الأوقات، والأمهات أكثر إشتكاقا وأوفر حبا مباشرين من الولادة وغنتين من التربية فانهى أرق قلوبه وألما نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطش على أفكار إفرجاء لملئها وكفاءة لشفته وأن كان الله تعالى قد أشرك بينهما في البر وجمع بينهما في الوصية فقال تعالى: "وجبتنا الإنسان بالذين حسباء". وقد روى أن رجلا أتى النبي صلى الله
لا يحق للولد البصري

عليه وسلم فقال: إنّي أدركها عيني ورأيتها، ولا أعرف عنها وجوها، وأدراجها كسي، كيف جرت؟ قال: لا ولد شمر عدة، قال: لأنها كانت تخدمه، وهي تقلب حياتك وأنت تخدمها وتقلب موتها. وقال الحسن البصري: حق الوالد أعظم وعيه والودة أطيب. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنها كم عن عقوبة الأمهات وأولاد البنات ومنع وحات" وروى خالد بن معدان عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأماثكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب".

وأما المولودون فمن الأولاد وأولاد الأولاد والعرب تسمى ولد الوالد الصفاء وهي مختصوصة، ومن هذا الأحوال جلوكين: أحدهما لازم والآخر منتقل. فأما اللازم فهو الأنسية للآباء من تهجم أو خمول والأنفة في الأبناء في مقابلة الامتناع في الآباء وقد لحظ أبو تمام الطلاق هذا المعنى في شعره فقال:

 فأصبحت يلقان الزمان لأجله بإعتلام موارد وإشراق وارد.

وأما المنتقل فهو الادلاك وهو أول حال ولد والادلاك في الأبناء في مقابلة الحب، لأن الحب بالآباء أحسن والادلاك بالأبناء أحسن وقد روى عن عمر يرضي الله عنه أنه قال: "قلت يا رسول الله ما بابنا تقعن على أولادنا ولا يردن علينا؟ قال: أنا ولدنا وله صلى وله صلى، ثم الادلاك في الأبناء قد ينتقل مع الكبير إلى أحد أميرين. إما إلى البر والإعظام وإما إلى الحفاء والعقوب فإن كان الوالد رشيداً أو كان الأب يا عطوفاً صار الادلاك يرا وإعظاماً. وقد روى الزهرى عن عمرو بن شراحيل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله: انحق الوالد على الولد أن يشعع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الوصل من إذا قطعت رحمة وصلها
وإن كان الولد غاويًا أو كان والده جافًا صار الإدلالة قطيعة وعقوبة.
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أمرأ أبان وله على بره».
وبشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمولود فقال: ريحانة اسمها ثم هو عن قريب ولد بارز أو عدو ضار. وقد قيل في متثور الحكم: العقوبة نكل من لم يشكر. وقال بعض الحكاء: ابنك ريحانك سبعا وخدامك سبعاً
ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو عدو.

وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والأبناء فمن يرجع بتقصيب
أو رحم والذي يختصون به الحياة الباعثة على النصرة وهي أدنى رتبة
الأئمة لأن الأئمة تمنع من التهجم والحمل معا والحياة تمنع من التهجم.
وليس لها في كرامة الحمل نصيب إلا أن يقترن بها ما يبعث على الأئمة.
وحية المناسبين إذا تدعو إلى النصرة على البداء والأجانب وهي معرضة
لحسد الأدائي والأقارب موكولة إلى منافسة الصاحب بالصاحب فإن
حرصت بالتواصل والتلطف تأكدت أسبابها واقترن بنية النسب
مصافحة المودة وذلك أرك أسباب الأئمة. وقد قيل لبعض قريب: أيما
أحب الله أخوك أو صديبك قال: أما أحب الله أخوك وأصدقك قال: أخى إذا كان صديقا. وقال مسلم
ابن عبدالملك العيش في ثلاث: سعة المنزل وكثرة الخدمة وموافقة الأهل.
وقال بعض الحكاء: البعيد قريب بموته والقرب بعيد بعدي. وإن أهدمت
الحال بين المناسبين ثقة بلحمه النسب واعتيدا على حية القرابة غلب
عليه مقت الحسد أو منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة
بعدا. وقال الكئد في بعض رسالته: الأب رب والولد كذد والأخ نغ
والعم غم واللحال ووال والآقارب عقارب. وقال عبيد الله بن المعتر:
لحومهم لحي وهم يأكلون وما داهيات المرء إلا أقاربهم.
ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام وأثنت عليواصلها.
قال تعالى: «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويجشون ربهم».
ويخافون سوء الحساب، قال المفسرون: هي الرحمة التي أمر الله بوصولها ويخشون رؤهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها.

وروى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عن وجل أن الرحم وهي الرحمة أشتققت اسمها من اسم فن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته. وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"صلاة الرحمة ممتنعة لعدد مثارة لوالد صاحب في الأهل ممساة في الأجل.

و قال بعض الحكاء: بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجنوا بالعقوبات. وقال بعض البلاغة: صلوا أرحامكم فإنها لا تقبل عليها أصولكم ولا تهمم عليها فروحك. وقال بعض الأدباء: من لم يصلح لأهله لم يصلح للك ومن لم يذبح عنهم لم يذبح عنك. وقال بعض النصحاء: من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأيران. وقال محمد بن عبد الله الأزدي:

وحسبك من ذل وسوء صنيعة مناورة ذي القري وإن قيل قاطع ولكن أوسيعه وأنسي ذنوبي ترجمنه يوماً إلى الرواجع ولا يستوي في الحكم عيان:واصل وعبد الأرحام القرمزية قاطع (وأما المصاهر) وهي الثالث من أسباب الألفئة فإنها استحداث مواصلة وMexages مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعكدا عن خبرة وإيشار فاجتمع فيها أسباب الألفئة ومواد المظاهرة قال الله تعالى:

"ومن أيانه أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتستكروا إليها وجعل بينكم موعدة ورحمة" يعني بالمواد الحببة وبالرحمة الحزوة والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفئة. وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصري رحمه الله أن المواد الكحاء والرحمة الولد. وقال تعالى: "والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة" اختفى المفسرون في الحفيدة فقال عبد الله بن مستعود هم أخوان الرجل على بنائه وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. هم ولد الرجل وولد وله وروى عنه: أنهم بنو
امرأة الرجل من غيرها وسما حفدة لخافده في الخدمة وسرعتهم في العمل ومسح قوته في القنون واللبي نسبي وحذف أي نسرع إلى العمل بطاعتك. ولم تزل العرب تجذب البعد وتألف الأعداء المصاحبة حتى يرجع النافر مؤننا وينصير العدو مواليا. وقد يصير للصرع بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشائرتين. حكى عن خالد بن يزيد ابن معاوية أنه قال: كان أبغض خلق الله عزوجل إلى آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عزوجل إلى. وفيها يقول:
احب بن العوام طرفاً لأجلها ومن أجلها أحبت أخوالها كاباً
فان تسامى نسلم وان تنصري يخط رجل بين أعينه صبأ
والذى قيل: المرء على دين زوجه لما يستنزله الميل إليها من المتانة ويجتذبه الحب لما من المواقعة فلا يجد إلى الخلافة سبيلا ولا إلى الملاينة والمشاقة طريقاً. وإذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الألفة فقد ينبغي لعقدها أحد خمسة أوجه وهي: المال والجمال والدين والألفة والتفعف. وقد روى سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تكنك العمة لأربع من لما لها ولحماها ولحمها ولدينها فعليك بذات الدين ترتب يدلاك. "فكان عند النكاح لأجل المال وكان أقوى الدعاوى إليه فالمال إذن هو المنكوح فان أقرتب بذلك أحد الأسباب الباعثة على الانتلاف جاز أن يثبت العقد وتدوم الألفة فإن تجزد عن غيره من الأسباب وعري إما سواء من المواد فأخلق بالعقد أن ينحل بالألفة إن تزول ولا سيما إذا غلب الطعام وقل الوفاء لأن المال إن وصل إليه فقد يقضي سبب الألفة بيد فقيل: من ذلك لشيء ولي مع انتقاده وان أعوز الوصول إليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استنادية للآب بعد شدة الأمل فقدت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فروة والألفة عداوة
وقد قيل: من ذلك طمعا فيك أبضناك إذا أيس منك. وقال عبد الحميد:
من عظمك لاكتَراحت استقلك عند إخلالك فامت كان العقد رغبة
في الجمل فذلك أدوم للأائنة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال
صفة زائدة. ولذلك قيل: حسن الصورة أقتل السعادة. وقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعظم النساء بركة أحسنهن وجهها وأقلهن
مهرا" فان ساهمت الحال من الأدلال المفضي إلى الملل استدامت الألفة
واستحكت الوصلية وقد كانوا يكرهون الجمال البراع إما لم يحدث
عنه من شدة الأدلل وقد قيل: من بسطه الأدلل قضيه الأدلل
وإما لما يخفف من سعة الرغبة وبلوى المانعة وقد حكى أن رجلا
شأور حكما في التزوج فقال له: أفعل و إياك و الجمال البراع فإنه مريح
أنيق فقال الرجل: كيف ذلك? قال: كما قال الأول:
ولنتصادف مريعا مريعا أبدا الا وجدت به آثار منتجمع
وإما لما يخفف الليب من شدة الصولة و يقوقا الحجاز من سوء
عواقب الفتنة وقد قال بعض الحكاما: إياك و مخالطة النساء فإن لحظ
المرأة لهم ولنظها من. ورأى بعض الحكاما صادا يكتم امرأة فقال:
يا صادم أحذر أن تصاد. وقال سليمان بن داود عليه السلام لابنه:
امش وراء الأسد ولا تمش وراء المرأة. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله
عنها امرأة تقول هذا البيت:
إن النساء رياحين خلقن لكم وكلام يشتهى شم الرياحين
فقال رضي الله عنه:
إن النساء شياطين خلقن لنا نعود بانث من شر الشياطين
وإن كان العقد رغبة في الدين فهو أوثق العقود حالا وأدومها النية
وأمتها بدأ وعاقبة لأن طالب الدين متعه له ومن اتبع الدين اتفاد له
فاستقامت له حاله وأمن زلله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
فاظفر (1) بذات الدين تربت يدلك وفيه تأويلان: أحدهما تربت يدلك وإن لم تظهر بذات الدين. والثاني أنها كلاهما تذكر باللغة ولا يراد بها سوء كقوتهم: ما أنتبجع قائله الله. وإن كان العقد رغبة في الآلئة فهذا يكون على أحد وجهين إما أن يقصص به المكاءة بجنايات الفريقين والمخافرة بتناصر الفائتين وأما أن يقصص به تألف أعداء متسللين استكفاء لعادتهم ونسكنا لصولتهم وهذا الوجه قد يكونان في الأمثال وأهل المنازل ودعاي الوجه الأول هو الرغبة ودعاي الوجه الثاني هو الرحبة وهما سببان في غير المتناكين فان استدام السبب دامت الآلئة وإن زال السبب بزوال الرغبة والراءة خخف زوال الآلئة الا أن ينعم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها والمقررة لها. وإن كان العقد رغبة في التعنف فهو الوجه الحقيقي المبنغب بعقد النكاح وما سوى ذلك فأسباب معلقة عليه ومضايقة إليه. وروى عطية بن بشير عن عكفاء بن رفاعة الفلايلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: يا عكفاء: ألك زوجة؟ قال: لا قال: فأت إذن من إخوان الشياطين: إن كنت من رهبان التنصاري فلحق بهم وإن كنت من فن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على التعنف عن السعاد واعتعة على الكتاك بالأولاد. ولم هذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقائل من غزوه: «إذا أفضت إلى نسانكم فالكيس الكبير» يعني في طلب الوالد: فلزم حينئذ في عقد التعنف تحكم الاختيار فيه والقياس الأدوم من دواعيه ونوع نوع يمكن حصر شروطه وعنوان لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغيير شروطه. فإذا الشروط المحددة فيه فائدة التأليف: أحدها الدين المشتق إلى الستر والخفاف والمؤتقد إلى التسعة والكفاءات. قال أبو هريرة رضي الله عنه لا يفرق (2) مؤمن مؤمنة

(1) الذي تقدم فعليك بذات الدين وكلاهما مروى مصحح
(2) بالله وإياك ونذكرك أب لا يغض إذا في النهاية ونغيها ووقع في النسج المطبوعة قبل هذا لا يمنع وهو خطأ مصحح
لمثل هذه الحال نكاح البعداء الأجانب يرون أن ذلك أنجب للولد وأبيه للخلافة ويعتنون نكاح الأهل والأقارب ويرغونه مضايا بخلاق الولد بعيدا من نجاهه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: اغتر بوا ولا تضفوا. وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: بابي السائب قد ضَمَّيْتُ فانكحوا في الغربون. وقال الشاعر:

تتجاوزت بنت السهيل وهب حبيبة خفافة أن يضوئ على سلبي
وكانو حكاء المتقدمين يرون أن أنجب الأولاد خلقتا وخلقا من كان
سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين.
والعرب تقول: إن أولاد الغير لا ينجح وإن أنجب النساء الدروق وقالوا:
إن الرجل إذا أكره المرأة وهي مذعورة ثم أدرك أنجبت (والحالة الثانية)
أن يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا
وإن كان مختصا بعناية النساء ليس بألم حالي الزوجات لأنه قد يؤجور
أن يعاني نيرين من النساء ولذلك اقبل المرأة ريجانا وليست بقهرمانة
وليس في هذا القصد تأثير في دين ولا قدح في مروعة والأحمر في مثل هذا
الناس ذوات الأسنان والحنكة من قدحبين تدير المنازل وعرف وناوات
الرجل فاينهم أقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به
الاستثمار وهي أخذ الأنواح الثلاث وأوهنها للروعة لأنه يتفاديه
لأخلاقه البهيمية ويتبع شهوته الذكية. وقد قال الحرف بن النضر
الأزدي: شر الكحاح نكاح الضالة إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها
بالإضافه لما عند العلة أوتكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له
عينا لرية ولا نازعه نفس إلى بحور ولا يلحنها في ذلك ذم ولا يلاده وصم
وهو بالمجد أجزر والثناء أحق ولو تزده في مثل هذه الحال عن استبدال
الحزائر إلى الامام كان أكل البروة وأبلغ في صيانته. وهذه الحال تقول
على شهوات النفس لا يمكن أن يرجم فيها أولى الأمور وهي أخطر
الأحوال بالمنكوبة لأن للشهوات غايات متناهية يزول بزواها ما كان متعلقا بها فنصير الشهوة في البدء كرها في انتهاه ولذلك كرهت العرب البنات ووادتتهن إشفاقا عليها وحية لدن من أن يبتذلن اللثام.

بهذه الحال وكان من تحوّل من نقل البنات لرقة وحية كان موتهم أحب اليه وبأعمر عدد. وَلما خطبت الي عقيل بن عيلة بن عيلة ابنه الجرباء قال: إنها وإنسيق إلى المهل، ألف وعده ودود عشرة. أحب أصحابي القبر.

وقال عبد الله بن طاهر:

"لك أن بنت يرائم شؤونها ثلاث أصبار إذا حمد الصبر، فعمل يرائمها وحكم بكينها وفبر يواريها وأفضلها التيفر (فصل) وأمّا المواحة بالمودة وهي الرابع من أسباب الألفة فلا أنها تكسب بصادق الميل إخلاصا ومصفافاة وتحت بخلوص المصارفة وفاء ومحاماه. وهذا أعلى مراتب الألفة ولذلك آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بن أصحابه لتزيد ألقهم وينوى تضافرهم وتناصرهم. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عليكم بالخوان الصدق، فإنهم زينة في رخاء وعنصمة في البلاء" وروى أبو الزياب عن سهيل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "الماء كثير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له" وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقاء الخوان جلاء الأحزان. وقال خالد بن صفوان: "إن أغف الناس من قصر في طلب الخوان وأغفر منه من ضيع من ظهر به منه. وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن باقي الغريب من ليس له حبيب. وقال ابن المعتز: من أخذ إخوانا كانوا له أعيان. وقال بعض الأدباء: أفضل الذخائر أخ و في وقال بعض البلغاء: صديق مساعد عضد وساعد. وقال بعض الشعراء:

هموم رجال في أمور كثيرة وهي من الدنيا صديق مساعد

نكون كروج بين جسمين قسمت بسهامها جبين والروح واحد"
ولقيل: إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه والعدوة عدوه لعدوه عليك.
وقال ثالث: إنما سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خلاة إلا ملائته. وأنشد الراشدي قول بشار:
قد تخللت مشلك الروح منه. وسما الخليل خليلاً
المواحاة في الناس قد تكون على وجهين: أحدهما أخوة مكتسبة
بالاتفاق الحاوري مجري الاضطرار. والثانية مكتسبة بالقصد والاستياء.
فأما المكتسبة بالاتفاق فهي أو كحالا لأنها تتعدى عن أسباب تعود إليها
والمكتسبة بالقصد تعود لها أسباب تتفادى إليها وما كان جارياً بالطبع
فهو ألم مهماً هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الأول المكتسب
بالاتفاق ثم نعقب بالوجه الثاني المكتسب بالقصد. أما المكتسب
بالاتفاق فله أسباب نبتئ بها. ثم ننقل في غاية أحواله المحذزة إلى
سبع مراتب ربما است关于我们 وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة
من ذلك حكم خاص وسبب موجب. قال الشاعر:
ما هو إلا له سبب يبتدي منه وينشب
فأول أسباب الآخاء التجانس في حال يجتمعان فيها وياتلفان بها.
فإن قوى التجانس قوي الالتفاف به وان ضعف كانت ضعيفة لم
تحدث إلا أخرين يقوى بها الالتفاف. وإنما كان كذلك لأن الالتفاف
بالتشاكل بالتراضي بين التجانس. فإذا عدم التجانس برس وبه انتهى
التشاكل من كل وجه. ومع انتهائه التشاكك يندم الالتفاف. وثبت أن
التجانس وان تنوع أصل الآخاء وقاعدة الالتفاف. وقد روى يحيى
ابن سعيد عن عمر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال: "الأرواح جنود مجزية فمن تحارف منها اعتنف وما تناكر
منها اختلاف" وهذا واضح وهو بالتجانس متناوبة وبقده متناكرة.
وقيل في منشور الحكم: الأضداد لا تنفق والأشكال لا تفرق. وقال
لأبي الحسن البصري

بعض الحكاءاء: بحسن تشاكل الاتحاذ يلبث التواصل. ولبعضهم:
 فلا تتجاوز نفسك وأنت خليلها فكل أمرئ يصرب إلى منيشاكل
وقال آخر:
قالت: أخى قالوا: أخ من قرابة فقات لهم: إن الشكول أقرب
نسبى في رأى وعزى وهدى وإن فرقنا في الأصول المناسب
ثم يحدث بالتجانس الموافقة بين المتجانسين وهي المرتبة الثانية من
مراتب الأخاء وسبب الموافقة بينهما وجود الاتفاق منها فصارت
الموافقة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لأن عدم الاتفاق
منفر. وقد قال الشاعر:

الناس ان وافقهم عذبوا أولانا جنائم ماز
كم من رياض لا ينسى بها تتكرت لأن طريقها وعبر
ثم يحدث عن الموافقة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن
المؤاسة رتبة رابعة وهي المصافحة وسببها خلوص النية وربطة خامسة
وهي الموادة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الأخاء
وما قبلها أسباب تعود إليها فان اقترز بها المعاصفة فهي الصداقة
ثم يحدث عن الموادة رتبة سادسة وهي المحبة وسببها الاستحسان فان
كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهي الاعظام
وإن كان الاستحسان للصورة والمركبات حدثت رتبة ثامنة وهي
العشق وسببه الطعام. وقد قال الداعوم رحمه الله تعالى:

أول العشق مزاح وولع ثم يزداد إذا زاد الطعام
كل من يهوى وإن عالت به رتبة الملك لمن يهوى تبع.
وهذه الرتبة آخراترتب المحدودة وليس لها جاوزها رتبة مقدرة وللاحالة
محدودة لأنها قد تؤدى إلى ماجازة النفس وان تمهلت ذواتها وتفضى إلى
مالطة الأرواح وإن تفارقت أجسامها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها
ولا الوقوف عند نهايتها. وقد قال الكندي: الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك. ومثل هذا القول المروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضا وكتب له بكتاب وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتي طلحة بكتابه إلى عمر ليخرجمه فامتنع عليه فرجع طلحة من غضبا إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال: والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: بل عمر لكنه أنا. وأما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو إلى وئام يبعث عليها وقد يكون الداعي إليها من وجهين رغبة وفائقة فآمر الرغبة فهي أن ظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ويساهم بجعل يدعو إلى اصطفائه وهذه الحالة أقوى من التي بعدها ظهور الصفات المطلوبة من غير تكاف لطلبها وإما يخاف عليها من الاعتراف بالتضمن هذا ليس كل من أظهر الخير كان من أهل ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكفل للشيء مناف له إلا أن يدوم عليه مستحسنا له في العقل أو متدايا به في الشرع فيصير مطيعا به لا مطبوعا عليه لأنه قد تقدم من كلام الحكاء ليس في الطبع أن يكون ماليس في التطبيق. ثم تكون من المتعذر أن تكون أخلاقه الفاضل كاملة بالطبع وإذا الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطوع الجارى بالعامة شرى الطبع حتى يصير ما تطاع به في العادة أغلب عليه مما كان مطلوبا عليه إذا خالف العادة ولذلك قيل: العادة طبع ثان. وقال ابن الرومي رحمه الله:

وأعلم بأن الناس من طينة يصدق في التلب لها التائب
ولولا علاج الناس اخلائهم إذن لفاخ الحما اللازم
وأما الفاقة فهي أن يفتقر الإنسان لوحشة افتراده ومهمة وحده
إلى اصطفاء من يناسب بمواحاته ويثق بنصرته وموالاته. وقد قالت الحكاء: من لم يرغب في ثلاث بل بست: من لم يرغب في الأخوان
لأبي الحسن البصري

بل بالعدوة والخدلا، ومن لم يرغب في السلامة بل بالشدايد والامتنان.
ومن لم يرغب في المعروف بل بالندامة والخسرا، ولعمري إن إخوان
الصدق من أنفس الذلخات وأفضل العدد لأنهم سماهم النفوس وأولىاء
النوائب. وقد قالت الحكاء: رحب صدقي أود من شقيق، وقيل لمماراة:
أيما أحب اليو؟ قال: صدقي يحبني إلى الناس. وقال ابن المعتز:
القرب بعدا ولا وعند البعيد عموده قريب. وقال الشاعر:
لموته من يحبك مخلصاً خير من الرحم القريب الكاشخ.
وقال آخر:
يخونك ذو القربي مراراً وربما وفيك عند العهد من لاناسبه.
فأذا عزم على استفادة الأخوان سبب احواهم قبل إخائهم وكشف
عن أخلاقهم قبل استفداهم لما تقدم من قول الحكاء: اسمه تخبر ولائعته
الوحدة على القدام قبل الخبرة ولا حسن ظن على الاعترار بالتصنع
فان الملحق مصادع العقول والتلفاق تديس الفئن، وهم سجيناً المتصنع
وليس فين يكون التلفاق والملحق بعض سجيناً خير يرجى ولا صلاح
يؤمل ولاجل ذلك قالت الحكاء: أعرف الرجل من فعله لا من كلامه
واعرف محبته من عيته لا من لسانه. وقال خالد بن صنوان: إذا تفتت
عند إخوان لأرى لم استعمل معهم التفاقي ولا قصرت بهم عن
الاستحاق، وقال حداد:
كم من أخ لك ليس تذكرته
منصع لك في مودته
فأذا عدا والده ذو غير
فارفض بأجنال مودة من
وعليه من حالاه واحدة
على أن الإنسان موسوم بسيا من قارب ومنسوب إليه آناعيل

ما دمت في دنياك فبسر
يلقينا بالترحيب والبشر
دهر عليل عدا مع الدهر
يرقل المقل ويعشق المترى
في العصر إما كنت واليبر

143
من صاحب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب"
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "صاحب مناسب". وقال
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان
على النار من الصاحب على الصاحب". وقال بعض الحكاء: "أعرف
أخلاك بأنه قبلك". وقال بعض الآباء: "يظن المرء ما يظن بقريته".
وقال العامة بن زيد:
عن المرء لاتسال وسل عن قريته فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فيقوم فصاحب خيارهم ولاصحب الأردى فتردى مع الردى
فلزم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء أهل السوء ويجنب
أهل الربب ليكون موفر العرض سليم الغيب فلا يلام بعلم غيب
وهذا قول: "أنبت الارضية ومداومة الاختبار والابتلاع متعاون
بل مفقود. وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالملة فيمن حسن ظاهره
وختب بابتنه فقال:
ألم ترون المساء يختب طمعه وإن كان له الود أبيض صافيا
وتنشر بعض الحكاء إلى رجل سوء حسن الوجه فقال: أما البيت
فحسن وأما الساكن فردى فأخذ بحيحه هذا المنى فقال:
رب ما أبين النبائين فيه منزل عامر وعقل حراب
وأنشدى بعض أهل العلم:
لا ترككن إلى ذي منظر حسن فرب راهعة قد ساء شعبها
ما كل أصرف دينار لصرفها صفر العقارب أرداها وأتكرها
ثم قد تقدم من قول الحكاء: من لم يقدم الامتحان قيل الثقة والثقة
نبل الأنس أمكرت موتته ندما. وقال بعض البلاغاء: مصارفة قيل اختبار
فضل من مؤاخاة على اعتبار. وقال بعض الآباء: لا نقى بالصديق
بل الخبرة ولا تقع بالعدو قبل القدرة. وقال بعض الشعراء:
لا تَنْتَبِحُنَّ أَمْراً حَتَّى تِجَرِبْهَا وَلا تَذْفُنَّهَا مَنْ غَيْرَ تِجْرِيبٍ
فَمَدْكِ الدَّمَرُ مَا لَمْ تَبْنِهَا أَخَذَهَا وَذُكْ نَرْهَ بَعْدَ الْحَدَدِ تُكْنِبَنَّ
فَأَذَنَّ قَدْ لَمَّنْ مِنْ هَذِهِ الْوَجْهَيْنِ سِبْرُ الْاَخْوَانِ قَبْلَ إِخْتِيَّاهُمْ وَخَبْرَةً
أَخْلاَقِهِمْ قَبْلَ اصْطُفَافِهِمْ فَالْحَصَالَ الْمَعْتَبَرَةِ فِي إِخْتِيَّاهُمْ بَعْدَ الْمِجَانِسَةِ الْيَنِينِ
هَيَّ أَصْلَ الْالْتَنَافِقِ أَرْبَعَ حَصَالٌ
(فَالْحَصَالَ الْأَوَّلِ) عَقْلُ مُوْفَرٌ يَهِدَى إِلَى مَرَاشِدِ الْأَمْوَارِ فَانَّ الْحَقَّ
لَا تَتَبْنِحُ مَعْهُ مَوْدَةً وَلَا تَدُومُ إِصْحَابِهِ إِسْتَقَامَةً. وَقَدْ رَوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ:ُ «الْبَدَّاءُ لَوْمَآ وَصْحِبَةُ الْأَحْقَاقِ شَكْٰمٌ» وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ: عَدَادَةُ الْعَاقِلِ أَقْلُ ضَرْرًا مِنْ مَوْدَةِ الْأَحْقَاقِ لَانَّ الأَحْقَاقَ رَبِّي ضَرْرٌ
وَهُوَ يَقْدَرُ أَنْ يَنْتَجِعُ وَالْعَاقِلُ لا يَتَجاَوِزُ الْحَلْدَةَ فِي مُقْصُوَرَتِهِ تَمْضِرِهِ لَمْ حَاَدَ. يُتَفَّقُ عَلَيْهِ الْعَقْلُ وَمَضْرِةُ الْجَاهِلِ لَيْسَتْ بِذَا دَةٍ وَالْمَعْدُودُ أَقْلُ ضَرْرًا مَّمَا
هُوَ غَيْرُ مَعْدُودٍ. وَقَالَ الْمُنْصُورُ لِلسِّيْبِ بِنْ زَهْيِرٍ: مَا مَادَةُ الْعَقْلُ قَانِلُ: مَجَالِسَةُ الْعَقْلِاءِ. وَقَالَ بَعْضُ الْبَلْقَاءِ: مِنْ الْجَاهِلِ قَصَبَةٌ ذُوَّا الْجَهْلِ وَمِنْ المَجَاَلِ قَصَبَةٌ ذُوَّا الْجَهْلِ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَوْلَاءِ مِنْ آثَّارٍ عَلَى بِصْطَنَعِ
جَاهِلٍ وَعَاجِزٍ لَمْ يَنْجِلَ أَنْ يَكُونَ صَدِيقًا جَاهِلًا وَأَعَدَّاء عَاقِلًا لَأَنَّهُ يُشَيْرُ
بِمَا يُصَرِّكَ وَيَجْتَلِفُ فِيَّ يُصِبُّ مَنْكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْشَّعَرَاءِ:
إِذَا مَا كَتَبْتَ مَنْتَخَذَا خْلِيَّةً فَإِلَّا تَتَنَقَّنَّ بَكِلٍ أَخْيَاءٍ
فَانْخْرَطْتُ بَيْنَ الْأَخْوَانِ فَالْقَصَّ نِهَّتُ إِخْوَانِي وَالْحَيَاءُ
فَانَ العَقْلُ لَيْسَ لِهَا إِذَا مَا تَنْفَضَتْ الفَضْلَاَيْنِ مِنْهُ
(فَالْحَصَالَ الْثَّانِيَةِ) الْذِينَ الْوَاقِفِ بِصَاحِبِهِ عَلَى الْحِيَاتِ فَإِذَا تَارَكَ
الْذِينَ عَدَّلُوْنَ لَنفْسِهِ شَكَّ لَهُ مَوْدَةً غَيْرَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ:
اصْطُفَفَ مِنَ الْاَخْوَانِ ذا الْذِينَ الْحِيَابُ وَالْحَسْبُ وَالْأَدْبُ فَأَنْفَهُ رَدَّهُ لَكَ
عَنْدَ حَاجَّتِكَ وَيَدَٰ عَنْدَ ثَانِيِتِكَ وَانْسَ عَنْدَ وَحْشِتِكَ وَزِينَ عَنْدَ عَافِيِتِكَ;
وَقَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
أخلاة الرخاء هم كهرب، ولكن في البلاء هم قليل
فلا يغررك خُلْتِه من تُؤاهي، وقل أَخ يَقُول انا وقَد
ولكن ليس يفعل ما يقول سوى خُل له حسب ودين، فذاك لما يقول هو الفعال.
وقال آخر:
من لم تكل في الله خُلته خَلَيّه منه على خطر
(وَالفَحْلَةُ الثَّانِيَةُ) أن يكون محمود الأخلاق مرضى الفعال مؤثرا
للفير أنها كارها للشر ناهية عنه. فإن مُودة الشرير تكسب العداء
وتفتَد الأخلاق ولا خير في مودة تجلب عدادة وتورث مدامة وملامنة.
فان المبتوب تابع صاحبها، وقال عبد الله بن المعتز: إخوان الشر كشجر
النار يجب بعضا. وقال بعض الحكاء: مخاطبة الأشرار على خطر
والمصير على صحتهم كركوب البحر الذي من سلم منه ببدنه من التلف
في لم يسلم ببده من الخضر منه. وقال بعض البلاغاء: صحة الأشرار
تورث سوء الظن بالأخيار، وقال بعض البلاغاء: من خبر الاختيار صحة
الأخيار ومن شر الاختيار صحة الأشرار، وقال بعض الشعراء:
جَمِيَّة السَئمة سفَأة رأي، ومن عقل مجلسة الحكيم
فان الكوارن عسا سواء كما قد الأديم من الأديم
(والفَحْلَةُ الرابعة) أن يكون من كل واحد منهما ميل إلى صاحبته
وربضة في مؤاخذهما. فإن ذلك أوكد لحالة المؤاخه وأمد لأسباب
المصافاه إذ ليس كل مطلوب إليه طالب ولا كل مرغب إليه راغب.
ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب إلى زاهد فيه كان مُعنى خائبة.
كما قال الباحر:
وطلب منك مودة لم أعطها إني المَعنى طالب لا يظفر
وقال العباس بن الأحنف:
فان كان لا يذننك الا شفاعة فلا خير في وذ يكون بشافع وأقسم ما تركي عتاك عن قلتي ولكن لعلى أنه غير نافي وإلى أذا لم أزل الصبر طائعا فلا بد منه مكرها غير طائع فذا استكللت هذه الخصال في إنسان وجب إخاؤه وتعين اصطفاؤه ويبسوب وفوره فيه يجب أن يكون الميل إليه والثقة به وحسب ما يرى من غلبة إحداه علييه يجعل مستعملا في الخلق الغالب عليه فان الأخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متعدبة وكل واحد منهم حال يختص بها في المشاركة وثمة يستها في الموازنة والمتزامرة وليس تنفق أحوال جميعهم على حد واحد لأن التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيام ظاهر وقال بعض الحكاء: الرجال كالشجر شرا به واحد وثمره مختلف فأخذ هذا المعنى منصور بن إسماعيل فقال:

بني آدم حكالنت ونلت الأرض ألون
فهيم شجر المصند ل والكافور واليسان
ورمنهم شجر أفضل ل ما يجمال قطران
ومن رام إخوانا تنفق أحوال جميعهم رام معذرا بل لأتفقوا لكنهم رمبا وقع به خال في نظامه إذ ليس الواحد من الأخوان يمكن الاستعانة به في كل حال ولا الجوابون على أنطلق الواحد يمكن أن يتصرفا في جميع الأعمال وإنما بالاختلاف يكون الاختلاف. وقد قال بعض الحكاء: ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدأ وقال الأمون: الأخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغني عنه وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحيانا وطبقة كالذاء لا يحتاج إليه أبدا، ولعمري إن الناس على ما وصفهم ولكن ليس من كان منهم كالذاء من الأخوان المعذرون بل هم من الأعداء المعذرين وإنما يداهن المودة استكفاها لشرهم وثورا من مكائفهم فدخلوا في عداو
الأخوان بالإعراضة والمساترة وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهدة. قال بعض الحكّاء: مثل العدوّ الضاحك الليك كالفتاه الحيرة أوراقها القاتل مذاقاً. وقد قيل في محور الحكم: لا تتصر بمقاربة العدوّ فانه كالملاء الذي ان أطيب إسطعاته بالرسال لم يمنع من إطاعتها. وقال يزيد ابن الحكم الثقفي:

تحكاري ضحك كان ناصح. وعينك تردي أن تصدروني دويري لسانك مصغري ونفك عقلك وشرك مسوب وخيرك ملون فليب كنافتك كانت خبرك كله. وشرك عن ما رأو الماء من نو. فإذا نحر من كان كالداي من عداد الأخوان فالاخوان هم الصنفين الآخران من كان منهم كاللهديا أو كالداي لنغذاء قوم للنفس وحياتها والدفاع علاجها وصالحها وأفضلها من كان كاللهديا لأن الحاجة إليه أعم. فإذا تميز الأخوان وجب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله إليه واستنكرت خصائصه وخلاله عليه في قويت أسبابه فويت الثقة به وحسب الثقة به يكون الركن إليه والتوأيل عليه. وقال الشاعر:

متأت بالسبب الضعيف وإنما ننجع الأمور بقوة الأسباب. فاليوم حاجتنا فيه كإذا يدعى الطبيب لشدة الأوصاب.

الجوهر، وقال عمر بن العاص: من كثر إخوانه كثر غرامه، وقال
أبراهيم بن العاص: مثل الأخوان كالساق قليله متاع وكثيرها بوار.
ولقد أحسن ابن الرومي في هذا الدعوى فنبركة على العلة حيث يقول:
قد يكون من صديقك مستفاد، فلا تستكره من الصحاب.
والإله أحكم ما تراه ودع عنه الكثير فكم كثير يعاف وإلى قليل مستطاب.
فماعجب المسللاح بوريات ولئن الريح في النطف الذهاب.
وقال بقص البلاغة: ليكن غرضاً في اتخاذ الأخوان واصطعاً
النصحاء تكثير العبادة لتكثير العبادة وتحصيل الفنع لا تحصيل الجمع.
فواحد يحصل به المراد خير من ألف تكثير الأعداد.
وإذا كان التجانس والنشا كل من قواعد الأخوة وأسباب الموقد كان
وفرع العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة إخوته لأنه توم
مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل أقل من أضداده
من ذوى الخبر وأمثاله لأن الجبار في كل جنس هو الأقل فذللك
قل وفرع العقل والفضل. وقد قال القائل: إن الذين يندونك من وراء
المجرات أكثرهم لا يعفون، قال: بهذا التعاليم إنه أحل الفضل لقتلهم
وكثير إخوان ذوي النقص والجهل لكتبرهم. وقد قال في ذلك الشاعر:
لكل أمير شكل من الناس مثله فأكثرهم شكلاً أقلهم عقلًا.
وكل أسس آلهوم وشكاله وأكثرهم عقلًا أقلهم شكلاً.
لأن كثير العقل ليست بوجه له في طريق حين يسلكه مثله.
وكل سفهه طاش ابتقدته وجدت له في كل ناحية عدلاً.
وإذا كان الأمر على ماوصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل في عدد
الإخوان أربعة أقسام: منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين
ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين.
فأما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويسعى ما له
فهو كالمرض يعفو عند الحاجة ويستระยะ عند الاستغناء وهو مشكور
في معونته ومعدور في استعانته فهذا أعدل الاخوان، وأما من لا يستعين
ولا يستمع فهو متزول قد منع خبره وقع شره فهو لا صديق برجي
ولا عدو يخشى. وقد قال المنيرة بن شعبة رضي الله عنه: الشارك
للأخوان متزول وإذ كاتب كذلك فهو كالصورة لمثله بروق حسنها
ويغفوك نفعها فلا هو مدموم لقمع شره ولا هو مشكور لمع خيره
وإن كان باللمج أقدر. وقد قال الشاعر:

وأمسوا أيام الفتق يوم لا يرى
له أحد يزرى عليه وينكر
غير أن فساد الوقت وتفشير أهله يوجب شكر من كان شرته مقطوعا
وإن كان خيره ممنوعا كما قال المنيري:

إذا لقي زمن ترك القبح به
من أكثر الناس إحسان وإجمال
وإما من يستعين ولا يعين فهو ليس لهم كل وهمين مستدل قد قطع عنه
الرغبة وسط فيه الوعمة فلا خيره يرجي ولا شرته يؤمن وحسبه همائه
من رجل مستدل عند إقلاه. وليستقل عند استقلاله فليس لمثله
في الأخلاص حظ ولا في الوداد نصيب وهو من جعله الأمون من داء
الأخوان لا من دوامهم ومن سمهم لا من غذائهم. وقال بعض الحكماء:
شرته ما في الكوير أن ينعن خيره وخير ما في اللمج أن يكشف عن علك شرته
و قال ابن الرومي:

عذرا النجح في إبدا شوق
يرت به الأمل عن جناته
فنا للعوجا الملون أبدى
ناشوفنا بلا نمر نراه؟
وأما من بين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز
فضائل الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا في نائبة ولا يجد عن نهضة
في معونة هذا أشرف الأخوان نسنا وأكرهم طبعا فينفي من أوجد
لابي الحسن البصري

له الزمان مثله (وقل أن يكون له مثل لأنه البر الكريم والدر البشيم)
أن يبقى عليه خالصه ويعض عليه بناءه ويوكل به أشده ضنا منه
بمسائل أمواله وسني ذخائره لان نفع الأخوان عام ووقع المال خاص
ومن كان أعم نعا فهو بالاختار أحق.

وقال الفردوق:

يمضي أخوك فلا تلق له خلقا.

واللمل بعد ذهب المال مكتسب.

وقال آخر

كل شيء عدمته عوضاً.

وما لفت الصديق من عوض

ثم لا ينبغي ان يشهد فيه شاق أو خلقين يكرهما منه اذا رذي سائر
أخلائه وجد أكثر شيه لأن اليسير مغدور والكالا معيوز.

وقال الكندى:
كيف ترك من صديق خلقا واحدا وهو ذو طبع أربع?
مع أن نفس الإنسان التي هي أخص النفوس به ومدربة باختياره وذرادته
لا تعطي قيادها في كل ما يريد ولا تجبره إلى طاعته في كل ما يجب
فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثر؟

وقال أبو الودراء رضي الله عنه: معاناة الأخ خير من فقده ومن لك بأخيك

كله؟ فأخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية:

أنت من لك من في الدنيا بكل أخيك من لك؟
فاستبق بعضك لا يملك كل من لم تعمه كلا؟

وقال أبو تمام الطائي:

ما民居 الم غبون مشال عقله من لك يوما بأخيك كله؟

وقال بعض الحكاية:
طلب الانصار من قلة الانصار.
وقال بعض البلاغة:
لا يهدتك في رجل حبد سيرته وارضت وترته وعرفت
فضله وطمن عقله عيب خني.
تحيط به كثرة كالضياله أو ذنب صغير
تستغفر له قوة وسائله فانك لن تشغ حبيت مهذبا لا يكون فيه عيب
ولا يقع منبه ذنب فاعتبر بنفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا ولا تجري
فيها على حكم الموئام في اعتبارك بها واختبارك لها ما يوحيك مما تطلب ويعطلك على من يذنب وقد قال الشاعر:
ومن ذلك الذي يرضي سحابة كلها. كيف المرء نبأ أن تعد معايي؟
وقال النابغة الدبياني:
وأنت مستقبأ أخا لا تامس على شعب أي الرجال المذهب؟
وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختياره واختبار الخصال الأربع فيه لأن ما أعوز فيه معقوه عنه وهذا لا ينبغي أن توحيك فترة تجدها منه ولا أن تسيء الظن في كبوة تكون منه لم تحقق تنيره وتبقت تتكره. وليريهم ذلك إلى فترات النفس واستراحات الحواطر فإن الإنسان قد يتغير عن مراعة نفسه التي هي أخص النفس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا مال منها. وقد قيل في منشور الحكم:
لا ينسدلك الظن على صديق قد أصلحه اليقين له. وقال جعفر ابن محمد ابنه: يا بني من غضب من إخوائي ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءا فاتخذت نفسك خلا. وقال الحسن بن وهب: من حقوق المودة أخذ عن الأخوان والاغضاء عن تقصير إن كان. وقد روى عن على رضى الله عنه في قوله تعالى: «فاصحف الصحف الجميل» قال: الرضا بغير عناب. وقال ابن الرومي:
هم الناس والدنيا ولابد من قذى مهرجبا
ومن قلة الأنصاف أنت تنفيث المذهب في الدنيا ولست المذهبba
وقال بعض الشعراء:
ولكن هجمنا مطر الربيع
نواصلنا على الأيام باق
ولا يروك صوبيه لكن تراه
على علاته داني الشروع
معاذ الله أنب لقى غضابة
سوى دل المطاع على المطيع
وأنشدنا الأردي:
لأتي ينكر من صديق نبأ
ينب القلق وهو الحواد الخضرم
فأذا نسي فاستقبه وآثه حتى نفي به وطبع بك أكرم
وأما السلول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطير
واخفه غير لأنه لا يبقى على حاله ولا يغفو عن استحاله.
وقد قال 
ابن الرومي:

أنا أنت عاببت السلول فانها تخط على صحفي من المساء أحرا
وهبه اروعو بعدةتاع السلاك ولم ينك موته طبضا فصارت تكلما
وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود ان المعهد من
إخاته فهذا أسلم المليون وأقرب الرجلين ينبع في وقت استراحته
وحين قرته ليرفع إلى الحسنى ويشوب إلى الالحة وإن تقدم المثيل بمسا
نظام الشاعر حيث قال:

وقالوا: يعوداللهاء في النهر بعدم عنتم به آثار وجوته مشارعه
فقلت: إلى أن يرجع الالى عائدا ويعثب شظاه تموت ضدادهع
لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يصغ في عرمة بالطوبون.
وقال الشاعر:

أنا ماحال عهد أختي يوما
وداع عن الطريق المستقيم
فلا تجعل بلومك واستدمنه
فان أخا الحفاظ المستقيم
فان تلك زلة من حلا وثلا
فلا تبعد عن الخلق الكريم
ومنهم من يكون ملله تكرا وطراحا وليرجع إخاه ولا وذا ولا يتذكر
حناظه ولا عهدة كا قال أشيح بن عمرو السايم:

إلى رأيت لها مواصلة كالسم تفرعه على الشهد
فذا أخذت بهدى دمته لعب الصدود بذلك العهد
وها أدم الرجلين حالا لأن مودته من وساوس الخطرات وعوارض
الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المفالة
وحسن المناكهة بعد الورطة كا قال العباس بن الأحنف:
تداركت نفسي فعريتها وغضبت في سلك آمالها ووقعت النفس عن سلوا ولكن حلت عليها هذا وما مثل من هذه حاله إلا كما قد قال إبراهيم بن هزيمة:
فانك وآطرحك وصل سلوا الأخرى في مودتها تكوب كاذبة حلي مستعار لأذنها فشانها التقوب فادت حلي جارتها إليها وقد قبعت بذرنيها ندوب.

وإذا صفت له أخلاقه من سيره وتمهدت لديه أحواله من خبره وأقدم على اصطلاحه أخا وعلى أخاها سردها خدما لزمنه حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرمته وقيل عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الاحفاء لا عبودية الإق وقيل بعض الحكايا من جاد لك بموته فقد جعلك عديفس نفسه فآول حقوقه اعتقاد مودته ثم إنيسه بالانبساط إليه في غير محى ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخنف الأقال عنه ثم معاوته فيها ينوه من حادة أو يناله من نكبة فإن مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لثم وقد قيل: يارسول الله أى الأصحاب خير قال: ابذا إذا ذكرت أعلم وواساك وخير منه من انا نسيت ذكرك، وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: خير إخوانك من واساك وخير منه من كافاك، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: اللهم إني أعوذ بك من لا يئتمس خالص مودتي إلا موقعة شهوتي ومن ساعدني على سرور سعتي ولا يفكري حوادث غدى. وقال بعض البلغاء: عقود الغادر محله وعهوده مدحوله. وقال بعض البلغاء: ما وذك من أهيل وذاك ولا أحبك من أبغض حبك. وقال بعض الشعراء:

وكل أغت عند الموتى ملاطف ولكنها الإخوان عند الشدائد.

وقال صالح بن عبد القادر: شر الأخوان من كانت مودته مع الزمان اذا أقبل فإذا أدبر الزمان أدرعرك فأخذ هذا المعنى الشاعر قال:
لأبي الحسن البصري

شر الأخلاء من كانت موتته مع الزمان إذا ما خاف أو رغبا،
اذا ورتت أمه فاحذر عداوته من زرع الشوك لا يمصد به عنيا،
إن العدو وإن أبدى مسالمه إذا رأى منها يوما فرصة وثباً
و ينبغي أن يتوقف الافراط في معبته فان الافراط داع إلى التقصير.
ولأن تكون الحال بينهما ناميه أولى من أن تكون متاهيه.
وقد روى ابن سيرين عن أبي مقررة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
أحبب حبيبك هو أ ما على أ طب يكون بيضك يومما وأبغض
غ/php، هو أ ما على أ ن تكون حبيبك يومما » . وقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه : لا ين حب كلفا ولا يغضن تلمفاً.
وقال أبو الأسود الدؤل :

وكان معدل الغدير وأستحتج على الأدعم، فانك راء ما عمات وساعم
وأحببذا أحببت حنا مقارباً فقد لا تدرك مث أ نازع
وأبغضاذ أبغضت عين من عين
وقال عدن بن يزيد :

لا نأمن من مبغض قرب داره ولا من محب أن يمل فيمداً
وإنا بلزم من حق الإهاء بذل الجهود في النصح والتحا في رعية ما بينهما من الحق فليس في ذلك إفراط وإن تسارى ولا مجاورة حد
وإن أكثر أوقى قستوى حالاهما في المغيب والمشهد ولا يكون مغيبهما أفضل من مشدهما وأولى فان فضل المشهد على المغيب اوم وفضل
المغيب على المشهد كرم واستوأهما حفاظ . وقال بعض الشعراء :
على لا خوان في قرب من الصفا تيد الليالى، وهو ليس يزيد
يذكرونهم في مغيب ومشهد، فسياط منهم غائب وتميد
وإلى لأستحي أخى أن أجره قريب وأ أن أقفوه وهو بعيد
وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيته غير مقتل ولا مكثر فان
تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرة سبب الملال . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه: يا أبا هريرة "زرع غبا تزدده حبا"
وقال ليث:
توقف عن زيارتك كل يوم، إذا أُكثرت ملك من تزور
وقال آخر:
أقل زيارتك الصديق ولا تطل هجرات فبلغ في هجراته
إذا الصديق يبلغ في غشيته، لصديقه فتحمل من غشيته
حتى يراه بعد طول سروه بمكانه متناقلًا بمكانه
وأذا توانى عن صيانته نفسه رجل تخصص واستخف به شأنه
وبحسب ذلك فيك فبلك في عتابه فات كثرة العتاب سبب للقطيعة
واطراه جميعه دليل على قلة الاكتشاف بأمر الصديق وقد قيل: علة
المعاداة قلة المبالاة بل تنقسم حالات تترك وعابه فيساق بالمشاركة
ويستمر فالمعرفة فان المساحة والاستصراح إذا اجتمعنا لم ينبث
معهما نفور ولم يلق معهما وجد . وقد قال بعض الحكاءاء: لا تكثرن
معانيتكم إخوةكم فيهم سكتكم . وقال منصور النمري:
أقل عتاب من استرت بكده ليست شال مودة بعبطاب
وقال بشار بدر:
إذا كنت في كل الأمور معتابا، صديقك لم تلق الذي لا تعانيه
وإنما لم تقرب مرارة على القذى. ظميت وأي الناس تصنف ومشاربه؟
فغش واحدا أوصل أخاه فانه: مقناع ذنب مرة ومجنبه
ثم من حق الاخوان أن تغفر هفوهم وسترزتهم لأن من رام بريثا
من الهنوات سليما من الزلات رام أمرا معوزا واقتراح وصفا معجزا
وقد قالت الحكاءاء: أي عالم لا ينفوؤاي صارم لا ينبو وأي جوا لا يكبو؟
وقالوا: من حاول صديقا يأمن زنه ويدهم اعتباطه به كان كضال الطريق
الذي لا يزداد لنفسه إقعا، إلا ازداد من غايته بعداً، وقيل نفاد
ابن صفوان، أي إخوانك أحب الله، قال: من غفر زلى وقطع على
وبلغنى أملًا، وقال بعض الشعراء:
ما كادت أنفعت عن أني ثقة، إلا ندمت عواقب النحس
وأنشدت عن الربيع للمشاعر رضى الله عنه:
أحب من الأخوان كل مواقي، وكل غضيض الطرف عن عرائ
يوفقني في كل أمر أريده، ويخفظني حياً، ويعهد وفائي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته، فقاشهما مالي من الحسان؟
تصفحت إخوانى وكان أقلمه على كثرة الأخوان أهل ثقائ
وأنتدد تعلب
إذا أنت لم تسقلي الأمر لم تجد
بكتيفك في إدارته متعلقاً
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة
فأذا زلها أوشكتها ابت تفوقًا
وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب أنه قال: يناس مساوى الأخوان
يدم لك ودهم، ووصى بعض الأدباء أخاه له فقال: كن للود حافظًا
وإن لم تجد محافظًا، ودخل واصلا، وإن لم تجد مواصلاً، وقال رجل
من إيواد ليزيد بن المهلب:
أذا لم تجاوزن عن أخ عم زلة
فلست غداً عن عرائ متجاوزًا
كيف يريجك البعيد لنفعه
أذا كان عن مولاك خيرك عاجراً؟
ظلمت أخاك فلفته فوق وسعه
هل كانت الأخلاق الأعرائ؟
وأبو مسعود كتاب الرضى: كنا في مجلس الرد، فشكا رجل
من أخيه فانشد الرضى
أعذر أخاك على ذنوبي، واستر وغض على عيبه
واصر على بيت السنيف، ويلزمان على خطوه
ويدع الحساب تفضلاً، وكل الظلم إلى حسية
واعلم بأن الحلم عند الغيظ أحسى من ركوبه
وحكي عن بنت عبد الله بن مطع أنها قالت لزوجها طلحة بن
عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أوجود قريش في زمانه: ما رأيت
قوما أئم من إخوانتك قال: مه ولم ذلك؟ قالت: أراه إذا أسرت لزومه
وإذا أعرضت تركوك قال: هذا والله من كرههم يانونا في حال القوة
بنا عليهم ويتكونا في حال الضعيف منا عنهم. فنظر كيف تؤل بكرمه
هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنًا وظاهر غدرهم وفاء وهذا
محض الكرم وسباب الفضل ومثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتقلوا
المواقف من إخوئهم. وقد قال بعض الشعراء:

إذا ما أبدت من صاحب لك رئة;
فكن أنت محتلاً لرئته عدرا;
أحب الفتي بى النواحش سمعه;
كان به عن كل فاحشة وقرا;
سلم دواعى الصدر لا باست أذى;
ولا مانع خيرا ولا قاتل هوجا;
والدعاي إلى هذا التأويل شيطان;
التفاف الحادث عن القطعية والتائف
الصادر عن الوفاء. وقال بعض الحكاء: وجدت أكثر أمور الدنيا
لاتجوز إلا بالتفاف. وقال أكثر بن صيتها: من شديد نشر ومن تراخي
تألف والشرف في التالف. وقال شبيب بن شيبة: الأريب العاقل
هو الفطن المتلفاق وقال الطالب:
ليس الغي بسيد في قومه، لكن مسيد قومه المتغابي
وقال أبو العائدة:
إن في صحة الأخاء من الناس في خلالة الوفاء فله
فليس الناس ما استطعت على القصر، واللا لم تستم كله
عشي وحيداً إن كنت لا تقبل العد، وإن كنت لا تحاوز زله
من أب واحد، وأم خلقنا، غير لنا في المال أولاد عه،
ومما يثيب هذا الفصل تائف الأعداء بما يشيم عن البغضاء

158
لا يحسن البصري

ويعطفهم على الحبكة وذلك قد يكون بصنف من البر ويختلف بسبب اختلاف الأحوال فإن ذلك من سمات الفضل وشروط السوء فإنه ما أحد يعدم عدوًا ولا يفقد حاسداً وحسب قدر النعمة تكثر الأعداء والحسدة كما قال البختري:

ولن تستبين الدهر موضع نعمة إذا أنت لم تدل عليها باحساس
فان أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالي عليه من مكر حليهم وبادر سقيهم ما تصير به النعمة غيرما والزعامه ملاماً وروى ابن الميسون عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأس العقل بعد الامان بالنبي تعالى التودد إلى الناس". وقال سفيان بن داود عليه السلام لابنه: لا تستكره أن يكون لك ألف صديق فالأنفق قليل ولا تستقبل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال:

تكثر من الأخوان مالستعت إنهم بطول إذا استنجذتهم وظهور وليس كثيراً ألف خل وصاحب و إن أعدوا واحداً لطير
وقيل لعبد الملك بن مروان: ما أقدمت في ملكك هذا؟ قال: مودة الرجل. وقال بعض الحكاء: من علامة الاقبال اصطاع الرجال. وقال بعض البلاغة: من استصال عدوه زاد في عده ومن استفسد صديقه نقص من عده. وقال بعض الأدباء: العجب ممن يطرح عافلاً كفي لما يضمره من عداوته ويصطنع عاجزاً جاهلًا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصال من يعاديه يحسن صنائعه وأياديه. وأنشود عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للأفوه واسمها صلاة بن عمرو حيث يقول:

 البلوت الناس قرنا بعد قرن فلم أغر ختال وقال
وذخت مرارة الأشياء جما فا طم أسر من السؤال
أدب الدين والدين

ومأرى الخطوب أشتهولا وأصعب من معاداة الرجال
وقال القاضي النوخي
التق العـدـة بوجه لا قطوب به فأحزم الناس من يلق أعدائه
في جسم حقد وثوب من مودات الرفق يهن وخير القول أصدرقه
وكثرة المرح مفتاح العـدـاوات
وأنشدت عن الربع للشافعي رضي الله تعالى عنه:
لمسأ عفوى ولم أحقد على أحد أرحب نفسي من هم العدوات
إلى أحقي عدوى عند رؤيته لأدعه الشرّ عصى بالتحيات
وأظهر البشر للناس آبغيه كما قد حشا قلبي محيات
الناس داء دواء الناس قربهم وفي اعتزازهم قطع المـؤدات
وليس وان كان بتألف الأعداء مأمورا وإلى مفارتتهم نددو با ينغي
أن يكون لهم راكا وهم وانقا بـل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على
تخز فان العدوات إذا استحلك في الطبع صارت طبعا لا يستحيل
وجبلة لا تزول وإنما يستكفي بالتألف اظهارها وينتزع بـه أضرارها
كانتار يستدف بالما به إحرقها ويسئن بها إنضاجها وإن كانت محقة
يطبع لا يزول وجهه لا يتغير. وقال الشاعر:
وإذا اتجزت عن العدوات فداره فأمرز له إن المزاح وفاق
فالنار بالباء الذي هو ضدها تطغى النضاج وطبعها الإحرق
(فصـل) وأما البر وهو الخامس من أسباب الألفة فلا توصل
إلى القلوب أنطافا وЎشيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى إلى
التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال: "وتناووا على البر والتقوى" لأن
في التقوى رضا الله تعالى وفي الرب رضا الناس ومن جمع بين رضا الله
 تعالى وربنا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته. وروى الأعش
عن خيامة عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول: «جلبت القلوب على حب من أحسن اليها وغض من أساء اليها»
وحكى أنه تعالى أوحى إلى داود على نبيها وعليه السلام: ذكر عبادي إحسان اليهم ليحبوني فانهم لا يحبون إلا من أحسن اليهم.
وأنشدته أبو الحسن الهاشي:

الناس كلههم عيا للاه تحت ظلاله
فاحبهم طرا اليه أبهرهم لهاليه
والأبر نعات: صلة ومعروف. فأما الصلاة فهي التبرع بذل المال في الجهات المحمدية لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسعفاؤها ويمنع منه شحها وعياؤها قال الله تعالى: «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المنفلحون». وروى محمد بن إبراهيم التيمى عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «السخى قريب من الله عزوجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والخيل بعيد من الله عن وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار».
وقيل في المثل: سودد بلا جود كملك بلا جنود. وقال بعض الحكاء:
الجود حارس الأعراض. وقال بعض الأدباء: من جاد ساد ومن
أضعف ازداد. وقال بعض الفصاحة: جود الرجل يحبه إلى اضداده
وبخله يغضبه إلى أولاده. وقال بعض الفصاحة: خير الأموال ما استرق
حرا وخير الأعمال ما استحق شكا. وقال صالح بن عبد القدوس:

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويسيرت عنهم جميعًا سناً سناً
تغط بأثواب السخاء فاتى أرى كل عيب والخاء غطاؤه
وحذ السخاء بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة وأن يوصل إلى مستحقه
بقدر الطاقة وتدير ذلك مستصبع وعل بعض من يحب أن ينسب
إلى الكريم يتنكر جد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعًا من البخل وإن
الجود بذل الموجود وهذًا تكلف يضى إلى الجهل بحدود الفضائل
ولكن كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبدير موقع
وقد ورد الكتاب بهمها ووجاءت السنة بالنبي عنهم. وإذا كان السخاء
محدود من وقفت على عدده سمي كريما وكان لله دم مستحقا ومن قصر
عبمه كان بخيل وكان للذم مستوجبًا. وقد قال الله تعالى: "ولا تحسين
الذين يجولون مما آتاه الله من فضله هؤؤلا فهم هو شرهم سيطوقون
ما يخلوا به يوم القيامة". وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"أقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل". وروى عنه صلى الله عليه وسلم
أنه قال: "طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء" وسمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول: الشحيح أعذر من الظلم فقال: لعن الله
الشحيح وعن الظلم.

وقال بعض الحكاء: البخيل جبابة المسكونة. وقال بعض الأدباء:
البخيل ليس له خليل. وقال بعض البلاغة: البخيل حارس نعمته
وخازن ورثته. وقال بعض الشعراء:
لأبي الحسن البصري

اذكِ وَكَذِبَ بِجَمَاعٍ مَّمَاسْكَةً، فَأَنَّهَا عَلِيَّةٌ خَازِنَةٌ، وأَمْيَنَ تَوْقُيِّهِ مَدَمُومًا إِلَى غَيْرِ حَامِدٍ، فِي كُلِّهَا عَفْوًا وأَنَّ دَفْنِهِ وَتَظَاهر بَعْضَ ذُوي النَّبَاة، بِحَبَّ الْشَّعْرِاءَ، مَلْمَ يَرْزَقْهُ الَّذِي ذَاهِبُ الْبَخْيَلَا، أَوَّلْ يَؤْمِرَ حَسْنَ الْشَّعْرِاءِ، وَكَيْفَ يَسْوَدُ أَخْوَي بَطْنَةٌ، يَمْن كَثِيرًا وَيَعْطَى قَلِيلًا؟

وَقَدْ بِيْنَا حَبَّ الْشَّعْرِاءَ وَحَبَّ الْمَالَ لَأَنَّ الْشَّعْرِاءَ يُعْثَرُ عَلَى الْبَذِّلَ وَحَبَّ الْمَالِ يَمْعَجُ مِنْهُ فَأَنَّ ظَهِرواُ كَانُ حَبَّ الْشَّعْرِاءَ كَأَذْهابـًا. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْشَّعْرِاءِ:

جَمْعَةٌ أَمْرِينَ، ضَاعُ الْحَزْمَةِ بِبَيْنِهَا، أَرَدْتَ شَكْرًا بَلْ بِعَلَيْهَا، لَا كَمْ سَلْكَتْ طَرِيقًا غَيرَ مَسْلُوكٍ، وَمَا أَرَادَ عَلَى حَالِ بَمَسْتَرَوَكَ، لَقِينَ سَبِّكَتْ إِلَى مَالِ حُظْيِّتَهُ. فَفَاسِبَتْ إِلَى شِيْءٍ سَوِيَّ الْتَّنْوَكَ.

وَقَدْ يَجْدَدُ عَلَى الْبَذِّلَ مِنْ الأَخْلَاقِ المَدْمُومَةِ، وَإِنْ كَانَ ذِرَاعُهُ الْبَذِّلَ مُدْمُومٌ فِي كُلِّ أَرْبَعَيْنِ أَخْلَاقٍ تَأَهِيْكَ بِهَا ذَلِكَ: الْحَرْصَ وَالْشَّهْرَةَ وَسَوِيَ الْظَّنَّ وَمُتْنَعُ الْحَقَّوْقَ. فَأَمَّا الْحَرْصُ فَهُوَ شَيْءٌ لَّدَى الْكَحْجَ وَالْإِسْرَافِ فِي الْطَّلَبِ، وَأَمَّا الْشَّهْرَةَ فَهُوَ أَسْتَقْلَالُ الْكَفَّانِيَةُ وَالْإِسْتِكْرَارُ لَفِيِّ حَاجَةِ وَهُذَا فِرْقَ ما بَيْنِ الْحَرْصِ وَالْشَّهْرَةِ. وَقَدْ رَوَى الْعَلَامَةُ بِنْ حُرَيْرَ وَعَنْ أَبِيهِ عَن سَلَمَانِ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ لَا يُحْزَنُهُ مِنِّ الْعَيْشِ مَا يَكْفِيهِ لَمْ يَجِدَ مَا عَشَى مَا يَغْنِيهِ". وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَاَيَاتِ: الْشَّهْرَةُ مِنْ غَرَّاءِ الْلَّوْمِ، وَأَمَّا سَوءِ الْظَّنِّ فَهُوَ عَدْمُ الْثَّقَاةِ بِنَمْ هوَ أَهْلُ فَأَنَّ كَانَ بِالْخَلُوْقِ كَانَ شَكْا يُؤْلُ إِلَى ضَلَالٍ وَأَنَّ كَانَ بِالْخَلُوْقِ كَانَ أَسْتَخْتَانَهُ يُصِبْ بِهَا عَفْأَانَا وَخَوْاتِيْنَ لَأَنْ ظَنَّ الْإِلَانَسَانِ بِهِ بَخْسَ مَا يَرَاهُ مِنْ نَفْسِهِ فَأَنَّ وَجْدَ فِيهِ خَيْرًا فَطْهَهُ إِلَيْهِ وَأَنَّ رَأَى فِيْهِ سَوْءًا اعْتَقِدَهُ فِي النَّاسِ. وَقَدْ قَالَ فِي الْمَثَلِ: كَلِّ إِنَّا يَنْضُحُ بِمَا فِيهِ، فَقَدْ قَالَ قَدْ تَقَدَّمَ
من قول الحكمة، إن الحزوم سواء الظل قليل تأويله قلة الاسترسال اليوم، لا اعتقاد السوء فيهم.
وأما من الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفرق محبوبيه ولا تقداد إلى ترك مطابشبها فلا تدع في حق، ولا يجيب إلى أنساف، وإذا آل البخيل إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيء اللقيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صالح مأموله، وأما السرف والتدبير فان من زاد على حذ السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالدم جدير. وقد قال الله تعالى: 
لاي الحسن البصري

الساعدي رضي الله عنه قال: أرى رجلا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:
يارسول الله: مرني بعمل يحبه الله عليه ويبني الناس فقال: إزهد
في الدنيا يحبك الله وازهد فيا في أبدى الناس يحبك الناس. وقال أيوب
السختيائي: لا يقبل الرجل حتى يكون فيه خصائص العفة عن أموال الناس
والتجاوز عنهم. وقال لسفيان: ما الزيادة في الدنيا؟ قال: الزيادة في الناس
وكتب كسرى إلى ابنه هرمز ياني استقل الكثير مما تعطي واستكثر
التليل مما تأخذ فان قوة عيون الكرام في الاعطاء وسرو السهام في الأخذ
ولا تعد الشحيح أمينا ولا الكذاب حزا فاني لا عفة مع الشح ولا سوءة
مع الكذب. وقال بعض الحكمة: السخاء سحباً أن أشربهما سفؤك كما
بيد غيرك. وقال بعض البلاء: السخاء ان تكون بسلاك منبرها وعن
مال غيرك متورعة. وقال بعض الصاحبة: الجود غاية الزهد والازهد غاية
الجود. وقال بعض الشعراء:

اذ لم تكون نفس الشريف شريفة وإن كان ذا قدر فليس له شرف
والبذل على وجهين: أحدهما ما ابتدا به الإنسان من غير سؤال
والثاني ما كان عن طلب وسؤول فأما المبتدأ به فهو أطيبهما سخاء
وأشربهما عطاء. وسأى على كرم الله وجهه عن السخاء فقال: ما كان
منه ابتداء فأما ما كان على مسألة خيهاء وتكرم. وقال بعض الحكاء:
أجل النوال ما وصل قبل السؤال. وقال بعض الشعراء:
وقت خلا من ماله ومن المروعة غير خال
أعطاك قبل سؤاله فكيفك مكره السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون أسبابًا أسباب:
فالسبب الأول - أن يرى خلة يقدر على سدها ففاقت يمكن من
إزالتها فلا يدعه الكريم والتدين إلا أن يكون زعيم صلاحها وسخيف
تجاحها رعبة في الأجر إن تدين وفي الشكر إن تكرم. وقال أبو العناية:
ما الناس الا آلة معتمئة للخير والشرجيماع فعله
والسبب الثاني - أن يرى في حاله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة
عن كفاهته فرئى انتهاء الفروصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدا
وعنها مستجداً. وقد قال الحسن البصري رحمه الله: ما أخشى من
كلفتك إجلاله ومنعك ماله. وقيل لله بنت الحسن - من أعظم الناس
في عينك؟ فقالت من كان لي إليه حاجة. وقال الشاعر:
وما ضاع مال ورث الحد أهله ولكن أموال البخيل تضعب
والسبب الثالث - أن يكون تعرضا يتبه عليه لطنته وإشارة
يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغلب ولا الحياء أن يكف.
وقد حكي أن رجلا سأر بهم الولادة فقال: ما أهين بن دندونك؟ فقال: يده
مع أيدينا فوقه - اكتفاء بهذا التعرضا الذي بلغ ما لا يبلغه صريح
السؤال. ولهذا قال أكثمن بن صيفي: السخاء حسن القطنة واللؤم سوء
التفافك. وحكي أن عبيد الله بن سليمان لما تقدم وزارة المعتضد كتب
اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:
أبي دهنا إسعافنا في فوستا وأسعنا فيمن سمح ونكر
قلت له: ندع فيهم أنها ودع أمنا إنهم مقتهذ.
قال عبد الله: ما أحسن ما شكا أمره بين أضعاف مدده ثم قصي
 حاجته. وقال بعض الشعراء:
ومن لا يريد من نفسه مذكره فما رأى طلب المستجدين نقمتسا
والسبب الرابع - أن يكون ذلك رعاية ليد أو جزاء على صناعة
فري تادية الحق عليه طوعا. إما أنتة وإما شكروا ليكون من أسر الانتان
طابقاً ومن رق الاحسان وعبوديته عيننا. قال بعض الحكاء: الاحسان
رق والمكافاة عتق. وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى:
وليست أيادي الناس عندي غنيمة ورب يد عندي أشهد من الأسر
والسبب الخامس—أين يؤثر الاذعان بتقديمه والاقترار بتظبيمه-
توضيحاً لآية هو ما حب وعلى طلبي مكب. وقد قال الشاعر:
حب الراسة داء لا دواء له وقلما تجد الراضين بالقسم
فستصب عليه إجابة النفوس له طوعاً لا بالاستعطاف وإذاعتها
الابارغة والاسعاف. وقد قال بعض الأدباء: بالاحسان يرتبط الإنسان.
وقال بعض البلقاء: من بذل ماله أدرك آماله. وقال بعض الشعراء:
أترجو أن تسود بلا عنا؟ كيف يسود ذو الدعة البخيل؟
والسبب السادس—أن يدفع به سطوة أعدائه ويسكف به نفار
خصائصه ليصيروا له بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة إحواً إما
لصيانته عرض وإما الحراسة مجد. وقد قال أبو تمثم الطائي:
لم يجعل شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كيف أمرئ والدراهم
ومأرك الظهور تدعى حقوقه معارم في الأقوام وهي معارم
وقال بعض الأدباء: من عظمت مرافقته أعظمه مرافقته.
والسبب السابع—أين يلبب به سائر صفينة أولاه ويراعى به
ثكيم نعمة أنسداها كيلا ينسى ما أولاها أو يضاع ما أرسلاء فأن مقطوع
البرضائع ومهم الاحسان ضال. وقال الشاعر:
وسميت أمراً بالبر ثم أطرحته ومن أفضل الأشياء ربل الصائم.
وقال محمد بن داوود الأصبهاني:
بدأت بنعمة أوجبت إلى حريمة عليك فقد بالفضل فالعوود أحمد
والسبب الثامن—المجدة يؤثر بها المخيب على ماله فلا يضن عليه
بمرغوب ولا يتفسع عليه بمطلب للذة التي هي عندنا أحظى والي نسمه
آشبه لأن النفس إلى مخيبها أشوق إلى مئاليه أسبيق. وقد قال الشاعر:
فأزرتكم عمدا ولكن ذات الهوى التي يرى القلب ترى بها الرجل
وهذا وان دخل في أقسام العباء نفار عن حد السخاء وهكذا الخامس
والسادس من هذه الأسباب وأما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء والسبب التاسع—ليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وإنما هي منه صحة قد فطر عليها وشحية قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحرم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال الشاعر:

ليس يعطيك للرجاء ولا للخوف لكن يلد طعم العطاء وقد اختفى الناس في مثل هذا هل يكوف منسوبا إلى السخاء فيجد أو خرج عنه فيذم؟ وقال قوم: هذا هو السخان، طبعاً والجواد كم وهو أحق من كان به ممدحاً وإليه منسوباً. وقال أبو تمام:

من غير ماسوب يدنى كنفي سبباً للفر من يجتدى حرزاً بلا سبباً وقال الحسن بن سهيل: إذا لم أعط الأمستحقا فكان أعطيت غريباً وقال: الشرف في السرف فقيل له: لا خير في السرف فقال:

ولا سرف في الخير، وقال الفضل بن سهل: العجب لمن يرجو من فوقع كيف يعرف من دونه، وقال بشار:

وما الناس إلا صاحباً فئهم صني وملفول اليدين من البخل فقد يدا ما أمكن كفنا فانها تقل وترى والعواد في شغل وقال آخرون: هذا خارج من السخاء المحمود إلى السرف والتبدير المذموم لأن العطاء إذا كان لغير سبب كان معن لغير سبب لأن المال يقل عن الحقوق ويجف عن الواجبات إذا أعطي غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الدم يمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذا بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تميز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى: ولا تجعل بدك مغلولة إلى عنتك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملما محسورة» فهى عن بسطها سرفاً كما نهى عن قبضها بمثل فدل على استواء الأمرين ذما وعلى اتفاقهما لوما. وقال الشاعر:
ولأن الطاعة والمفعن إذا كانا لغير علة أفضاء إلى ذم المنع وقلة شكر المعطي أما المنع فلا أنه قد فضل عليه من سواه وأما المعطي فإنه وجد ذلك أتفقا وربما أمل بالاتفاق أضعافا فصار ذلك منضبا إلى اجتلاع الدم وإحباط الشكر وليس فيا أفضى إلى واحد منهما خير يجري وهو جدير أن يكون شرما يبق ومثل هذا كان منع الجمع إرضاء للجميع وعطاء يكون المنع أرضي منه خسرا مبين. فاما إذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه معترفة من وجهين أهدهما في السائل والثاني في المسألة. فاما ما كان معترا في السائل فثلاثة شروط: الشرط الأول أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فإن كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم. وقد قال بعض الحكاء: الضرورة تؤجج الصورة. وقال بعض الشعراء:

"ألا قبعت الناهض - وكأنها تكلف على الخلق أدنى الخلقين فضل السبق من غير سبق."

وقال الكيميت:

"أذا لم يكن إلا الأسنة مركب فلا رأي للضطر إلا ركوبه.
فان ارفعت الضرورة ودعت الحاجة فيا هو أولى الأمرين أن يكون وان جاز أن لا يكون فالنفس المساعة تغلب الحاجة وتسمع في الطلب وتراعى ما استقام به الحال وإن تاله ذل وحده وهن فيتأول صاحبها قول البحتري:

وألا يكون مكروه الأمور إلى محبوبا سببا ما مثله سبب بالنفس السهيفة تطلب الصيانة وتراعى التزامه وتحمل من الضر.
ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيقب تحملها ويدوم تصنينها فتكون كما قال الشاعر:

وقد يكتسي المرء خز الدياب ومن دونها حالة مضنية

كما يكتسي خذة حمرة وعلته ورم في الره

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطالع اللؤم فأن البهائم الوحشية

تأي ذلك وتأنف منه قال الشاعر:

ولايس الليث من جوع بفاص على كيف تطيف بها الكلاب
فكيف بالانسان الفاضل الذي هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه
نفسا هل يحسن به أن يرى لوحوش البهائم عليه فضلا. وقد قال الشاعر:

على كل حال لا كل المرء زاده على اليس والضراء والحدوان

وقد غليل بعض الزهد لسألت جارك أعطاك، فقال: والله مسأل

الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها. ووصف بعض الشعراء قوما فقال:

اذ افترقوا أنغضا على الضريحة وإن أيسروا عادوا سرايا إلى الفقر
فأما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح

اللوم ومحض الدعاء وقنا تجد مثله ملحوظا أو ممولا محذوفا لأن الحرام
قادة إلى أضيق الأزراق واللوم ساقه إلى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه

ما إلا أراقة ولاذن الإذاقة كما قال عبد الصمد بن المعذل لا تقم الطائى:

أنت بين أشنين تبرز لنا س وكناها بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لدوال
أى ماء لمتز وجهك بيق بين ذلك الهوى وذل السؤال

ولو استقيح العمار وأدي من الذل لوجد غير السؤال مكسبة يعونه

وقد قدر على ما يصونه وقد قال الشاعر:

لاطنين معيبة بتذلل فليأتلك رزقك المقدر
والعلم بأي آخذ كل الذي في الكتاب مقدر مسطور
الشرط الثاني — من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن إرجاعه
ويتمصر الوقت على إبطائه فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة ولا في التأخير مهلة فيصير في المعدورين وداخلاً في عدد المضطررين. فاما إذا كان الوقت متسعاً والزمان ممتدًا فتعجيل السؤال لوم وقوفه. وقال الشاعر:
أبيلى إغضاء الحلفون على الفذى يقينى أن فلا عسر إلا مفتاح
ولا رما ضق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأنسنة مخرج
والشرط الثالث — اختيار المسئول أن يكون مرجو الإجابة مأمول
النجاح إما حرمة السائل أو كرم المسئول فإن سأل لن يرى حرمة
ولا يولي مكرمة فهو في اختياره معلوم وسأله محروم. وققد قال بعض
البلغاء: المخدول من كانت له إلى اللزام حاجة. وقد قال بعض البلاء:
أذل من الل دي سائل وأقل من البخيل نائه. وقال بعض الشعراء:
من كان يأمل أن يرى من ساقط نسأ ضناها
فأند رجا أسف يجني من عوض رطا جميها
وأما الشروط المتعددة في المسئول فثلاثة:
الشرط الأول — أن يكتمن بالتهيء ولا يلجأ إلى السائل الصريح
لائسون السائل عن ذلك الطلب فإن الحلال ناطقة والتعرج نص كاف.
وقد قال الشاعر:
أقول وستر الدجي مستثرب كنا قال حين شكا الضندع
كلامي إن قلت له ضائع وفق الصمت حتى فأصنع
وأما فهم المسؤول الاشارة فإنا لى التصريح بالعبارة تهذينا للسائل
ليكمل فيمست ويستحم فيكف فيكون كما قال أبو تمام:
من كان منفقود الحياء فوجه من غير بجاء له بؤاب
والشرط الثاني — أن يبق بالبشر والتصرف مبالي بالطلاقة
والتقريب لكون مشكوراً إن أعطي ومعذوراً إن منع. وقد قال بعض
الحاكم: الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شعره لم تعمد عذره.
وقال ابن لطيف: إن أبا يدير جر يدري قصد بعض الوزراء في حاجة فلم يقضيها له وظهر له منه صغر فقال:
لا اندخلنكم حجرة من سائل فلخير دهر ك أن ترى مستولاً
لاتهجيبي بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولاً
تلقى الكريم فклتدل بشره وترى العبوس على اللثيم دليلاً
واعلم بأنك عن قليل صائر خبرنا فكن خيراً بروق جيـلًا
والشرط الثالث – تصديق الأمل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار
حاله وحال سائله فانهم لا يخلوان من أربع احوال: (فلاحل الأولى) أن يكون السائل مستوجبًا والمسئول متهمًا فالاجابة هنا تستحق كراً وتستلزم سروعه وليس للرد سبيل إلا من استولى عليه البخل وحان عليه الدنم فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان:
إني رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا الخزالياب وتشبعوا
فأذا تدوزكربت المكارم مرة في مجلس أنتم به فتقنعوا
فتعود بهم من حرم شروة ماله ومن حسن حاله أن يكون مستودعاً
في صنع مشكور وبر مذخر. وقد قيل لبخيل: لم حبست مالك؟
قال: للنواب فقيل له: قد نزلت بك. وقال بعض الشعراء:
مالك من مالك إلا الذي قدمنت فابذل طائفة مالك
تقول أعمالك ولوقتها رأيت أعمالك أعني لك
وقد استطاع حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بان لاحق له
مذهبك كمشكور ومأثوماً كأجور. وقال أبو العتاهية:
خرن البخيل على صالحه إذ لم يقل برحة ظهري
مافاتي خيرامري وضعت على يداه مثونة الشكر
فذا لم يكن للرد في مثل هذه الحال سبيل نظر قان بالتأخير مضراً
واعلم بأن جفافه مما يعيد السهل صعباً
قالوا: ولأن في الرجوع عنه من الانكسار وفي توقع الوعد من صرارة
الانتظار وفي العود إليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتهاد ما يقدر بره
ويهون شكره. وقال الشاعر:

إن الحوائج ربما أزرى بها
عند الذي تقضى له تطويلها
فاذضمت لصاحبك حاجة
فاعلم بأن تمامها تعجلها
(والحال الثانية) أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤول غير
متمكن ففي الرذ فسحة وفي المنع عذر غير أنه يلين عند الرد لن يقية الدم
وينظر عذرا يدقع عنه اللوم فليس كل مطل بعفر ولا مغدور ينصف.
وقد قال أبو العتاهية يصف الناس:

فكيف وإن أنصفتهم ظلامون؟
وان جئت أبغي شئهم منعوني
وان حتم لم أبذي له شموت
وان رجعت نعمة حصودني
وان ضاقت عليهم نظرة وجنون
افضى بهما عمرى ويوم حرون
وماتلته في لذة وسكون
(والحال الثالثة) أن يكون السائل مستوجب والمسؤول غير متمكن
فيأتي بالحل على النفس ما أمكن من يسير يستد به خلة أو يدفع به مذمة
أو يوضح من اعداء المعوزين وتوجع المتآلمين ما يجعله في المنع مغدوراً
وبالتوجه مشكوراً. وقد قال أبو نصر العتيبي رحمه الله تعالى:

الله يعلم إنني لست ذا بلح
ولست ملمسافي البخل لي عاللا
لكن طاقة مثل غير خافية
والعلم يعذر في القدر الذي حلاً
وريم تخسر بحدود العجز بعد تتقدم القدرة على فوت الصنعة
ووزوال العادة حتى صار اضني جسدا وأزيد كمدا كما قال الشاعر:
و كنت كبايز السوء قص جناحة يري حسرات كنما طائر يرى طائرات الجو تخفق حوله فيذكر إذ ريش الجماحين وأفر.
(والحال الرابعة) ان يكون السائل غير مستوجب والمسئول مسئوًا
وعلى البذل فادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض أوقيق هجاء ممض
كان البذل إليه مندوب باصيانته لا جودا فقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال: «ما وقى به المرء عرضه فهو له صدقة» وإن أمن
من ذلك وسلم منه من الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لتئل يقابل
الرجاء بالحبة والأمل بالرياس وما فيه من اعتداد الود واستسهال المع
المفضي إلى الشع . وأشدد الأصمى عن الكساى:

كأنك في الكتاب وجدت لاء محزمة عليه فلا تخشل
فما تدري اذا أعطيت مالا أكثر من سماحك أم يقل؟
اذ حضر الشتاء فانت شمس وأن حضر المصيف فانت ظل
ومن الناس من اعتبر الأسباب وغلب حاس السائل وندب إلى
الممنع اذا كانت العطاء في غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت
ولا يعجز عنها اذا لمت وعينت . وقد قال بعض الشعراء:
لا تجد بالعطاء في غير حق ليس في منع غير ذي الحق بغل
إذاما الجود أن تجود على من هو للجود والندي منك أهمل
فاما من اجاب السؤال ووعد بالبذل والندوال فقد صار بوعد
مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فلا اعتبار بحق السائل بعد الوعد
ولا سبيل إلى مراجعة نفسه في الرد før تستوجب مع دم المنع لوم البخل
ومقت الفادر ومجبة الكذوب ثم لا سبيل لمطلقه بعد الوعيد لما في المطل
من تكدير الصنع وتمحوق الشكر، والعرب تقول في أمثالها: المطل أحد
المعين والياس أحد النجحين، وقال بشار بن برد:
أطلت علينا منك يوما غمامة أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غمها يجل فيأس طامع ولا غيتها يأتي فيروى عطشها
ثم إذا أنجز وعده وأوفي عهده لم يطبع نفسه ما أعطى ويسر أن
كانت بده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا
خير من اليد السفلى». وقال الشاعر:
قالك لاندرى اذا جاء سائل أنت بما تعطيه أم هو أسعد؟
عسى سائل دوحة وإن منعته من اليوم سأؤن أن يكون له عد
ولين من سروه إذا كانت الأزرق مقترحة أن تكون على يده جارية
ومن جهته واصلة لانتقل عنه بنع ولا تحول عنه ياياس، وحتى أن
رجلًا شكا كثرة عياله إلى بعض الزياد فقال: انظر من كان منهم ليس
رزقه على الله عن وجل خوله إلى منزلي، وقال ابن سيرين لرجل كان
يأتيه على دابة فتفقد البداية: فما فعل برذونك؟ قال: اشتدت على مؤنته
فبعثه قال: أفترة خلف رزقه عندك، وقال ابن الرومي رجح الله:
إن الله غير مرهق مرهو نتعويه وغير مائل ماء
إلى الله بالبرية لطفاد سبق الأمهات والآباء
ثم ليكن غالب طاعته الله تعالى وأكثر قصدت ابتعاد ما عن الله
عز وجل كالذي حكاه أبو بكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن
أعرابياً أتاه فقال:
ياعمر الخير جزيت الجنة أكس بنياتي وأمهته
وكن لنا من الزمن جننة أقسم بالله لتفعلنه
فقال عمر رضي الله عنه: فنان لم أفعل يكون ماذا؟ فقال:
إن ذا حفص لأذهبتي.
فقال: فادى ذهبتي يكون ما ذاك؟ قال:

يكون عن حال لي تشألته يوم تكون الأعطيات هِنَّه
وموقف المستؤول بهبهنة إما إلى نار وإما جنْه
فبكى عمر رضي الله عنه حتى اخضرت حلته ثم قال: يا غلام أطعه
قيدص هذا لذلك اليوم لأشعره أما والله لا أملك غيره. وإذا كان
الطعاء على هذا الوجه خلًا من طلب جزاء وشرك وعري عن امتتان
ونشر فكان ذلك أشرف للبازل وأهتنا للقابل، وأما المطاعي إذا التمس
بطالته الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء
لأنه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمحة ورباه وفي هذين من
الدم والسمرة ما ينافي السخاء وإن طلب به الجزاء كان تاجرًا مترجحا
لايستحق حدا ولا مدحًا. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل
قوله تعالى: «ولا تمتن تستكثر» أنه الذي يعتبني عطية يلتمس بها أفضل
منها. وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول في تأويل ذلك لا تمن
بعملك تستكثر على ربك وقال أبو العتاهية:

وليسن لد أوليتها بغيره
اذ كنت ترجو أن تعد لما شرك
علي الزيكفي من سندحه
فان رضي الله عاد ذلك الغني فقرا
واعلم أن الكرم يشتد بالكرامة واللطف والثيم يشتد بالمجان
والعنف فلا يعود إلا خوفًا ولا يجيب الاعتناك كما قد قال الشاعر:

رأيت مثل الجوز يمنع له صحيحاً ويعطي خيره حين يكسر
فاعلم أن تكون المجانية طريقًا إلى اجتداثك والخوف سبيلًا إلى
إعطالك فيجري عليه سخية الطعام وامتنان اللحم وليكن جودك كروا
ورغبة لا رعاه وربته سبأ يكون مع الوصية كما قال العباس بن الأحنف:
صرفت كأني ذيذابة نصبت نضي للناس وهي تحترق
وأما النوع الثاني من البر فهُو المعروف ويتنوع أيضًا نوعين قولًا
وعملا: فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتوجه جميل القول.

وذاك يبحث عليه حسن الحلقة ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالمخاء فإنه إن اسرب فيه كان ملقا مذموما وإن توسط واقتصاد فيه كان معروفا وبرأ محودا.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى: "والباحات الصالحات خير عند ربك نوابا وخير أثلا" أنها الكلام الطيب، وكان سعيد بن جبير يتأول أنها الصواعد الححس.

وروى سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنكم لن تسمع الناس بأموالكم فليس بكم منك بسط الوجوه وحسن الحلق.

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد عنده قوله الأعرابي هذا:

وحي ذوى الأضمان تسب قلوبهم تحيت الحسن فقذفت رفع التعل فان دحسو بالشكر قاعف نكما وان حبسا عمت الحديث فلاتسل فان أذيذ منه سماكه وان الذي قالوا وراء لم يقل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "آن من الشعر لحلاة وان من البيان لسحرا" وقيل للعنابي: "انك تلقى العامة ببشر وتقرب قال: دفع صناعة بأيسر مؤونة واكتساب إخوان بأيسر مبذول، وقيل في منثور الحكم:

من قل حياؤه قل أحباؤه. وقال بعض الشعراء:

أCJK ان البشر شيء هين وجه طلب وكلام لين

وقال بعضهم:

المرء لا يعرف مقداره ما لم تبن الناس أفعاله

وكل من يمعنى بشره فقاصا ينعنيه ماله

وأما العمل فهو بذل الجهد والمساعدة بالنفس والمعونة في النافحة.

وهذا يبعث عليه حب الخبر الناس وإيذار الصلاح لهم وليس في هذه الأمور سرر ولا لغايتها حليا خلاف النزع الأول لأنها وإن كثرت فهي أفعال

خير تعود بنفعين تقع على فاعلها في أكتساب الأجر وجميل الذكر وتفع
على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له. وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل معروف صدقة". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "صنائع المعروف تقع مصارع السوء" وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "المعروف كأسه وأول من يدخل الحياة يوم القيامة المعروف وأهله." وقال على بن أبي طالب كرم الله وجوهه: لا يجدن في المعروف كفر من كفره فقد يشكو الشاكك بأضعاف حمود الكافر. وقال الحطيئة:

(1) من فعل الخير لا يعدم جوازه لا يذهب العرف بين الله والناس.

وأشد الرسايل:

يد المعروف غنم حيث كانت تتمح أمن شكر من شكر الشكور لما جزاء. وعند الله ما أكثر الخير.

ف ينبغي أن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فوائده ويساء به خيبة مجده وتعليم أنه من فرص زمانه وغمان إمكانيه ولا يهمه تقة بقدرته عليه فكم واقع بقدر فائت فأعتقت ندها ومعول على مكينة زالت فأو ريث نجلا.

وقد قال الشاعر:

ما زلت أسمع: كمن فائق نجلا حتى أبلت فكانت الوائق نجلا.

ولو فطى لنسوائب دهره وتحظ من عوائق مكره إلى الألوان مغامة مذخرورة ومغارة مجبورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من فنح عليه باب من الخير فإن فأنتهذه فإنه لا يدرى من يغفل عليه" وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لكن شيء مكة وكرة المعروف تجليس السراح". وقيل لأنوشروان: ما أعظم المصائب عندكم؟ فقال:

إن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الخميد: من آخر الفرصة عن وقت فليكين على ثقة من فوتها. وقال بعض الشعراء:

(1) قوله جواز要比 الصواب في الأصل المطبق جوازه وهو نحاول فكنه صحيحه.
أدب الدنيا والدين

إياها فكنت إليه بعد طول المطلب به:

أما يدوك طول الصبر مني
وعلمك أن ذا السلطان غاد
وأنك إن تركت قضاء حق
ستصبح لنا أسوأ معزى

وكتب بعض ذو الحرمات إلى والد قصر في رعاية حرمتة يقول:

على الضراع تريد رعية حرمتى
أتم في الحساب تمن بالانعام؟
للتبع في الدنيا أردت تقاتله نحوى
وكتب أبوه على البصر إلى بعض الوزراء وقد اعتذر إليه بكثرة الأشغال يقول:

لنا كل يوم فتوبة قد تنبواها
وليس لنا رقص ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغال عنا فاكنا
تناطر بك الآمال ماتصل الشغل
واعلم أن لعروف شروط لا يتم إلا بها ولا يكيل إلا معها فين ذلك ستره عن إذاعة يستطيل لها واخضاعه عن إشاعة يستدل بها. قال بعض الحكاء: إذا استطعت المعروف فاستره
وأذا صنع الديك فانشره
ولتقول دعبل الخزاعي:

إذا انتقدوا أعلموا أمرهم
وان أعموا أنعموا باكتنام
يقوم الفقود إذا أقبلوا
وتشهد هيثم بالتقيم
على أن ستعرف من أقوى أسابق ظهوره وأبلغ دواعي نشره
لما جبلت عليه النفس من ظهور ما خفى وإعلان ما كتم. وقال
سلف بن هارون:
خلّ إذا جئت يومًا لتسأله أعطاه مالكك كفادواعتذر
يخفّ صانته والله يظهرها وإن الجميل إذا أخفته ظهراً
ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبار وتقليله عن أن يكون مستكثراً فلآ يصير به متلا بطرأ ومستطيلاً أشراً. وقال العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وسسترته فذا أسجلته هناته وإذا صغرته عظمته وإذا سرته أكمته. وقال بعض الشعراء:

زارد معروفك عندي عظماً أنه عندك مستور حقيقة
وتناسبت كانت لم تأته وهووعند الناس مشهور خطير

وقال بعض الشعراء:

أفسدت بالمّ ما أسديت من حسن ليس الكرم إذا أسدى إبنان
وقال أبو نواس:
فامض لا تتمن عليّيدا منك المعروف من كدره
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه:

لا تحملن من مين يبّن من الأنام عليك ملّثه.
واختر لنفسك حظها
واصر قفان الصبر جنسته
من الرجال على القول بأشد من وقع الأسئه
ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيئاً وإن كان قليلاً نزراً إذا كان الكثير مموزاً و كنت عنه عجزاً فإن من حقرر يسيره فتبع منه أخذه كثير فامتنع عنه وفعل قليل الخبر أفضله من تركه. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يمنعكم من المعروف صغيره».
و قال عبد الله بن جعفر: لا تستنج من القليل فإن البخل أقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك أكثر منه. وقد قال الشاعر:
اعمل الخير ماستطعت وان كان قليلاً فلن تحجب بكباب
و ابتعد تفعك الكثير من الخب. رأى؟ كنت تأمرك لأقومله؟
على أن من المعروف ما لا كاثلة على موليه ولا مشقة على مسده
و إنما هو جام يستظل به الأندى و يتحقق به التابع. وقد قال الشاعر:
رجل الفقي ينفع من دلوتة و ماله في ظلمه حظ
وعلم أنك لن تطمع أن توعس جميع الناس معروفك ولا أن توليهم إحسانك فاعتماد بذلك أهل التفضل منهم والحفاظ وافق قد ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم نعماً و صنعيك عندهم زاكي. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تنفع الصنيعة إلا عند ذي حسب ودين» وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله ربي غيرا جعل صناعته في أهل الحفاظ» وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:
إن الصناعية لا تكون صناعة حتى يصب بها طريق المصنع
فذا صنعت صناعة فعمل بها الله أو لذوي التضراة أودع وقيل في متى الحكم: لا خير في معروف إلا غير عرف. وقد ضرب الشاعر به مثلاً فقال:
كفار السوء إن اشتهيته رحم الناس وإن جاع نهق
فقد قال بعض الحكاء: على قدر المغاس يكون اجتئاء الغارس
فأخذه بعض الشعراء فقال:
لمرك ما المعروف في غير أهله
فستودع ضاع الذي كان عندته
مستودع ما عندبه غير ضائع
ومالناس في شكر الصنيعة عندهم
وفي كلها الاكبعض المزارع
ومنزرة أكبت وأضاءت نبتها
وأما من أسدى الله المعروف واصطنع أهله الآنسان فقد صار بأسر
المعروف موثوقاً وفي ملك الآنسان مرقوقاً ولزمه إن كان من أجمل
المكافئة أن يكافع عليه وإن لم يكون من أهلها أن يقابل المعرفة بشعره
وينبغي الفاعل بشكره. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
«من أودع معروفاً فليشربه فإن نشرده فقد شركه وان كرهه فقد كفره»
وروى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى أبا ذر البيتين:
أرفع ضعينك لا تثيره ضعفه
يوما فتدركه العواقب قد تما
يجزى أبدي عليه وان من أئث عليك بما فعلت فقد كجزي.
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ردي على قول اليهود فاتمله الله لقد
أتاني جبرئيل برسالة من ربى تعالى: "أنا رجل صنع، إن أخيه صنيعة
فلم يجد لها جراء إلا الدعاء والنداء فقد كافأه". وقيل في منشور الحكم:
الشكر قيد النعم. وقال عبد الحميد: من لم يشكر الانعام فاعدبه من الأغام
وقيل في منشور الحكم: قيمة كل نعمه شكرها. وقال بعض الحكاء:
كفر
النعم من أهارات البطر وأسباب الغير. وقال بعض المصحات: الكريم
شكر أو مشكور واللهم كفره أو مكلفك وقيل بعض البلاغاء: لا زوال
للنعمه مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر. وقال بعض الأدباء:
شكر الله بطول الشناء. وشكر الولاة بصدق الولاء.
وشكر النظر بحسن الجزاء وشكر الدني بحسن العطاء
وقال بعض الشعراء
فأوكان يستغني عن الشكر ما جد لعزة ملك أو علو مكاف
لما أمر الله العباد بشكره فقال: أشكرنا لابنها التقلان
فان من شكر معروف من أحسن إليه ونشر إفضل من أنعم عليه
فإن ديد حق النعمة وقضى موجب الصبيعة ولم يبق عليه إلا استدامة
ذلك إجمالا لشكره ليكون لزيد مستحقا ولتابعة الاحسان مستوجبًا.
حكي أن المجاج أتي به يقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فأمر
بقتله إلا ذلك الصديق فأنه عفا عنه وأطلقه ووصله ورجع الرجل
الي قطري بن النجاء وكان من أصحابه فقال له: عد إلى قتال المجاجعدد
الله فقال: هيهات عل يدا مطلتها واسترقة رقبة معتقها وأنشا يقول:
أقوال المجاج عن سلطانه؟
ارتق فتبت بأنها مولاته؟
إذا إذا لأخو الدناءة والذى
شهدت بأقح فعلاه غدراته
ماذا أقول إذا وقتت إرائه
في الصف واحتتجت له فعلاته
أقول: جار عل لا إلى أذى إذا
لأحذ من جارت عليه ولاته
وتحت الأقوام أن صائعا
غريست لدى خنثات نخلاته
وقيل في منصور الحكم: المعروف رق ومكافأة عنفه.
ومن أشكر الناس
الذي يقول:
لأشكرك لمعروف هممت به وإن أهتمام بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يضعه قدر فالذي بالقدر المحتوم مصرف
وهذا النوع من الشكر الذي يتعلج المعروف ويقدّم البر قد يكون
على وجه فيكون تارة من حسن اللغة المشكور في وصول بره وإسلاء
عرفه ولا رأى لمن يحسن به فإن شاكر أنه يغلف حسن ظنه فيه
فكون كما قال العبادي:
قد أورقت فيك آمالاً بوعدك لي، وليس في ورق الآمال لي تمر.
وقد يكون تارة من فرط شكر الراجح وحسن مكافأة الأمل فلا يرضي لنفسه إلا بتعجيل الحق وأسلاف الشكر وليس من صادف
ل무روفه معدناً زاكي ومغروساً نامياً أن يُفْتَّئ نفسه غنٌّا ولا يجرمها ربعاً.
فهذا وجه ثان. وقد يكون تارة ارتجاناً للأمول وحثاً للسُّكَّول وبحسب
ما أسَّفل من الشكر يكون المُدم عند الأبياس. وقال بعض الأدباء من
حكاية المتقدمين: من شكرك على معروف لم تسعد إليه فعَّاله بالبر، والإلا
انعكس نصاراً، وقال ابن الرومي:
وأما الحقد إلا ت أوام الشكر في الفق. وبعض السمجا يتنسب إلى بعض
فهُجَّر بحقداً على ذي إساءة. فنم ترى شكاً على حسن القرض
إذا الأرض أدت ربع ما أنت زارع من البذور فين ناهيك من أرض
وأما من سّتر معروف المنعم ولم يشكو على ما أولاًه من نعمة فقد
كفر النعمة وحذد الصنيعة وإن من أدم الخلاقين وأسوا الطرائق
ما يستوجب به قبْح الورد وسوء المنعم. فقد روى أبو هذرية رضي الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يشكو الله من لا يشكو
الناس. وقال بعض الأدباء: من لم يشكو لمنعه استحق قطع النعمة.
وقال بعض الفصحياء: من كفر نعمة المفيد استوجب حمان المزد. و
والمقالة: من أنكر الصنيعة استوجب قبْح القطيعة. وأنشدُن
بعض الأدباء ما ذكر أنه سألى بين أبي طالب كرم الله وجهه:
من جاور النعمة بالشكر لم يفتَّئ على النعمة مغناها
لو شَكّكوا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالوا
لئن شَكّكم لأزيدتمكم لكنها كفرهم غلاها
والكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشَّكَّة أبِي لَهَا.
و هذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفنة الجامعة.
(فأما القاعدة الثالثة) فهي المادة الكافية لأن حاجة الإنسان لازمة لا يعرف منها بشيء. قال الله تعالى: "وما جعلناهم حساساً لا يكون الطعام وما كانوا خالدين". فإذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم يستمر له دين وإذا تتدور شيء منها عليه حتى من وجان في نفسه والاختلال في الدنيا يقدر ما تعذر من المادة عليه لأن الشيء القائم به يجلس يجلس بﯢته يختزل بالاختلاله. ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافية إليها أؤتت بيغنين طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المواد المختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة الاشتباك بها وتشعب جهاتها توسعة لطلبها كيلا يجمعوا على سبب واحد فدلا يلتزمون أو ينكركون في جهة واحده فيلا يكتفون ثم هداتهم إليها بعقوتم وأذرعهم إليها بفاطمهم حتى لا ينكرون أئلافهم في المعانيس المختلفة فبجورا ولا يعانوا بتقدير موارده بالمكاسب المستحيلة فيختلا حكمة منه سلطانه وتعالي أطلع بها على عواقب الأمور وقد أنبا الله تعالى في كتابه العزيز إخبارا وإذ كارا فقال سلطانه وتعالي: "قل ربنا الذي أعزى كل شيء خلقه ثم هدى،" اختلاف المفسرون في أول ذلك فقال قناعة: أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه وقال ماجد: أعطى كل شيء صورته ثم هداد لمعيشته. وقال تعالى: "يعمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون" يعني معايشتهم من زرعون وملتى يفسرون. وقال تعالى: "وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين" قال عكمة: قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الآخرة ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، وقال الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد: قدر أزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة في أزاقهم. ثم أن الله تعالى جعل لهم ما هداهم إليه من مكاسبهم وأشردهم إليه من معايشهم دينًا يكون عليهم حكما وشرعا يكون لهم قيام ليصلوا إلى موادهم بتقديرهم ويطلبوا أسباب
لا يسيء الحسن البصري

هي الرسول في الرجل المطعات في الخيل. وقال بعض السلف: 'خير المال عين خزارة في أرض خزارة. تسمىかつ وتشهد إذا غبت وتكون عقبًا إذا مت. وروى هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'النسوان الرجال في خبى الأرض' يعني الزرع. وحكمي من المعتضدي أنه قال: رأيت على من أطيب برغبي الله عنه في المنام بناولني المسحة وقال: خذها فإنها من فتنة خزان الأرض'. وقال كسرى للبوذ: ما قيمة تاجي هذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة إلا أن تكون مطرة في نيسان فإنها تصلح من معايشة الرعية ما تكون قيمته مثال تاج المال. ولقي عبد الله ابن عبد الملك ابن شهاب الزهراء فقال له أدللني على مال عجابه فأشأ ابن شهاب يقول:

نبيع خبى الأرض وادع ملكها لعلك يومًا أن تجسّب فترزق ما هي من ماهي الأرض غارت تدقفاً

وقد اختلاف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس ينسع كناباً لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فلترسب مداد ووفر جدًا

ومن فضل الشجر فلنُبَرَ أصله ونوانه تمر

وأما الناشئ من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل النبات

وسكان الحيوان لأنهم لما لم تسقَر لهم دار ولم تضعهم أمصار افتقروا إلى الأموال المتنقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالطعن والرحلة فاقتتنا الحيوان لأنه يستقل في النقلة بنفسه ويستغل من العولمة بريعه ثم هو مركوب ومحليو فإننا أفتينا على أهل الحيوان أيسر لقلة مميتته وتسهيل الكفالة به وكانت جذوة عليهم أكثر لوفور نسله واحتياط رسل الله الحاصل من الله 

لحلقه في تعديل المصالح فيهم وإرشاداً لعباده في قسم المسافر بينهم.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: 'خير إمال منيرة ماهرة وسكة مأمونة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: ماهرة ماهرة أو أي كثيرة'

أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة: صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن الناس آتآت للصناعة أشرفهم نسا متهيئ لأشرفها جنسا كما أن أردهم نسا متهيئ راذهما جنسا لأن الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو إلى ما يجازمه. وحكي أن الإسكندر لما أراد الخروج
إلى أقصى الأرض قال لأرسطوطيلاس: اخرج معى قال: قد نحل جسمى وضعفت على الحركة فلا تركني قال: فآصبح في عمان خاصة قال: انظر إلى من كان له عبيد فأحسن سياستهم قوله الجنود ومت كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها قوله الخراج فنبه بأعيان الطبع على ما أبلغنه عن كلفة التجارة. وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر تدبيره. فاما صناعة الفكر فقد يتسمق قسمين: أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا نصينا فيه من جملها ما ليس يجعل هذا الكتاب زيادة عليها، والثاني ما أدى إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية وقد مضى في فضل العلم من كتابنا هذا بأني ما فيه عن زيادة قول فيه، وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين: عمل صناعي وعمل بيمين. فالعمل الصناعي أعلاهما رتبة لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصويره فصار هذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخرين بن صناعة كل وآلة مهنة وهي الصناعة التي تتقصر عليها النفوس الريفية ونوقف عليها الطبع الخاضعة كما قال أكرم بن صنيف: لكل ساقطة لاقطة وكيفال المتلمس:
ولا يقيم على ضيبي يسام به إلا الأذلان عبر الحي والوتد. هذا على الخسف مروية بينه وذا يشمس فلا يرى له احد.
وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين: أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة، والثاني أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التي ركزهم الله عن وجل عليها في ارتداد مواكدهم ووكالهم في نظيرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين همهم في الفنوس ليكون ذلك سببا لأنفسهم، فسبحان من تفرد فينا بطبعي
لا يلمح الحسن البصري

حكمته وأظهر لقطنتنا عنوا عن قدرته. وأذ قد وضع القول في أسباب المواد ووجهات الكسب فليس يخلو حال الإنسان فيها من ثلاثة أمور:

أحدها أن يطلب منها قدر كفايتها ويلمس وفق حاجته من غير أن يتعدى إلى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان منها فهذا أحد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المنتديين. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أوحي الله تعالى إلى كتابات فدخلها في أن يومنا وقرن في قالي من أعطى فضل الله فهو خير له ومن اسمك فهو شرف له ولا يبلغ الله على كناف" وروى حميد عن معاوية بن حيدرة قال: "قلت يا رسول الله ما يكتب من الغنم قال: "ما حسبت جمعتك ومستبرعك فكان حالك" وإن كان تمارس فيح فذقل من حب وحب من ماء وأنت مسؤول عمواق الأشرار. وقد روى عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى: "اذجعل فيكم أمهاء وجعلكم ملوكا" أن كل من ملك بيضة وزوجه وخدام فهم ملك وهو في المعنى صحيح لأنه بالزوجة والخدام مطاع في أمره وفي الدار محجب الا عن إذنه وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يتجاوز تبعات الزيادة إلا خوضي الحلال منه وإحال الطلب فيه ومجانية الشهبة المخالفة. وقد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال: "قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: 
القلال بين الحرام بين وبينهما أمور مشترطات فدع ما يريب إلى ما لا يريث فإن تجد فشفع تركته الله" وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال: "أما الله ليس بإضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما يزيد الله أوثيق منك بما في يديك وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها. وحكى عبد الله بن المبارك قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله الحكيم: أن استطعت أن تدع ما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام ففعل فإنه
من استوعب الحال ناقت نفسه للحرم، وقد اختفى أهل التأويل في قوله تعالى: «فان له معيشة ضنكًا» فقال عكرمة يعني كسبا حراما وقال ابن عباس: هو إنفاق من لا يوقن بالخلف. وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فاذا أحسنها رقعتها والأذان تأخذها وقيل: من قل توقبه كثرت مساوته. وقال بعض البغاء: خير الأموال ما أخذته من الخلل وصرفته في النقال وشر الأموال ما أخذته من الخلل وصرفته في الآلام وكان الأوزاعي الفقيه كثيرا ما يقتبض هذه الأبيات:

المال ينفق حلله وحرامه يوما ويوم بعدة آثامه
ليس النقى بمتقم لله حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يطيب ويكسب أمه
نطق النسيب لنا به عن ربه فعل النبي صلى الله وسلم عليه

وحكى عن ابن المعتمر السامي قال: الناس ثلاث أصناف أغنياء وفقراء
وأوساط. فالفقراء موقع إلا من أعظام الله بعس القاعة. والغنياء سكاري
الأمن من عسسه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الأوساط
وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء لسخف الفقر وبحر الغنى.

والأمر الثاني أن يقصر عن طلب كفاحه ويزيد في الناس مادته وهذا
التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه فيكون تارة كسبا وثارة توكلا وتارة
مهدى وبنفاعة كان تقصيره لكسر فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتفاء.
فإن يعده أن يكون كلا فضياء أو ضائعا شقيا. وقد روى عن النبي صلى الله
عله وسلم أنه قال: «كاد أقدر يغلب القدر وكاد الفقير أن يكون كفر» وقال
بزر جمهر: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة وإن كان شيء مثلها فالغ져 وإن
كان شيء فوق الموت فالمرض وإن كان شيء مثله فالنفر. وقيل في منصور
الحكم: القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على جمر:
عقب الصبر نجاح وغنى ورداء الفقر من نسج الكسل.
وقال بعض الشعراء
أعود بك اللهـٓ من بطر الغنى
ومن شغف البلوى ومن ذلة الفقر
ومن أمل يتزهد في كل شارق
يرجعني منه بحوزة يد صفر
إذا لم تدنسين الذنوب بعفراها
فست ألبى ما تشعث من أمرى
وإذا كان نقصه لتوكل فذلك غيرو قد أذرع به نفسه وترك حزم قد
غير اسمه لأن الله تعالى انما أمر بالتوكل عند انقطاع الجيل والتسليم إلى
c القضاء بعد الاعواس. وقد روى معاصر عن يوشع عن أبي قلابة قال:
ذكرى عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر كيفه خير قالوا يارسول
الله: نخرج معنا حاجاً فإذا نزلنا متزا لا لم يزل يصلى حتى نرحل فذا ارتحنا
لا يزل يذكر الله عن يجع حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم: فهنا كان
يكتب عليه النافذة ووضع طعامه قالوا: كما يارسول الله قال كلكم خير
منه. وقال بعض الحكماء: ليس من نوكل المهر إضاعته للظلم ولا من
اللحزم إضاعة نصيبه من التوكل. وإن كان تقشيره لزارد وتقنع في هذه
حال من علم جماعية نفسه تيَّزُهات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق
الحؤوي والقدرة فأثر الفقر على الغني وزجر النفس عن ركوب الحؤوي فقد
روى أبو داود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماماً ومطالع
فيه شمسه إلا وعلى جنبتها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كله إلا
التقشير يأتي الناس هموا إلى ربك إن مااقل وكفني خير ما أكثر وأحلو
روى زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أجمعين
أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انتظر الفجر من الله بالصبر
عبادة ومن رضي من الله عن وجل بالقليل من الرزق رضي ارتجؤه وهذا
بالقليل من العمال وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من
نيب الفقر أنك لاتتجد أحدا يعسي الله ليفترق، فأخذه محمود الوراق فقال:
يا عابث الفقير ألا تزجر عيب الغني أكثر لو تعتبر من شرف الفقر ومن فضله على الغني إن صبح منك النظر ولست تعصى الله كل تمتقر

وقال ابن المقفع:

ديلك أن الفقر خير من الغني. وأن قليل المال خير من المترى لفؤاک مخلوقا عصى الله بالغني ولم تشل عصى الله بالفقر. وهذه الحال أنما تصح من نصح نفسه فأطاعته وصدقها فأجابته حتى لا يقيدها وها أن عادته وعلمت أن من لم يقطع بالتميل لم يقطع بالكثير، كما كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يرضي الله عنهما: يا أخى من أستغني بالله أكتب نفحي ومن انتظروني إلى غيره تعНИ ون كان من قليل الدنيا لايشع لم يغنها منها كثرة ما يرجف فخيل منها بالكفاية. وألزم نفسك العنان وإياك وجمع الفضول فإن حسابه يطول. وقال بعض الحكاياء: هباهات منك الغني أن لم يقعك ماحويت فأما من أعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهد فليس إلى إكرهها سبيل ولا للعمل عليها وجه إلا بالرياضة والمروة وأن يستنفظها إلى اليسير الذي لانفرضه فذا استقرت عليه أرناها إلى ما هو أقل منه تنتهي بالتدبر إلى الغاية المطلوبه وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المجربه. وقد تقدم قول الحكاياء: إن المكروه يسهم بالتمرين فهذا أحكم ما في الأمر الثاني من التقصير عن طلب الكفاية (وأما الأمر الثالث) فهو إن لا يقع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فتقدمنا إلى ذلك أربعة أسباب: أحدها منازعة الشهوات التي لاتنال إلا زيادة المال وكثرة المسابدة فذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يصله إليها وليس للشهوات حتّى متائه فيصير ذلك دريجة إلى أن ما يطلب من الزيادة غير متانة ولم ينتنه طلبه استدام كده وتعبه فل يف التدابه بليل شهوتته بما يعانيه من استدامه كده وأتعبه.
لأبي الحسن البصري

مع ما قدرنه من ذم الانتقاد لمغالبة الشهوات والتعرض لانتشار التبعات حتى يصرّ كالمتهمة التي قد انصرف طلباً إلى ما تدعو الى له شهوته فلا تنزجر عنه بعقل ولا تتفكّف عنه بقناة. وقد روى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أراد الله به خيراً حال بينه وبين شهوته وحل بينه وبين قلبه وإذا أراد به شراً وكله إلى نفسه" وقد قال الشاعر:

وإنك إن أعطيت بطنك همة وفروج نالاً منتهى الدم أجمع

(والسبب الثاني) أن يطلق الزیادة ويتمسّك الكثرة ليصرفها في وجوه الخير وتستغبّ بها في جهات البر ويعصّب بالمعروف وينفيّها المhapus فهذا أعزّر وله جزء أخر واجده إذا انصرفت عنه تبعاته المطالبة وتوقّع شهب الاستمرار وأحسن التقدير في حائتي فائدة وإفادته على قدر الزیادة وتقدير الأمكان لأن المسأل آلة للكارم وعون على الدين ومنالأئم للاخوان ومن قعدة من أهل الدنيا كانت الرغبة فيه والربة منه ومن لم يكن منهم بموضع رغبة ولا رغبة استهانوا به. وقد روّى عبادة ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إين حساب أهل الدنيا هذا المال" وقال ماهيد: الخير في القرآن كله المال "وإنه لحبد الخير لشديد" يعني المال "وأحببت حب الخير عن ذكر ربي" يعني المال فكتابوه إنا عامتهم فيهم خيراً يعني إنا. قال شبيب: الناسه في السلام: "إني أراكما خيراً" يعني المال وانا نسب الله تعالى المال خيراً إذا كان في الخير مصريّاً لأن ما أدى إلى الخير فهو في نفسه خير وقد اختالف أهل التأويل في قوله تعالى: "ومئم من يقول رباً آتني في الدنيا حسنة وفِي الآخرة حسنة وقناع البار" فقال السدى وعبد الرحمن بن زيد: الحسنة في الدنيا المال وفي الآخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثوري: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقال ابن عباس: الدراهم والذنابير خوام العدد في الأرض لا توكل ولاتشرب حيث قصدت بها..."
قضيّت حاجتك. وقال قيس بن سعد: اللهم ارزقني حدا وجدًا فانه لاحمد
إلا بفعل ولا مجد إلا بمسائل. وقد قبل لأبي الزناد: لم تحب الدراهم وهي
tدنينك من الدنيا قال: هى و إن أدننتى منها فقد صانتى عنها. وقال
بعض الحكيماء: من أصلح ماله فقد صان الأكرمين الدين والعرض.
وقيل في مسثور الحكيم: من استغنى كرم على أهله. ومثل رجل من أرباب
الأموات ببعض العظام. فتجرك له وأكرمه فقيل له بعد ذلك: أكانت لك
إلى هذا حاجته قال: لا ولكنني رأيت هذا المال مهينا. وقال سأل رجل
ابن عطارد وعثاب بن ورقاء في عشر دبات فقال محمد: على دية وقال
عثاب: الساقى على فقال محمد: نعم العون على المجد اليسار. وقال
الأحنف بن قيس:
فلوكنت مرتى بمال كثير لحدت و كنت له باذلا
فان المروى لا تستطاع إذا لم يكن مالا فاضلا.
وكان يقال: الدراهم مراهم لأنها تداوى كل جرح ويطيب بها كل
صلح. وقال ابن الحلال:
رقصت مالا ولم ترق مروته وما المروي الأكثرة المال
فأردت رق الاليه يمعندى عما ينوه باسم رقة الحال
وقيل في مسثور الحكيم: الفقر مخزنة والغني مجزرة والبؤس مرذلة
والس أول مبذلة. وقال أوس بن حجر:
أقيم بدار الحزم ما دام حزمها وأحراذا حالت بأن أتخوؤلا
فألما وجدت الناس إلا أفلهم خاف عهود بكثور التنقلا
وإن كان عبد السيداкупه بمحفلا
وإن كان محضا في العشيرة تخوؤلا
وهم ملق مس الملال أولاد علة
وقال بشر الضرير:
كفني حزنا أنى أروح وأغتدى من مال أصون به عرضي
وأكثر ما لى الصديق برحبا
وذلك لا يكتفي الصديق ولا يرضى
وقال آخر

اجلِك قوم حين صرت الى الغني وَكَل غَنِي في الْعَيْوَن جَلِيل
وَلِيس الغَنِي إلا غَنِي زين الفقَر عَشْية يقرى أو غَدَاء يُنَال
وَقَد اختلف الناس في تفضيل الغني والفقر مع اتفاقهم على أن
ما أَحَوْج من الفقر مكره وما أَبْطَر من الغني مدهوم فذهب قوم الى
تفضيل الغني عن الفقر لأن الغني مقنُدَر والفقير عاجز والقدرة أفضل
من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباءة وذهب آخرون
إلى تفضيل الفقر على الغني لأن الفقير تارك والغني ملابس وتُرك الدنيا
أفضل من ملبستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامه.
وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأموَّم بأن يخرج عن حد
الفقر أَدَنى مُصِرِّب الغني ليصل إلى فضيلة الأندر ويسلم من مَدْحه
الحالي وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خيار الأموَّم
أوساطها وقد مصى شواهد كل فريق في موضعه بما أُفتى عن إعادته
( والسبب الثالث ) أن يطلب الزِيادة ويقتني الأموٍّا ليدحرها لولده
ويفلبه لورشه مع شدة ضنه على نفسه وكفته عن صرف ذلك في حقه
إِشْفَاقًا علِيْمًا من كَدْح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقٍّ يجمع ماأخذ
هُوُرَها قد استنحَق اللوم من وجوه لا تنقى على ذي لب ، منها سوء
ظنه بحالة أنه لا يرقيقهم إلا من جهة، وقد قيل : قتل القنوط صاحبه
وفي حسن الظن بالله راحة القلوب، وقال عبد الحميد : كيف تبقى على
حلانك والدهر في إحالته، ومنها الثقة بقاء ذلك على وله مع نوائب
الزمان ومصائبها وقد قيل : الدهر حسود لا يأتي على شيء إلا غيره، وقيل
في مثمر الحكم : المسائل ملول، وقال بعض الحكِياء : الدنيا ان بقيت لك
البتيف لما ، ومنهما حرم من منافع ماله وسلم من وفور حاله وقد قيل : إنما
مالك لك أو للوارث أو للقاينة فلا تكن أمشى الثلاثة. وقال عبد الحميد
اطرح كواذب آمالك وكَن وارث مالك. ومنها ما حققه من شقاء جمعه
وكان من عناه كده حتى صار سعياً معروفاً وجاها مذهماً وقد قال:
رب مغبوط بمسرة هي داؤد ومرحوم من ستم هوشفاؤه وقال الشاعر
ومن كلفته النفس فوق كفافها فمن ينقضي حتى اللحظات عناءه
ومنها ما يؤخذ به من وزره وأثامه ويجاسب عليه من بعاته و إجرامه.
وقد حكي أن هشام بن عبد الملك لما تقابل بكى ولده عليه فقال:
جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ماكسب وتركتم
عليه ما اكتسب ما أسوا حال هشام ابن لم يغفر الله له فأخذ هذا
المعنى محمود الوراق فقال:

تمتع بإملك قلب النار، واللاد مال إله أنت متا
شقيت به ثم خلقته بعداً وسحبا ومقتا
فخادوا على بكاء توزع الأكمام
وجدت عليهم بما قد جمعنا
وراحته كم في يديك وخلوته بما قد كسبنا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال: يا رسول الله وأتي فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عباس يا عم
نبي صلى الله عليه وسلم، قليل يكفيك خير من كثير يردبك يا عباس
يا عم النبي نفس تحيها خير، إمارة لا تخصها يا عباس يا عم النبي
صلى الله عليه وسلم إن الإمارة أولها إدامة وأوسطها ملامة وآخرها جزاء
يوم القيامة فقال: يا رسول الله إلا من عدل فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم، كيف تعدلون مع الأقارب، وقال رجل له سن الصرى
رحمته: أني أخاف الموت وأكرهه فقال он: نكت خلفت مالك ولو قدمته
لمدرك اللطاف به وقيل في منثور الحكم: كثرة مال الميت تعزى ورثته
عنده فأخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال وزاد:

أبقيت مالك ميراناً لوارثه فليت شعرى مأثوب لك المال.
لأبي الحسن البصري

القوم بعـدكم في حال تسرهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يكيك من أحد واستحكتم القول في الميراث والقال
ولتهم عنك الدنيا أقبلت لهم وأدربت عنك والأيام أحمـال
(والسبب الرابع) أن يجمع المال ويطلب المكاثرة استحالة لجمعه وشغفا
باحتجانه فهذا أسوأ الناس حالا فيه وأشتهم حراما له قدتوجهت إليه
سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه ومذام له وفي مثله قال الله تعالى :
والذين يكتونون الذهب والفضة ولا يفقونها في سبيل الله فيبشرهم
بعداب أليم فقال النـي صلى الله عليه وسلم: تبا للذهب تبا للفضة فشق
ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أي مال نتخذه قـال
عمرو رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد
شق عليهم فقالوا: أي مال نتخذه قـال: لسانا ذاكرا ولقبا شاكرا وزوجة
مؤمنة تعم أهلكم على دينه وروى شهير بن حوشبة عن أمامة قال:
مات رجل من أهل الصفة فوجد في منزله دينار فقال النبي صلى الله
عليه وسلم: كـية ثم مات آخر ووجد في منزله دينار فقال النبي صلى الله
عليه وسلم: كـية وامنا ذاك ذاك فـيها وان كان قد مات على عهد
من تلك أموالا جنحة وأحوالا ضحمة فلم يكن فيه ماكان في هذين لأنهما
تاظهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس به ما نحتاجه فصار ما احتاجنا
وزوا عليهما وعطاها لها وقد قال الشاعر:
اذا كنت ذالما ولما تكون ذائدا فانت أذا والمقترنين سواء
على أن في الأمـوال يوما تباعة على أهلها والمقترنين براء
وأنشدت عن الربع للشافعي رضي الله عنه:
إن الذي رزق السار فيلم يصب حدا ولا أجاز لغير موفـق
والحسـة يدلى كل شيء شاـعـر
وأحق خلق الله بلـهـم أمره

ذوـهـة عـليا وعيش ضـيق
ومن الدليل على القضاء وكونه حقًا، نعم أن مجدداً، كيف فاوض في يده فائق، وإذا سمحت بأن مجدداً، أي ماء ليس له فائق فصاعد إلى آخر من يلي بألجى والاستكبار، ومن ثم بالأسماك والآذان حتى انصرف عن رشده، فنائي واخدف عن سين قضده فهو أن يستوى عليه حب المال، وبعد الأمثل فيعبه حب المال على الحرص في طلبه، ويدعوه بعد الأمثل على الشجع به، والحرس والشجع أصل لكل ذم وسبب لكل لوم لأن الشجع يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوب، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: شر ما أعطي العدو نسيج. وإله وجب خالق. وقال: بعض الحكاء: الفناء البحبيل كالفأي الجبان. وإنما الحرص فيسب فضائل النفس لاستيلائه عليها، ويبعث من التوفر على العبادة لتشاغله عنها، ويبعث على التوزع في الشهات للفتحه تحرزه منها. وهذه ثلاث حالات هن جامعات الرواة والكلام سالب الفضائل مع أن الحرص لا يستفيد بحرسه زيادة على رزقه سوى إذلال نفسه وإخفاق حالته وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحرص الجاهد والتفنن الهاش الثانية، استوفينا إكلاله، غير مستقصية من فعلام التفاوت.

وقال بعض الحكاء: الحرص مفسدة للدين والمروة والله ما عرفت من وجه رجل حرصاً فرأيت أن فيه مصطفنا، وقال آخر: الحرص أسرار مهانة ليفت أسره. وقال بعض البلاء: المقصد الغالي لانتال بالمغالبة، والأزواج المكتوبة لانتال بالشدة والمجملية فذاذ للفقد، رفيسك وعلم أنت غير تأيل بالحرص الآ حظك، وقال بعض الأدباء: رب حظ أدرك غير طالبه ودّر أحرزه غير حالبه. وأنشد من بعض أهل الأدب محمد بن حازم:

يا أسير الطمع الكا ذيب في غل الهوات
إن عن اليس خير مكن ذل الأماني
لافي الحسن البصري

ساحل النهر إذا عزز وخذ صحو الزمان
ربما أعدم ذو الحس ص وأثير ذو التوانى
وليس للعرض غاية مقصودة يقف عنها ولا نهاية محدودة يقع
بها لأنه إن وصل بالعرض إلى ما أمل أغراء ذلك زيادة الحرص
والأمل وإذا لم يصل رأي إضاعة العنان لوما والصرح عليه حزنا وصار
بما سلفه من عهنه أقوى رجاء وأبسط أملا . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ياشيب ابن آدم وبيق معه خصائص
الحرص والأمل» وقال للسيح عليه السلام: ما بال المشايخ حرص على
الدنيا من الشباب فالأنهم ذعوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب . ولو
صدق الحرص نفسه واستنصح عقله علم أن من تمام السعادة
وحسن التوفيق الرضا في القضاء والقاعة بالقسم ، وروى عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال: "اقتصدوا في الطلب فان ما رقصتموه اشتد طببا
لكم منكم له وما خفتموه فان تناداوه ولو حرصتم" وروى أن جبريل على
تبيين وعلى السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله
تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويلعول لك : اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم
ولا تذذ بعينيك الى ما تمعنا به أزواجهم منهم زهرة الحياة الدنيا لتنتمهم
فيه ورزق برك خير وأبقي فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا
إذا لم ينادب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .
وقيل مكتوب في بعض الكتب: ردوا أبصاركم عليكم فإن لكم فيها
شغلا . وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى: "فلتحتينه حياة طيبة" قال
بالقاعة . وقال أكثم بن صبيح : من باع الحرص بالقاعة ظفر بالغني
والمرأة . وقال بعض السلف: قد يخيب الجاهل الساعي ويشود الوادع
المبدي فأخذه الحبترى فقال :
لم ألقى مقدورا على استحاقته . في الحظ إما نقصانا أو زائدا
وتحت حدود يحرم ناصية كلاف وللمجدود ي نفس قاعدة
ماخطب من حرم الإرادة قاعدة خطب الذي حرم الإرادة فجاهدا
وقال بعض الحكفاء: إن من قنع كان غنيا وإن كان مقترا ومن لم يقنع
كان قفيرا وإن كان مكترا. وقال بعض البلغاء: إذا طلب العز فاطله
بالطاعة وإذا طلب الغني فاطله بالفناعة فإن أطاع الله عن وجل عن
نصره ومن لزم القناعة زال فقره. وقال بعض الأدباء: القناعة عن المعسر
والصدقة حز الموسر. وقال بعض الأدباء:
إلى أخرى من له فنوع يدرك ما نال من تمنى
والرزق ياقت بلا عشاء وربما ذات من تمنى
والفناعة قد تكون على ثلاثة أوجه: فالوجه الأول أن يقنع بالبلغة
من دنياه ويرفع نفسه عن التعرض لما سواه وهذا أعلى منازل
أهل القناعة وقال الشاعر:

"لا يشع أن تحل غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونه
وأما مالك بن دينار: أجهد الناس من لا يتجاوز رفته من الدنيا
بلغنه وقال بعض الحكفاء: الرضا بالكنفؤ يؤدي إلى العفاف. وقال
بعض الأدباء: رب ضيق أفضله من سعة وعداء خير من دعاء.
وأنشدنا بعض أهل الأدب وذكر أنه لعل بن أبي طالب كرم الله وجهه
أفادت القناعة كل عن وأي غني أعن من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعه
والوجه الثاني أن تنتهي به القناعة إلى الكفاحا ويدفع الفضول
والزيادة وهذا أوسط حال المقنع. وقد روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم أنه قال: "ما من عبد إلا بناء وبين رزقه حجاب فإن قنع واقتصاد
بُهٰـة رزقه وإن هَـنكَ الحجاب لم يَـد في رزقه" وقال بعض الحكفاء: طلب
لأبي الحسن البصري

ما فوق الكفاف إسراف. وقال بعض البلغاء: من رضى بالمقدور قنع
بالميسور. وقال البحتري:

تطلب الأكبر في الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالأقل.

وأنشدت لا براهم بن المدير:

إن القناعة والفعا
ف ليغنيان عن الغنى.

فأذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى.

والوجه الثالث أن تتبنى إله القناعة إلى الوقوف على ما تست난 فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيئا.

وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة: أما الرغبة فلا أنه لا يكره زيادة على الدنيا إذا سئحت. وأما الرغبة فلا أنه لا يطلب المتذعر عن نقصان المسادة إذا تزمرت.

وفي مثله قال ذو النون رحمة الله عليه: من كانت قناعته سمنية طابت له للمرقة.

وقد روى الحسن بن عل عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأمن دارها داو، ما كان منها لك أن تأكل على ضعفك وما كان منها عليك لم تدقع بقوتك ومن اقطع رجاوه ما فات استراح بدنك ومن رضى بما رزقه الله تعالى قربت عينه" وقال أبو حازم الأعرج: وجدت الدنيا شئين: شيئا هو لئن أجعله قبل أجله، ولو طلبته بقوة السموات والأرض وشيئا هو لميراي وذلك مما لم أنته فيه ما��انه. ولا أنهم فيه بق.

ينعم الذي ل من غيري كما ينعم الذي لميراي مني فهى أى هذين أشقى عمري واهلتك نفسى. وقال أبو تمام الطائي:

لا تأخذني بالزمان فليس لي
من كان مرعي عنى وهمومة
روض الأمانى لم يزل مهيزولا
في الخلق ما كان القليل قليلا
تبعا ولمست على الزمان كفيلة
لو جار سلطان القنوع وحكه
الرجز لا تحكمه عليه فانه
بأى ولم تبعث اليه رسوله.
أدب الدنيا والدين

وأنشدني بعض أهل الأدب لابن الرومي:
جرى قلم القضاء بما يكون فسـيـان الـحـرك والـسـكون
جِنْوَ مِنْكَ أَن تـسـعى لـزـقٍ وـبَرْقَبَ في غـشاوَـتِهـ الـجـنِين
وـحـنَ نـسـال آلهـا تـعـالِ أَكْرَمُ مَسْتَوْل وَأَفْضِـلُ مَأْوَـلٍ أَن يَحـسَنُ الـبَـنا
التوفيقِ فِـي مُنْحٍ وَيـصِـرَ عـن الرَّغـبة فِيـا مَعَ إِسْتِكْـفا ف لـتـبـعَـاتِ الـنُّـروْـة
وـموْبـاقَتِ الشـهْوَة، رُوَيْ شرـيـكٌ بـن أبـي ثـمَرُ عـن أـبـي الـجـذـع عـن أـعـمَـهـ
وـأَجـدـادـهُ عـن النـبِيّ صـلِّى عـلـيـه وـسَلَّمَ أَنَّهُ فَـاْلَ: "خِـيْرُ أَقْتِّـلِ الـذِّـين
لَم يُعْطِـوْـا حَتَّى يَبْطِـرَوْـا وَلَم يَـقْـرِّـبْـوْـا حَتَّى يَـمِـسَـلُّوا" وَقَالَ أَبُو تَـيَـمَّـامِ الـطَّـاَـئِـنَـ: 
عَنـسَدَـيا مِنَ الـأَيَـمَّـا مَا لَوْ أَنَّهُ أَجْمَـحَ بـمُـتَّـبِـعِـمَا مَـعَـماـ وَدُـفَـقَـعَـمَا
لَـاتِـطْـلِـبِ الرَّـزـقِ بـعـدْ شَـمَـسَـهُ فَتَـرَيْـنَـمُهُ شَـمَـسَـاَـا أَمَا مَـعَـهَا
مَا عَوْـىُّ الصِّبْـرِ اـمْـرَأَـا رَأَيَـا مَـا فَـاْثَهُ دُونَ الـذِّـى قَدَ عَوْـىُّـا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم أن النفس مجبولة على شتى مهملة وأخلاقيات مرسلة لابتعنـى
مجمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضى منها عن التنديد لأـب
مجمودها أضدادا مقبولا يسعدها هوى مطاع وشهوة ذالك فإن أغفل
تأديبها تفوـيـضا إلى العقل أو توكـا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع
أخذه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائرين فصـاء
من الأدب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لأن الأدب مكتسب
بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكـل قوم موضعة وكل ذلك لا ينال
بتوقف العقل ولا القياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة
ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيا وزكي الطبع عليه
مساما مـلوك العقل مغنية عن الأدب لكان أنياء الله تعالى عن أدهـ
مستغنين وبقوهم مكتفين. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال: «بعثت لا توما مكارم الأخلاق» وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعلى السلام: من أذبك قال: ما أذبك أحد ولكن كنت أرى جهل الجاهل بفانيته. وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: أن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنبها وسلا سلام بينه وبينكم مسند الرجل أن يتصل من الله تعالى بجمال منها. وقال أرشديقر بن بابكر: من فضيلة الأمام أنه مدعو بكل لسان وицыين به في كل مكان وباذ ذكره على أيام الزمان. وقال مهدود شبه العالم الشريف العظيم الأمام بالبيان الحراب الذي كان علاجها كان أشد لوحشه ونهر الباب الذي كان أعرض وأعقم كان أشد لوعورته وبالأرض الحليدة المعطلة التي كان طال نحوها ازدراء نباتها غير المنتفع به آينافا في ضل للهوم مسكتا. وقال ابن المقفع ما نحن إلى ما نفؤه به على حالها من المصموم والمشرب بأحوج منا إلى الأمام الذي هو لافج عقولنا فإن الحلي المدفونة في الثرى لا تنذر أن تطيل زهرتها وإن ضارت الابناء الذي يعود إليها من مستودعها. وحقى الأضرامي رحمه الله تعالى أن أعرضا يا قال لا إنه: يا أدم الأمام دعامة أباد الله بها الألباب وحليمة زين الله بها عواطف الأحساب فالعاقل لا يستغنى فإن صمت غربته عن الأدب المخرج زهرته كما لا تستغني الأضار وإن وضعت عقولها عن الشعر المخرج ثمرتها. وقال بعض الحكفاء: الأدب صورة العقل صورة عقلك كيف شئت. وقال آخر: العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الأدب كالشجر المنشر. وقال أدم أحد المحصرين. وقال بعض البلاء: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحلف لآن من ساء أده ضاع نسبه ومن سل عقله على أصله. وقال بعض الأدباء: ذلك قلبه بالأدب كما ذكرنا النار بالحطب. واخذ الأدب غنا والحريص عليه حظا يتجهك راغب ويخاف صوتك راهب وتومل نفخك ويربح عملك. وقال بعض العلماء: الأدب وسيلة إلى كل
فضيلة وذريعة إلى كل شريعة وقال بعض الفصحاء: الأدب يستمر قبيع النسب. وقال بعض الشعراء فيه:
فما خلق الله مثل العقول ولا أكتب الناس مثل الأدب وما كرم المسؤول إلا التنين ولا حسب الموارد إلا النفس وفي العلم زمن لأهل الحجا وآفة ذى الحلم طيش الغضب
وأناشد الأسمى رحمة الله:
وإن بك العقل مولود فلست أرى إلى رؤيتهما كلاما مختلطا وحلا من أخطائه في ووالده عطية العقل حاكي البهيم في الحسب والتدابير يلزم من وجهين: أحدهما مالوم والود لولده في صغره، والثاني ما لزم الإنسان في نفسه عند نشأته وكبره. فأما التدابير اللازم للأب فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليناس بها ويشأ عليها فسهم عليه قبولها عند الكبار لاستئنافه بمبادئها في الصغر لأن نشأة الصغير على الشيء تجعله متعلقا به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبير عسيرا. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما أخيل ولده ولده تعلمه أفضل من أبد حسن يفده إياء أو جهل قبيع يكبه عنه ويمنه منه" وقال بعض الحكاء: "بادروا بنابذيب الأطفال قبل تراكم الأشغال وتفرق البال، وقال بعض الشعراء:
إنه الغضون إذا قومته اعتردت ولا يلين إذا قومته الخشب قدبين أعاب الأحداث في صغر وليس ينفع عند الشيبة الأدب وقال آخر
ينشو الصغير على ما كان والده، إن الأصول عليها ينبت الشجر وأما الأدب اللازم للاسان عند نشأته وكبره فأدان: "ابد مواضعة واصطلاح، وأدب رياضة واستصلاح. فأما أدب المواضعة"
لا بيح الحسن البصري

والاصطلاح فيخذ تقليداً على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسن الأدباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقيهم على استحسن أنه دليل موجب كاصطلاحهم على مواقف الخطاب واتفاقيهم على هيئات اللباس حتى أن الإنسان الآن إذا تجاوز ما اتفقا عليه منها صار جدنا للأدب مستوجبًا للذم لأن فراق المألوف في العادة وجنبية ما صار متفقا عليه بالواضعة مفصول إلى استحقاق الدم بالعقل ما لم يكن مخالفته علة ظاهرة ومنعي حادث وقد كان جائزاً في العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقا عليه فيرونه حسناً ويرون ما سواء قبيحاً فصار هذا مشاركاً لما وجب بالعقل من حيث ترهج الدم على تأكده ومخالفة له من حيث أنه كان جائزاً في العقل أن يوضع على خلاقته وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهوما كان محدوداً على حال لا يجوز في العقل أن يصبح نخلاً ولا أن تختلف العقول في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليمه بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط بالنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألمها الله تعالى إرشاداً لما قال الله تعالى: "فالهم بفؤدها وفتها وفتها". قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينهما ما تأتي من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليمه كل شيء في موضعه فإنه أولى به وأحق فأقول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق إلى حسن الظن بنفسه في خفيه عنه مذموم شبه ومساوي أخلاقه لأن النفس بالشهوات أشره وعن الريش زاجه. وقد قال الله تعالى: "إن النفس لامارة بالسوء" وقيل صلى الله عليه وسلم: "أعدى أعدائكم نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك" ودعت أعرابية لرجل فقالت: كتب الله كل عدو لك إلا نفسك فأخذ بعض الشعراء فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي. يحكم استقامًا ووجاعي
كيف احتراسى من عدوى إذا كانت عدوى بين أضلاعى
فأذا كانت النفس كذلك فليس الظلم بها ذريعة للتحكيمها
وتحكمها داع إلى سلاطتها وفساد الأخلاق بها فاذا صرف حسن الظلم
عنها وتوسيعها بما هي عليه من التسويف وال leer فاز ببطاعتها وألغى عن
معصيتها. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الحاجر من حجر
عن سياسة نفسه. وقال بعض الحكاء: من ساس نفسه ساد ناسه.
فأما سوء الظلم به: فقد اختلاف الناس فيه فمنهم من نكره لما فيه
من اتهام طاعته ورد منا صحته فإن النفس وإن كان لها مكر يرى فلها
نصح يد الامة كان حسن الظلم بها يعنى عن مساوئها كان سوء
الظلم بها يعنى عن محسنتها. ومن يعنى عن محسن نفسه كان كمن يعنى
عن مساوئها لم ينف عنها فيحنا ولم يهد إليها حسنة. وقد قال الحافظ
في كتاب البيان يجب أن يكون في التحمة لنفسه معتدلا وفي حسن
الظلم بها مقتضب. فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التحمة ظامها فأودعها
ذلبة المظلومين وإن تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظلم أودعها
تهاون الآمنين. ولكن ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من
الوجوء ولكل وجء مقدار من الجهل. وقال الأحنف بن قيس: من ظلم
نفسه كان لتهرب أظلم. ومن هدم دينه كان لمجرد أنهدم. وذهب قوم
إلى أن سوء الظلم بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها لأن لنفس
جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف إلا بالتهمة لها
لأنها محبوبة تجور إدالة وتغر مكا. فإن لم يرئ الظلم بها غلب عليها جورها
وقوض عليه غرورها فصار يمسورها قانعاً والشبهة من أعفاؤها راضياً
وقد قلنا الحكاء: من رضى عن نفسه أنخط عليه الناس وقال كناجح:
لم أرض عن نفسه محافة سخطها ورضا الفتي عن نفسه إغضاءها
ولو أنتى عنها رضيت لقصرت عمراً تزيد بشمله آدابها.
لأبي الحسن البصري

وقد استحسن قول أبي تمام الطائي:

ويقال بالابحاثة أن لا كان هو بابنه، ويشمر مفتون

لم يروا إساءة به الابحاثة، إذا لا استقلال عمله لؤمًا بل
رأوا ذلك أول في الفضل وأبعد على الازدياد. فإذا عرف من نفسه
هانجى وتصور منها ما تمكن ولم يطاوعها فيا تحب إذا كان غفا ولاصرف
عنها ما تكره إذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان في ملكها وغلبها.
بعد أن كان في غلبيها. وقد روى أبو حامد عن أبي حمزة رضي الله
عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشديد من غلب نفسه.
وقال عون بن عبد الله: إذا عصب نفسك فيها كرهت فلا تطلعها، فبأحببت
ولا يغريك شاء من جهل أمرك. وقال بعض البلغاء: من قوى على
نفسه تناهي في الفؤاد ومن صبر عن شهوة بالغ في الرموح فخيرت أخذ
نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرت ما أجنب بتقويم عوجها وإصلاح
فسادها. وقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت يارسول الله: منى
يعرف الإنسان فيه قال: إذا عرف نفسه ثم يراى منها ما صلح واستقام
من زين يحدث عن إغفال أو ميل يكون عن إهدال ليلته له الصلاح
وستديم له السعادة. فان المغفل بعد المعاناة ضائع، والمهم بعد المراعاة
ذائع، وستذكر من أحوال أدب الريادة والاستصلح فصولاً تحتوى
على مايلزم مراعاته من الأخلاق ويدب معاناته من الأدب وكي ستة
فصوص متفرعة:

(الفصل الأول) في معاينة الكبار والإنجاز لأنهم يسلبان الفضائل
ويكسبان الرذائل. وليس من استواريا عليه إصعاف لتصبح ولا قبول للأمرين
لأن الكبار يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة. فالمكبير يجل نفسه
عن رتبة المتعلمين، والعجب يستكرر فضله عن استرادة المتدرين فلهذا
وجب تقديم القول فيما يادية ما يكسبه من ذم ويوجبه من لوم فتقول:
أما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن التالف ويوغر صدور الاخوان
وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه. ولذلك قال النبي صلى الله عليه
 وسلم لعمه العباس: أنتاك عن الشرك بالله والكبر فإن الله يحبب ومنهما
وقال أبديشر بن أبيك: ما الكبر إلا فضل حق لميدر صاحبه أي يذهب به
فيصرفه إلى الكبر وما أشبه مقال بالحق. وحكى أن مطرف بن عبدالله
ابن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعلىه حلة يسجها ويشي الحلياء
 فقال: يا أبا عبد الله ما هذه المشيئة التي يغضها الله ورسوله فقال المهلب: أما
تعرقني فقال: بل أعرفك أول نطفة مذرة وأحرك جيفة قذرة وحشوك
فيا بين ذلك بول وعذره فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرًا فقال:
عجبت من معجب بصورته
وفي غد بعد حسن صورته
يصبر في اللح جبينه قدره
وهو على تيهه وتحتهما
ما بين تو بيه يحمل العذره
وقد كان المهلب أفضل من أن تخدع نفسه بهذا الجوام ولكنها زلة
من زلات الاسترسل وخطيئة من خطايا الادلائل. فأما الحق الصريح
والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع بن جبير بن مطميم أنه جام في حلقة
العلاء بن عبد الرحمن الخزاعي وهو يترؤ الناس فلما فرغ قال: أندرون
لمجلسك اليم قالوا: جامع لسمع قال: لا ولكن أردت أن أتوافق
له بالله اليم فين يرجى من مثل هذَا فضل أو ينفع فيه عذل
وقال ابن المعتر: لما عرف أهل النقص حائم عند ذوى الكمال
استعانوا بالكبر ليعظم صغيراً ويرفع حقيباً وليس بفاعل
وأما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوئ ويكسب المذام
ويصد عن الفضائل. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"إن العجب ليا كل الحسنات كما أكل الناس الحطب". وقال علي بن
أبي طالب كرم الله وجهه: الإعجاب ضد الصواب وآفة الأئلاب وقال
فزرجهم: الوعمة التي لا يجسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم
صاحبته منه العجب. وقال بعض الحكاءاء: كحب المرء بنفسه أحد
حساس عقله. وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حذولا إلى ما يتيح
اليه العجب من الجهل غاية حتى أنه ليطني من المحاسن ما انثر وينشب
من الفضائل ما مشتهر ونتاهيك بسبيئة تخبط كل حسنة ومذمة تهدم كل
فضيلة مع ما يثيره من حقق ويكسه من حقد. حكي عمر بن حفص
قال: قيل للعجب: كيف يوجد متزلج بالعراق قال: خير منزل لوكأن الله
ب أعلن قتلت أربعة فتى فثبت اليه بدمائهم قبج. ومن هم قال: مقاتل بن مسمع
والي صقانن فأثاث الناس فأعطاهم الأموال فلما عزل دخل مسجد
البصرة فوسط الناس له أردتهم فتى عليها وقال لحول ياشبهه: مثل هذا
فليعمل العاملون. وعبد الله بن زياد بن ظبيان النبي خواف أهل البصرة
أمره نفط خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعرس المسجد
أكثر الله فيها مثله فقال: لقد كلفتم الله شيطانا. ومعبد بن زرارة كان
ذات يوم جالسا في طريق فرته به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف
الطريق إلى موضع كذا فقال: يا اهتائه مثل يكون من عبيد الله.
وأبو شمال الأسود أصل راحته فاتسمها الناس فلم يجدوها فقال: والله
ان لم يرد إلى راحله لا صلى له صلاة أبدا فاتسمها الناس فوجدوها
فقالوا: قد رد الله راحلتكم ففعل فقال إن يميين في مصر. فانظر إلى
هؤلاء كيف أفضى لهم العجب إلى حق صاروا به نكالا في الأولين
ومضلا في الآخرين. ولو تصور المعجب المتكب ما فطر عليه من جبلة
وبل به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا
من نفوره. وقال الأخفف بن قيس: مجبت من جرى في مجرى البول
مرتين كيف يتكرر وقد وصف بعض الشعراء الأنسان فقال:
يا مظهر الكبیر إجابة بصورته
لو فكر الناس فيما يبطونه
ما استشعر الكبیر شبان ولا شیب
وهو بحس من الإقدار مصروب
إنف يسيل وأذن ريحها سهك
والعين مرفضة والغفر ملوعوب
أقصر فانه ما كول ومشروب
وأحق من كان للكبیر مجانا
والعجب مشابه من جل في الدنيا قدره
وعظم فيها خطره لأنه قد يستقل بالى همه كل كثير
والكبير، وقال محمد بن علي:
لا ينبغي للشريف أن يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطيرة فيكون
مهايئا بها.
وقال ابن السباق لعيسى بن
موسي: تواضعل في شرفك أشرف لك من شرفك
وكان يقال اسمان
متصادبا بمعنى واحد: التواصل والشرف
ولكن يكبر أسباب من أقوى أسبابه علوي اليد وقوذ الدار وقبة محاطة
الأكواد.
وحتى ان قوما مشوا خلف على ابن أبي طالب رضى الله
عنه فقال: أبعدوا عن خفق تجالك فانها منسدة لتقوب نوكي الرجال
ومشوا خلف ابن مسعود فقال:
ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للتبوع.
وروى قيس بن حازم أنب رجلا أنى به للنبي صلى الله عليه وسلم
فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم: هؤلاء عليك أما أنا ابن
امرأة كانت تأكل الفديد واتى قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسبا
لماواج الكبیر وقطعا لذريائ الاعجاب وكسا لاسراف النفوس وتذيلًا
لسطوة الاستعالة.
ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضى
الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المبدر فحمد
الله وأبقى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال: أيها الناس
لقد رأيتني أرتى على مسافاتشي لم ينبع مخوم فيضمني الفضية
من التمر والزبيب فأظل اليوم وأى يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف:
والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال عمر رضي الله عنه: وياك يا عوف انك خلقت حديثي نسي فقتلت: أنت أمير المؤمنين. فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعزمها نفسها. وللإجابة أسباب: فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقن بين وإطارات المتملقين الذين جعلوا النقاش عادة ومكسبا والتفاق خديعة وملعبا فإذا وجدوه متقولا في العقول الضعيفة أعقوا أرباحها بعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يركب رجلا فقال له: قطعت مطاط لسمعها ما أفجع بعدها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المديح جذبه. وقال ابن المتقن: قابل المديح كادح نفسه. وقال بعض الحكاء: من رضى أن يمدح بما ليس فيه فقد أمك الساخر منه. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إياكم والتقاء في من كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل أحاسب ولا أزرعي على الله أحدا»، وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالمة: عجب من قبل فيه الخبر وليس فيه كيف يفرح وعجب من قبل فيه الشر وهو في كيف يغضب. وقال بعض الشعراء:

باجاهلا غضرب إفراط مادحة لا يغلب جهل من طرلك عامته بك أنت وقال فلا عالم أحاط به وأشار أعلم بالمحيض من ريبك وهذا أمر ينبغي للعقلان أن يضبط نفسه عن أن ينسفها ويمنعها من تصديق المديح لها فان للفتنة مليا لحذ النداء وسمع المديح. وقال الشاعر:

يهوى الادعى مبرز ومقصور حب التنا工匠اء طبيعة الإنسان
فدا ساح نفسه في مدح الصبيحة وتباعها على هذه الشهوة تشاغل
باء عن الفضائل المدورة ولها بها عن المحاسن المنوحة فصار ظاهر
من مدحه كدبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق
أذن الأمراء و هذه خدعة لا يرضيها عاقل ولا يخدع بها مميز. و يعلمن
أبن المتقرب بالمقدح يصرف مع القبول ويكلف مع الأباء فل يغلبه
حسن الظن على تصديق مقدح هو أعرق بحقيته وتلك تهمة المقدح
أغلب عليه فقل مقدح كان جميعه صدق واقول ثناء كان كله حقاً ولذلك
كره أهل الفضل أن يطلقوا أسنتهم بالثناء والمقدح تحرز من التجاور
 فيه وتنزيلها عن التلقائ به و قد روى مكحول قال: قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم: "لا تكونوا عبايين ولا تكنوا عيانين ولا متامدين
ولا مظايين". وحكي الأصمي: أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان
اذا مهد قال: اللهم أنت أعلم في من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم
اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعمن ولا تؤذني بما
يقولون. وقال بعض الشعراء:

إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله فادعه يدوى و إن كان منصحا
ورى يا حب المقدح بصاحبه إلى أن يصير مقدح نفسه: إذا
لتوهبه أن الناس قد غفلوا عن فضله وأخذه بخته، إلا إذا ليخدعهم
بتدليس نفسه بالمقدح والأطراء يعتقدون أن قوله حق متع وصدق
مستمع. وإذا لتدلي بسبع العنا وسرور نفسه بالمقدح والأطراء كما
يتنغى بنفسه طرباً إذا لم يسمع صوتاً مطرباً ولا غناء متعاً ولاي
ذلك كان فهو الجهل الصحيح والنقض النافذ. وقال بعض الشعراء:

وأما شرف أن يمدح المرء نفسه ولكن أعمالاً نذكر وتندح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ولا كل أصحاب التجارة يرج
ولا كل من ترجو لغيبك حافظاً ولا كل من ضد الوثيقة يصلح
و ينبغي للمعاق أن يستثب إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب
ومرايا الخاسن والعبوب على ما يينونه عليه من مسائيه التي صرفه
حسن الظن عنها فإنهم أمكن نظراً وأسلم فكراً ويجعلون ما يينونه عليه
أدب الدنيا والدين

(الفصل الثاني في حسن الخلق) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله تعالى اختار لكما الإسلام دينًا فأكرموه بحسن الخلق والمغفرة فإنه لا يكلم إلا بهما". وقال الأحنف بن قيس: "أنا أخبركم بأمر إملاء قالوا بلى قال: الخلق الدنيء والسنن البديعة قال بعض الحكاء:
من ساء خلقه ضاق رزقه وعمر هذا التول ظاهرة وقال بعض البلغاء:
حسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسيئ الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عنا. وقال بعض الحكاء: عاشر
أهلك بأحسن أخلاقك فإن النواء فيه قليل. وقال بعض الشعراء:
إذا لم نتعلم أخلاق قوم تضيق بهم في سيئات البلاد
إذا ما مسارد لم يخلق لي بيا فليس اللب عن قدم الولد.
فإذا حسنتم أخلاق الإنسان كثير مصافوه وقلت معاود فقساهت
عليه الأمور الصعبة وللائه على الفئركة. وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حسن الخلق وحسن الجوار
عبر من الدنار ويزيدان في الأعمال". وقال بعض الحكاء:
من سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الأصفياء
المسيفين وقلة الأعداء المحيدين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"أحبحكم أن أحسنكم إخلاقاً الموظفين أكثافاً الذين يألقون ويتلون
وسام الخلق أن يكون سهل العريكة ابن الحسن طاق الجرح ودهل
الفؤاد طيب الكمال. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه
الأوصاف فقال: "أهل الجنة كل هم ابن سهل طاق". وما ذكرنا من
هذه الأوصاف حدود مقددة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر:
أصفر وأذكر أحيا لمن خبرى وليس مستحسنًا صفو بلا يد
وليس يريد بالكدر البذاء وشراسة الخلق فإن ذلك دم لا يستحسن
وعيب لا يرتبث وإنما يريد الكف والانقباض في موضع يلام فيه.
لأبي الحسن البصري

المساعد ويذم فيه الموافق فذا كانت محاسن الأخلاق حدود مقدّرة
ومواضع مستحقة فإن تجاوز بها الحد صارت ملحاً وإن عدل بها عن
مواضعها صارت متافقاً والملتق ذل والنفاق لم يلبي لم ين مهماً وذ
مثير ولا أثر مشكور. وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قالت: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي
هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه". وروى مكحول عن أبي سفيان قال: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي لذئب الوجهين أن يكون
وجهها عند الله تعالى". وقال سعيد بن عروة: "لأن يكون لي نصف
وجه ونصف لسان على ما فيهما من قلب المنظر وحجز الخبر أحب إلى
من أن يكون ذئب وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين. وقال الشاعر:
خَلِّف النافق لأهله وعليك فالتنس الطريقة
وأرغب بنفسك أن ترى الا عدوًا أو صديقاً

وقال إبراهيم بن محمد
كما من صديق وذو باسانة
خُورون بظهر الغيب لا يتذكرى
يضحكى كتابه إذا ما قيلت به
فتمتغنى期内 واعج مصباح وعلو
كذلك ذو الوجهين يضحك شاهداً
وفي غيبه انغبا صاب وعلو

ورما تغير حسن الخلائق والوطاء إلى الشراسة والبذء لأسباب عارضة
وأمور طارئة تجعل الليل خشونة والوطاء غلطة والطلاقة عبوسا. فمن
أسباب ذلك الولاية التي تحدث في الأخلاق تغيراً وعلى الخلافة تنكر
إما من لبّ طبع وإما من ضيق صدر. وقد قيل: من تاذ في ولايته
ذل في عزلته وقيل: ذل العزليضحك من تهيه الولاية. ومنها العزل
فقد يسوء منه الخلاق ويضيق به الصدر إما لشدة أسف أسوأ لقلة صبر.
حكى حمود الطويل: أن عماد بن إسحاق سلم عن ولاية فاستغث ذلك
عليه وقال: إلى وجدتها حلوة الراضع مرة القطام. ومنها الغني فقد تنغير
أدب الدنيا والدين

"به أخلاقي اللطيف بطرأ وتسوء طرائفه أشرًا، وقد قيل: من نال استطال وأنشد الراشى: غضبان علم أن المال ساق له، لا يسقته له دين ولا خلق فلن يكن عن كرام الناس يسألة، فأكرم الناس من كانت له ورق وقال بعض الشعراء: إنّ تكن الدنيا أنت تلك ثروة، فأصبحت ذايسا وقد كنت ذاعسن لقد كشف الإثراء منك خلافاً من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر، وربما ما أفسده الفنى كذلك يصاحب الفقر، وكتب قبيبة بن مسلم إلى الخاجج أن أهل الشام قد نائوا عليه، فكتب إليه أن أقطع عليهم الأرزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا إليه فقالوا: أتى فكتب إلى الخاجج فكتب إليه إن كنت تستم منهم نشدا فأجر عليهم ما كنت تجري، وأعلم أن الفقر من جهد الله الأكبر يذل به كل جبار عينه ستكبر، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ولأ أن الله تعالى أذل ابن آدم بشتى ما طأطا رأسه لشيء الفقر والمرض والموت" ومنه الفقر فقد يغري به الخلق إما أنفه من ذل الاستكانة أو أنسفاً على فائت الغنى، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر". وقال أبو تمام الطائي: "واعجب حالات ابن آدم خلقه، يضل إذا فكرت في كنه الفكر، فيفرق بالشيء القليسل بقاؤه، يجعع مما صار وهو له ذخر، وربما تسيل من هذه الحالة: بالأمانى وانقل صدقها فقد قيل: فاما تصدق الأمنية ولكن قد يعتض بها سلوا من هم أو مسيرة برجاء. وقد قال أبو العطاهية: حرك مناك إذا اغتمست فانه مراوح"
أبو الحسن البصري

 وقال آخر

"إذا تمت يت لابي مغطياً. أن المنى رأس أموال المقاليس
وتنصيحة الفضيلة تسهيل اللب وتتصلق القلب فلا يتتب الإختال
ولا تقوى على صبر. وقد قيل: "الحين كيس حم." وقال بعض الأدباء: الحزن
كالدهاء المخزون في فؤاد المهزاو. وقال بعض الشعراء:

"هومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم
إذا تم أمر بذا تقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم
إذا كنت في ضعمة فارعها فان المعاصر تزيل النعم
وحمام عليها بشكر الإله فان الله سريع النقم
حلك يفنيك مسومة فا تأكل الشهد إلا بسم
فك فكم قدرب في مهيلة فلم يعلم الناس حتى هجم
ومنها الأمراض التي يتغير بها الطبخ كما يغير بها الجسم فلا تبقى
الأخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على اختال. وقد قال المتقي:

"آلة العيش صحة وشبيب. فا إذا ولياً عن الماء ولي
أبداً تستدر ما تهرب الدنيا. فتاء جودها كان يخلا
ومنها علق السن وحذاء المحرم لتأثر فيه الحسد. كذلك يكون تأثيره
في أخلاق النفس فيما يضعف الحسد عين احالت ما كان يطيقه
من أثقال فكذلك آفعز النفس عن أثقال ما كنت تصاب عليه من مخالفة
الوفاق ومضيق الشقاق. وكذلك ماضاه. وقال منصور الغزير:

"ما كنت أوفي شبابي كنه عزته. أصبحت لم تطمعي نكول الشباب ولم
أنب حلاوة ذكرائه التي تدع
الا لحا نبوة عنه ومرتدع
ولا يعزي أن العمر منقطع

(8)
هذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاها. وهنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنصرف منه النفس فتحدث نفرا عن المغضض فيقول إلى سوء خلق يخصه دون غيره فإذا كان سوء الخلق جاد ثان بسبب كان زواله مقرورا بزوال ذلك السبب ثم بالضد (الفصل الثالث في الحياة) أعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف بسلاطت داملا كما قالت العرب في أمثالها: تخبر عن مجهوله مرآته.
وكما قال سلم بن عمر الشاعر:
لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخير فسمة الخير الدعة والحياة وسمة الشتر الفحمة والبذاء وكمى بالحياة خيرا أن يكون على الخير دليلا وكمى بالفحة والبذاء شرا أن يكون على الشر سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحياة والرفي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النقاق" ويشبه أن يكون؟ في ملك الصمت والبيان في ملك الفشخ الدائم جا في الحديث الآخر "إن أبغضكم إلى الثورانون المتقيهون المستدفون" وروى أبو ساماء عن أبي حريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحياة من الايمان والابناء في الجنة والبذاء من الجفاء والذيناء في النار" وقال بعض الحكيماء: من كناء الحياة فهو لم ينكر الناس عليه وقال بعض البلاغاء: حياة الوجه بحياته كما أن حياة الغرور بنفسه وقال بعض البلاغاء العامية: يا امها كيف لا تستحي من كثير مما لا تستحي وتنثى من طول ما لا تنتق. وقال صاحب بن عبدالقدوس:
إذا قل ماء الوجه قل حياه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه حياه فاحفظه عليك وإما يدل على فعل الكريم حياه وليس من سلوب الحياه صادع عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتي ما يهوى وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن
منصور بن ربيع عن أبي منصور البدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن مما أدرك الناس من كلام النبي الأول يابن آدم إذا لم تستحي فأصمع ما شاء فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياة يعيش المرد ما استحيا بخير ويوم العود ما بقي اللماء وآختلف أهل العلم في معنى هذا الحديث. فقيل أبو بكر بن محمد الساعي في أصول الفقه معنى هذا الحديث: أن من لم يستحي دعاه ترك الحياة إلى أن يعمل ما يشاء لا يرده عنه رادع فليستحي المرد فإن الحياة يرده عامة دمت عن أحد من أصحاب أبي حنيفة: أن المعنى فيه أعرضت عليك أفعالك التي هدمت ففعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصمع ماشئت منها فجعل الحياة حكما على أفعاله وكلا القولين حسن والأول أشملأ لأن الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم خرج الدم لا خرج الأمر. لكن قد جاء الحديث بما يضاهي القول الثاني وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "ما أحبت أن تسمعك أذناءك فأته ومركحت أن تسمعك أذناءك فاجتنبه" ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه، ولكن التأويل الأول في الحديث المتقدم أصح إذ ليس بلازم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقهة المعاني بل اختلاف معانيها أدخل في الحكمة وأبلغ في الفصاحة إذا لم يضايق بعضها بعضا. وعلم أن الحياة في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه: أدها حياؤه من الله تعالى والثاني حياؤه من الناس والثالث حياؤه من نفسه. فأما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أواصره
والكف عن زواجها، وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "استحيوا من الله عن وجل حق الحياة قبل أن يرسل الله كفيف تستحب من الله عن وجل حق الحياة، ورايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة فقلت: "يا رسول الله أوصني فقال: استحي من الله عز وجل حق الحياة، ثم قال: تغير الناس قبل أن يكونوا حتى يملك بعد ذلك بوصايا وعظات تصورها وأذنه السور عن حفظها، ووددت لو أنني حفظتها. فلم يبدأ بشيء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياة من الله عز وجل وجعل مسابة الصبي من البشر والحياة سبباً لنفع الناس وخص الصبي لأن ما يأتيه بالطبع من غير كفيف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع إنشادها وقطع أذنها وواصل تأديتها وحفظ تذكيرها وجعل لكل عصر حظاً من زواجها ونصبها من أوصمه أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استنادها بالتوفيق. وقد روى أن عقليمة بن عثمان قال: "يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استحي من الله تعالى استجباءك من ذوى الحياة من قومك". وهذا الحياة يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "قلة الحياة كفر" يعني من الله لما فيه من خلافة أواخره. وقال صلى الله عليه وسلم: "الحياة نظام الإنسان فإذا أخل نظام الشيء تبادل ما فيه وتفرق، وأما حياً من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهدة بالفتوح وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تقوى الله أتقى الناس".\n\n"
وروي أن حديثة بن الیان أن الجمّة فوجد الناس قد انصرفوا فتمكّن الطريق عن الناس وقال: لأخیراً في لا يستحي من الناس. وقال بشارة بن ير: ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء حياة وحبه في السواد. أمسك النفس بالعنف وأمسى ذاكرا في غد حديث الأعادي.

هذا النوع من الحياة قد يكون من كمال المروعة وحيب النسا. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "من ألقى جلباب الحياة فعليه لا غيبة له" يعني والله أعلم لفظته وظهور شؤونه. وروى الحسن عن أبي هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم "إن مروعة الرجل مثاب وتخلله وخبره ومجمله وإنه وحليسه". وقال بعض الشعراء:

ورب قبيحة ما حال بني وبين ركوبها الا الحياة
أذا رزق الفقي وقحاً تقلب في الأموات كما يشاء.
وقال آخر:

"إذا لم نصن عرضا ولم نخش خالقاً ونستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع
أوها حياه أن نفسه فيكون بانفة وصنعان الحولات. وقال بعض
الحكايات: ليكن استحياوك من نفسه أكثر من استحياك من عينك. وقال
بعض الأدباء: من عمل في السر عما يستحي مثأره في العلانية فليس لنفسه
عندده قدر. ودعا قوم رجلا كان يالف عشرتهم لم يبهم وقال: إن دخلت
بارحة في الأرعين وانا أستحي من سني. وقال بعض الشعراء:

فسمي كأعلان وتك خليقى وظامنة ليلي مثل ضوء نساريا
وهذا النوع من الحياة قد يكون من فضيلة النفس وحسن السير،
فتي كل حياة الإنسان من وجهته الثلاثة فقد كانت فيه أسباب الخير
وانتفت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهوراً وبالخيل مذكوراً
وقال بعض الشعراء:

وإلى لحنين من الجهل والفاها عن شتم ذئ القريب خلاقة أربع
حَيَاء و الإِسْلَام و تَقْوَى و إِنَّي كَرِيم و مُشْيَل مِن يَضُر و يَنْفِع
وَأَن أَخِلُ بِحَدِ وجُوهِ الْحَيَاة لِحقِه مِن النَّقْصِ بِالخَلَال بَقِدْر مَا كَان
يَلْبِعُه من الفَضْل بِكِلَاله وَقَد قَالَ الْرَّياضِي يَقَال إِن أَبَا بُكَرُ الصَّدِيق
رَضِي اللّه عَنْهْ كَان يُمْثِل بِه ذَلِك الشَّعْر:

حَاجَة دُون أَخْرِي قَدْ سَنْجَحَتْ لَهَا جَعلَتْهَا لِلَّتِي أَخْفَيْت عَنْهَا
وَإِنَّ لَا ذِلِك مِن لَّا حَيَاة لِهَا وَلَا أَمَانَة وَسْطِ القَوْم عِنْهَا
(الفَصْل الْرَّابِع فِي الْحَلِيم وَالْفَضِيب) رَوَى مُحَمَّد بِنْ حَارِث الْمُسْلِمِي
أن جَبْر يَل نَزَل عَلَى النُّبِي صَلَّى اللّه عَلَيه و سَلَّم فقال: يا مُحَمَّد إِنِّي أَنْتَك
بِمَكَارِمِ الْخَلَاق فِي الْدِّينِ وَالآخِرَة خَذَ العَفُو و أَمْر بِالْعِرْف و أَعْرَض
عَنَّ الْجَاهِلِيَّات وَرُوِي سُفَيْان بِن عَبْيَة أَن النُّبِي صَلَّى اللّه عَلَيه و سَلَّم
حِين نَزَلَت هَذِه الآيَة قَال: «يا جَبْر يَلٌ هَذَا قَالُوا لَأَدْرَى هَلْ أَسْلَل
الْعَالَم ثُمَّ عَارَ جَبْر يَل و قَالُوا يَا مُحَمَّد أَن رَبِك يَأْمُرَك أَن تَصْلِم مِن قَطْعَك
و تَعْطَى مِن حَرَمِك و تَعْفُو مِن نَّظَاهِك» و رُوِي هَشَام عَن الْحَسَّن
أَن النُّبِي صَلَّى اللّه عَلَيه و سَلَّم قَال: «أَيعْجِز أَحَدٌ كَأَن يَكُون كَأَبِي ضَمْحِي كَان
إِذَا خَرِج مِن مَّنَزِهٍ قَالُوا آتَهُم مَّنَزِهٍ عَلَى عِبَادَك» و رُوِي
عَن النُّبِي صَلَّى اللّه عَلَيه و سَلَّم قَالُوا: «إِن النَّبِي يَحْبُّ الْحَلِيم الْحَيٍ
و يَغْفِرَ الْفَاحْشَة الْبَذْى» و قَالَ عَلَى الْصَّلَاة و الْسَلَام: «مِن حَلِيم سَاد
و مِن تَفَهَّم اَزْدَاد» و قَالَ عَلَى الْعِبَادَة: «مِن غَرَس شَجَرَةِ الْحَلِيم اَجْتَنَى
ثُمَرَةِ الْسَلَام» و قَالَ عَلَى الْعِبَادَة: «مِن ذِب عَنِ الأَعْرَاض كَالْصَّفْح
و الإِبْعَاض و قَالَ عَلَى الْعِبَادَة: أَحْبِب مَكَارِمِ الْخَلَاق جَهِدَى و أَكَرَّه أَن
أَعْدِبُ و أَلْقِ أَضْحَاٰب
و أَصْفَحُ عَنْ سَبَبِ النَّاس حَلَامًا و شُرَّ النَّاس مِنْ يَهُوَى السَّبَابَة
و مُنْ هَبَ الرَّجَال تَهْبِيَّة و مِن حَقِّ الرَّجَال فَانْيَابَا
فَالْحَلِيم مِن أَشْرَفِ الْخَلَاق و أَحْقَهَا بَذُوي الأَلَابِم لِمَا فَيْه مِن

لا يبلغ المجند أقوم وإن كرهوا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوم ويشتموا فترى الألوان مسفرة لاصفح ذل ولكن صفح أحلام
أدب الدنيا والدين

والأربع من أسبابه الاستهانة بالمنسيء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكي عن مصعب بن الزبير أنه لما ولى العراق جلس يوماً لعطاء الجند وأمر مناديه فنادي أين عمرو بن جرموس وهو الذي قتله أباه الزبير فقال له: أياً الأمير فإنه قد تباعد في الأرض فقال أبى طهير، فيأبى عبد الله فليظهر أما لا أخذ عطاؤه موفراً فقد الناس بذلك من مستحسن الخبر. ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره:

أو كما طَقّ الزباب طردته أن الدباب إذنَ على كريم وآكثر رجل من سب الأحذف وهو لا يلبسه فقال: والله ما يمنعه بن جوابي الا هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر:

ننا بيك لؤمك منجي الزباب حتمه مقاذيه أنت بنالا وأسمع رجل ابن هبرة فأصر قته عنه فقال له الرجل: إياك أعني فقال له: ونعك أعرض وفي مثله يقول الشاعر:

فأذهب فانت طلبق عرضاً فإنه عرض عززته به وأنت ذليل وقال عمرو بن علي:

إذا نطق السفيف فلا تجبه خير من إجابته السكون سكت عن السفيفه فظل أو عيبت عن الجواب وما عيبت والخامس من أسبابه الاستحيا من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكحال المروفة، وقد قال بعض الحكاء: احتال السفيه خير من التحلي بصورته وإلقاءه، عن الشاه باله، ومن مشاكاته. وقال بعض الأدباء ما أحسن حليم ولا أحسن كريم. وقال لفيظ بن زرارة:

وقل لبني سعد فمايل ومالكم تروقون منى ما استطمتعت وأعتق أغْرَزُكَو أني باحسن شمية، بصير واني بالفاحش أخرق وإن تلك قد سبابتي فقهري كهنيت مريثاً أنت بالفاحش أخرق والسادس من أسبابه التنضيل على السباب فهذا يكون من الكرم
لابني الحسن البصري

وحب التألف كما قيل للاسكندر: إن فلانا وفلاًا ينتصانك ويثلبانك فلما عاقبهما فقال: هما بعد العقوبة أعرق في تنقصي وثلي فكان هذا تفضلاً منه وألفاً. وقد حكي عن الأححف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحدث قط إلا أخذت في أمره بحادي ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفته له قدره وإن كان دوني رفعت قدرى عنه وإن كان نظري تفضلت عليه فأخذ الخليل فنظامه شعرًا فقال:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه إلى الجرائم فف الناس إلا واحد من ثلاثة: شريف ومشروف ومشابه مقاوم فأنا الذي فوق فأعرف قدره. وأتتبع فيه الحق والحق لازم وأنا الذي دونه فأحسد دائمًا أصوص به عرضي وإن لم لائم وأنا الذي مثله فإن زل أو هذا تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم والسابع من أسبابه استنكاف السبب وقطع السبب وهذا يكون من الحزم كما حكي أن رجلا قياض بضرار بين الفقاعات والتعلقات واحدة لسمعه عشرة فقال له ضرار: والله لو قلت عشرة لم تسمع واحدة. وحكي أن على ابن أبي طالب كرم الله وجهه قال لعمري بن مرة الزهرى من أحق الناس قال: من ذن أنه أغلق الناس قال صدقت من أغلق الناس قال: من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهالة. وقال السفي: مأدركت أمي فأرها ولكن لا أسب أحدا فيسبها. وقال بعض الحكاء:

في إعراضك صوون اعتراضك. وقال بعض الشعراء:

وفي الميم ردع للسفيه عن الأذى. وفي الخرق إغراء فلانك أخرًا فتندم إذ لا ينفعك ندمًا. كما ندم المغبون لما تفصرًا وقال آخر:

قل مابدالك من زور ومن كذب حامي. اسم وأذن غير صمام والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب. وهذا يكون
من ضعف النفس وربما أوجه الرأي واختيارات الحزم، وقد قيل
في منثور الحكم: الحلم سجابة الآفات. وقال الشاعر:
أرفع إذا خفت من ذي هفوة حرقاً ليس الحلم - يمن في أمره حرق
والعشر من أسبابه الرئيسي ليد ساقطة وحمرة لازمة وهذا يكون
من الوفاء وحسن الهد. وقد قيل في منثور الحكم: أكرم الشيم ارعاها
للذم. وقال الشاعر:
إن الوفاء على الكريم فرضية واللائم مقربون بذى الإخفاف.
وترى الكريم لينعاشر منصة. وترى اللائم مجان الإنصاف
والعشر من أسبابهالحكم وتوافق الفرع الخليفة وهذا يكون من الدباء.
وقد قيل في منثور الحكم: من ظهير غضبه قل كبد. وقال بعض الأدباء:
غضب الجاهل في قوله. غضب العاقل في فعله. وقال بعض الحكاياء:
إذا سكبت عن الجاهل فقد أوسعته جواباً وأوجعته عقاباً. وقال
إياس بن قادة:
تعاقب أيدنا ويلحم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتلكم
وقال بعض الشعراء:
والكفك عن شتم اللائم تكرماً اضرره من شمه حين يشتم.
فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم وبعض الأساليب أفضلاً من
بعض وليس إذا كان بعض أسبابه مفصولاً ما يقتضى أن تكون
نتيجة من الحلم مدوماً. إنها الأولى بالانسان أن يدعو للحكم أفضل
أسبابه وإن كان الحكم كله فضاً، وإن عرنا عن أحد هذه الأساليب
كان لا ولم يكن حاماً لأننا قد ذكرنا في حد الحلم أنه ضبط النفس
عند هيجان الغضب. فإذا فقد الغضب لمبعش ما يغضب كان ذلك
من ذل النفس وقلة الحياة. وقد قالت الحكاياء: ثلاثة لا يعرفون
لا في ثلاثة مواطنين لا يعرف الجواد الا في العسرة والشجاعة الا في الحرب والهليم الا في الغضب وقال الشاعر: ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب وقال آخر
من يدعي الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب
وأنشد النابغة الجعدي بخضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم:
ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوارد تجاه صفوه أن يكترا ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلم إذا ما أورد الأمر أصدرا
فلم يذكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن قصد الغضب في الأشياء المغضة حتى استوى حالاه قيل الاغضاب ويبعد فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والأنفة والجية والفيرة والدفاع والأخذ بالغاز لها حصول مرکبة من الغضب فذا عدمها الإنسان هان بها ولم يكن لباقي فضائله في النفوس موضع ولا لفور حلمه في القلوب موقع.
وقال المنصور: إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة وقال بعض الحكاة: العفو يفسد من النائم بقدر إصلاحه من الكرم وقال عمرو ابن العاص: أكرموا سنفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشنار وقال مصعب ابن الزبير: ما قل سنفهاء قوم إلا ذلوا وقال أبو تمام الطائي:
والحرب تركب رأسها في مشهد عدل السدقي به ألف حليم ولبس هذا القول إغواء بتخميم الغضب والانتقاد اليه عند حدوث ما بغضب فيكسب بالإنتقاد للغضب من الزول أكثر ما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ولكن إذا ثار به الغضب عند هموم ما يغضببه كف سورة يبزمه وأطفأ ثائرته بجماله ووكل من استحق المقابلة لولا غيره يعدم مسيرة مكافئا كما لن يعدم محسن مجازا يا تقول. والعرب:
دخل بيننا ما خرج منه أي أن خرج منه خير دخله خير وإن خرج منه
شر دخله شر. وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم:

فأمنت الجاهل جهلك مرة
فعم عليه الحلم والجهل وألقه
فأنت ستيفيه مثلك غير ذي حلم
فمع الله في عينه فبالصرم
وتأخذ فيها بين ذلك بالحزم
عليه بهجاه فذاك من العزم

وأي ضرب لئهم في تدني مهك، وغصيبة وثوات هذا التدبير
إذا يستعمل فيا لايغد الإنسان يدا من مقارته ولا سبيل إلى آثاره
ومتاركته إما خوف شره أو للزمن أمره فاما من أمكن اطرافه ولم
يضر إبعاده فالون بيه أولى والأعراض عنه أصوب فذا كان على
ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضائته وأمن بكف نفسه عن
الانتقادات له رذائية وصار الحلم مديرا للأمور المغضبة بقدر لا يعتريه
نقض بدم الغضب ولا يلتحقه زيادة فيقد الحلم ولو عزوب عنه الحلم
حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأي عن خبرة
أسباب ودواعيه حتى يصير بليل الرأي مغمور الروية مقطوع الحجة
مسلب العزا، قليل الحيلة مع ما يناله من أثر ذلك في نفسه ورسجمه
حتى يصير أضر عليه مما غضبه له. وقد قال بعض الحكاء: من كثير
شطته كثير غلطه. وروى أن سامان قال لعلي رضى الله عنه: ما الذي
ياعدني عن غضبة الله عن وجل قال: أن لا تغضب. وقال بعض
السلاف: أقرب ما يكون العبد من غضب الله عن وجل إذا غضب.
وقال بعض البلغاء: من ردا غضبه هات من أغضبه. وقال بعض الأدباء:
ما هيج جاشك كفيظ أجاشك. وقال رجل لبعض الحكاء عظني قال:
لا<typename>, فينبغى لدى اللَّب السوء، والحَزْم القوى أن يتلقى قوة الغضب بجثمه فيصددها ويرآبه وعَوَادَي شرته يُجزه فيردها ليحظى بانجلاء الهيرة ويسعد بمجرد العاقبة. وقال بعض الأدباء: في إغاثة راحة أعضائه، وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس من دونها، وسبب الحزن هجوم ما تكره النفس من فوقها، والغضب يحرك من داخل الحسد إلى خارجه والحزن يحرك من خارج الحسد إلى داخله، ف بذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب؛ إذ يعترض الغضب وкон الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروعه والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكونه ولذلك أفضى الحزن إلى الموت ولم يفضي إليه الغضب.

عقابك منك على عقاب لما عفوت عنه فقد عفوك عنه لما ذكره قدرة الله تعالى. وروى أن رجلاً شاكياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النسوة فقال: أطلع في القبور واعتبر بالنشور. وكان بعض ملوك الطوائف إذا غضب ألقي عند해 مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبهم. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: من أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير. ومنها أن ينتقل عن الحالة التي هو فيها إلى حالة أخرى فيزول عنه الغضب متغير الأحوال والتنقل من حال إلى حال. وكان هذا مذهب المأمون إذا غضب أو شتم وكانت الفرس تقول: إذا غضب القائم فايجلس وإذا غضب الجالس فليكق. ومنها أن يتذكر ما ينول عليه الغضب من الدم ومذقة الأنتقام. وكتب أبو زرارة ابنه شرويه: إن كلمة منك تستفك دماً وأخرى منك تحقن دماً وآواف تفاذ أمرك مع كلامك فاحترس في غضبك من قولك أن تحطع ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يخف فإن الملوك تعاقب قدرة وتعدوهما. وقال بعض الحكاء: الغضب على من لا يتكلم له ومن تكلك لوم. وقال بعض الأدباء: ياك وعزة الغضب فانها تنقض إلى ذل العذر. وقال بعض الشعراء:

وإذا ما أعترتك في الغضب العزيزة فاذكر تذللاً الاعتدار

ومنها أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيهنار نسخه على الغضب ورغبته في الجزاء والثواب وحذراً من استحقاق الدم والعقاب. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ينادي مناد يوم القيامة من له أجر على الله عن وجل فليقم يقوم العفون عن الناس ثم تلاآفنا عفا وأصلح فأجابه على الله. وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث: إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نال: «الخير ثلاث خصال فيه: كفر فيه فقد استكمل الأعوان من إذا رضى لم يدخله
رضاء في باطل. وإذا غضب لا يخرجه غضبه من حقي واذا قدر عليها.

وأسمع رجل عم بن عبد العزيز يكلمها فقال: عمر أردت أن يسترزق الشيطان لعزة السلطان فأنا منك اليوم ما تتناوله مني مهما أنصف رحمك الله. ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفس إليه فلا يرى إضاعة ذلك بتنفيس الناس عنه وبعده منه فيكف عن متابعة الفضب فيرغب في التألف وجيل الشتاء. وروى ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ازداد أحد بعضنا لا عرضا فاعقوب يزعجم الله. وقال بعض البلقاء: ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم إزالة النعم. وقال المأمون لأبيه بن المهدي: إن شاورت في أمرك فأشاروا على بقتلك إلا أنك وجدت قدرك فوق ذنبي فكرمت القتل للزوم حرمتك فقال: يا أمهير المؤمنين إن المشير أشار بما جرت فيه العادة في السياسة إلا أنك أبت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عُوِّدته من العفو فان عاقبت ذلك نظير وان عقوبتك فلا نظير لك.

وأنشا يقول:

فيها فعلت فلم تعسل ولم تلم، وقام علمك بفاحظ عندك لى مقام شاهد عدل غير متهتم، ابن مجدك معلوما مبتسم به إلى لقي اللوم أتى يلقى منك بالكرم تغقوه بعد وتستو في سوطه فلا عدمتك من عاف ومنتمكم.

(الفصل الخامس في الصدق والكتب) قال الله تعالى: وهو أصدق القائلين: "ثم نبتهل فتجعل لعنة الله على الكاذبين" وقال تعالى: "إما يقتري الكذب الذين لا يؤمنون آيات الله " وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لهمس بن على رضي الله عنهما: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فالف الكذب ربية والصدق طمأنينة " وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رحم الله أمس أصلح من لسانه وأقصر"

وأما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للروعة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وأبعد بالبناء من الرجال
والفخذ جاع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخيبا نتائجه
لأنه ينتج الفيحة والفيحة تنتج البضائع والبضائع تنصل إلى العداوة
وليس مع العداوة أمون ولا راحة ولذلك قيل: من قل صدقته فل صديقه
والفخذ والكذاب يدخلان الأخبار الماضية كما أن الوفاء والخوف
يدخلان المواعد المستقبلة فالصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه
والفخذ هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ولكن واحد منهما
دواعي الدواعي الصادقة لازمة ودواعي الكذب عارضة لأن الصدق يدعو
الي عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل وبصدد عنه الشرع
ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز أن
تستفيض الأخبار الكاذبة لأن اتفاق الناس في الصدق والكذاب إنما
هو لاتفاق الدواعي أذاعي الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكبير عليها
حتى إذا تقول خيرا وكانوا عدايا ينتمي عيناً مثلهم المواطنة وقع في
النفس صدقه لأن الدواعي إليه نافية واتفاق الناس في الدواعي النافعة.
ممكن ولا يجوز أن يتفق العصِيد الكثير الذي لا يمكن موالاته مثلهم
على تقل خير يكون كذبا لأن الدواعي التي غير نافعة وربما كانت ضارة
وليس في جارى الحاد الأفاذ يتفق الجمّ الكثير على دواعي غير نافعة
وذلك جاز اتفاق الناس على الصدق بجواز أنفاق دواعيهم ولم يجز أن
يتقنوا على الكذب لامنتاغ أنفاق دواعيهم وإذا كان للصدق والكذب
دواع فلا بد من ذكر ما يصل به الخاطر من دواعيهم 
أما دواعي الصدق فإنها العقل لأنه موجب لقيح الكذب لاسيّا
إذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا، والعقل يدعو إلى فعل ما كنت
مستحسن وينع من إثيان ما كان مستحقا وليس ما استحسن من
مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحما استحسانا للكذب في العقل
كالذي أنشدته الأزدي لبعض الشعراء :
	
توهم فكرى فأصبح خذه
وفي مكان الوهم من فهو
وصلبه صكنى فألم كأنه
من ملس كنفى في أنامل عقير
ومر بالخاطر عرفته ولي أمر
شئ قط يجريه الفكر
وكقول العباس بن الأحنف وان كان بدون هذه المبالغة :
	
تقول وقد كتبات دقيق خطى
هيا لم تجنبت الحلي للا
فقدت لما تحلت فصار خطى
مساعدة لكتابه جهبـلا

لأنه خرج مخرج المبالغه في التشبيه والاقتصاد على صنعة الشعر
وإن شواهد الحال تخرجه عن تلبس الكذب فذلك استحسن
في الصنعة ولم يستحق في العقل وإن كان الكذب مستحقا فيه، ومنها
الذي الورد باتباع الصدق وحظر الكذب لأن الشرع لا يجوز أن يرد
بأخص ما حظر العقل بل جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من
حظر الكذب لأن الشرع ورد بحظر الكذب وإن جر نفعا أو دفع ضررا
والعقل إنما حظر مالا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا، ومنها المروعة قاتها
مانعة من الكذب باعتها على الصدق لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فبأول من فعل ما كان مستقبلاً. ومنها حب الاشتبار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلهقه ندم. وقد قال بعض البلاغاء: ليكن مرجعك إلى الحق ومنزلك إلى الصدق فالحق أقوى مي篮板 والصدق أفضل قرين. وقال بعض الشعراء:

عُود لا يأكل قول الصدق تهتز به. إن الناس لما عودت معتاد موكل بتقاضي ما سيستنئ له في الخير والشر فانظر كيف ترتاد وأما دواعي الكذب فإنها اجتباب النفع واستدعاء الضر في أن الكذب أسلم وأعم في خصر نفسه فيه اعتىارا بالخدع واستشفافا لطمع وربما كان الكذب أبعد ما يأمل وأقرب لما يخف لأن القوى لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجيئ من الشوك العبد ولا من الكرم الحنذل. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تحوز الصدق وإن رأيت أن فيه الخالة فان فيه النجاة وتجنوا الكذب وإن رأيت أن فيه النجاة فإن فيه الخالة». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن يضعى الصدق وفما يضع أحب إلى من أن يفعى الكذب وقفا يفعل. وقال بعض الحكاءات: الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وآن أمتنته ونال الحكاءات: الصدق والوفاء توءمان والصر والحلم توءمان فين تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سيب كل فرقة وأصل كل فساد. ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعدبا وكلاه مستظفرا فلا يجد صدقًا يعذب ولا حديثا يستظفر فيستعلي الكذب الذي ليست غريته معوزة ولا طرازته مجززة. وهذا النوع أسأ حالا مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودعاة النحلة. وقد قال الحكاءات: لم يكن أحدهم إلا لصغر قدر نفسه عنه. وقال ابن المقفع لاتباعون: بارسال الكذبة من المنزل فإنها تسرع إلى إبطال الحق. ومنها أن يقصد
بالكذب التشكي من عدوه فقسمه يبقى أحدها عليه ويسقه بفضل يسمى أبيه ويرى أن معززة الكذب غنم وأن إرسالها في العدو سهم ولهذا أسوأ حالاً من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين الكذب المعزز والشرع المضرر لذل ذلك ورد الشرع برقة شهادة العدو على العدوه. ومنها أن تكون دواعي الكذب قد ترادت عليه حتى ألمها فصار الكذب له عادة ونفسه منقادة حتى لو راح مجانبة الكذب عسر عليه لأن العادة طبع ثان. وقد قالت الحكمة: من استحلل رضاع الكذب عصر قطاعه.
وقيل في مثنور الحكم: لا يلزم الكذاب شيء الجلب عليه واعلم أن الكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فنها أن لا لتنته الحديث نطقته ولم يكن بين ما تلقته وبين ما أورده فرق عنده. ومنها أنك إذا شككنت فيه تشكوك حتى يكثر يرجع فيه ولولاك ماتخلبه الشك فيه. ومنها أنك إذا ردت عليه قوله حصر وارتباك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا بهدان الصادقين. ولذلك قال على نبأ طالب كرم الله وجهه: الكذاب كالسراب. ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذله المتشوهين لأن هذه أمور لا يمكن الإنسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتها. ولذلك قالت الحكمة: الليان أتم من اللسان. وقال بعض البلغاء: الوجه مرآياً تريك أسرار البرايا. وقال بعض الشعراء:
تريك أعينهم ما في صدورهم. إن العيون يؤدئ سerea النظر.
وأما قسم بالكذب نسبت أبيه شوارد الكذب المهولة وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه فيجمع بين معزة الكذب منه ومصرة الكذب عليه. وقد قال الشاعر:
حسب الكذب من البيضة بعض ما يحكي عليه.
فذا سمعت بحكمة من غيره نسبت اليه.
ثم إنه إن تذكرى الصدق أتهم و إن جانب الكذب كذب حتي لا يعتقد
له حديث مصدق ولا كذب مستنكر. وقد قال الشاعر:
إذا أعرف الكذاب بالكذب لم يكدر يصدق في شيء وإن كان صادقًا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حظظ إذا كان جاذباً
وقد وردت السنة بإباحة الكذب في الحرب وإصلاح ذات البين.
على وجه التوراة والتأويل دون التصرف به فإن السنة لا ترد بإباحة
الكذب لما فيه من التنوير وإملا ذلك على طريق التوراة والتعريض
كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرق برداء وأفرجد عن
أصابته فقال له رجل ممن أتى قال: من ماء ورثى عن الأخبار نفسه
بأمر محتمل فظن السائل أنه عن القبيلة المنسوبة إلى ذلك وإذا أراد
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الناس الذي يحقق منه الإنسان
فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه وصدق في خبره، وكالذي حكى عن أبي بكر
الصديق رضي الله عنه أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين هاجر معه فتعلقه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله
وفي التعلية وسلم قالوا يا أبا بكر من هذا فقال: هاد يهدي السبيل فظنوا
أنه يعني هدية الطريق وهو إنما يريد هديا سبيل الخير فصدق في قوله
وورثى عن مراده وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن
في المعاريض لنذودحة عن الكذب". وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
أن في المعاريض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب. وقال بعض أهل
التأويل في قوله تعالى: "لا تؤخذن بمانست" أنه لم ينس ولكنه معاريض
الكلام. وقال ابن سيرين: الكلام أسواع من أن يصرح فيه بالكذب
وأعلم أن من الصدق لما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة ويزيد
عليه في الأذى والمضرة وهي الغيبة والشتمة والسعاية. فأما الغيبة فإنها خيانة
هاتك ستتريثان عن حسد وعذر. قال الله تعالى: "ولا يغتب
لأبي الحسن البصري

بعضكم بعضاً أيحب أحدهم أن يأكل حلم أخيه ميتاً» يعني أنه كلا لا يحل
حلم ميتا لا تحل غبطته حياً. وروى أربعة أمرأتين صامتيت على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلنا تغطبان الناس فأخبر بذلك النبي
صلى الله عليه وسلم فقال: صامتنا عما أحيل له وأفطرنا على ما حرّم عليهم،
وروت أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من
ذب عن حلم أخيه يظهر الغيب كان حتماً على الله عن وجل أن يحرم
حلمه على النار". وقال عدي بن حاتم الغيبة جري الثنا. وكان الحسن
البصري رحمه الله تعالى يقول الغيبة فأكهة النساء. وقال رجل لابن
سيرين رحمه الله أنى اغتبثك فاجعلني في حلم فقال: "أحب أن أحل
لك ما حرّم الله عليك". وقال ابن الساق: لا تعن الناس على عيبك بسوء
غيبك. وقال الشاعر:

لا تتمس من مساوئ الناس ما اتستروا فيه. نستثنا الله سبحانه عن مساوياك
وذكر محاسن ما فيه إذا ذكروا. ولا تعت أحدها منهم بما فيك.
وإذا عذر المعتب نفسه بأنه يقول حقاً، وعلن فسقاً، وديرك.
بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثانيه ليست غيتبه
بغيته الامام الجائر وشاذ الخر والمعان بعضه". فيعدون من الصواب
ويجانب الأدب لأنه كان بالغيثة صادقاً. فقد هنالك ستر كأن بصنوه
أول وجهين من أسراً وأخفيه وربما دعا المعتب ذلك إلى إظهار ما كان
يستره والمجردة بما كان يضم أمه فلم يفده ذلك إلا فساد أخلاقه من غير
أن يكون فيه صلاح لغيره. وقد قيل لأنوشرا: ما الذي لا خير فيه
 قال: ماضري ولم يفع غيره، أو ضير غيره ولم يفع地下水 فما علم فيه خيراً.
وقيل في منثور الحكم: لاتبد من العيوب ماسته على الغيوب. وقد روى
العلاط بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قيل: سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن الغيبة فقال: "هِيَ أن تقول لأحيك ما فيك كنت
صدقا فقد اغتبته و إن كنت كاذبا فقد هبطه. وقال عبد الرحمن بن زيد
في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسي أن يكونو
خيرا منهم" إنه استهزاء المسلم بن أعلن نفسه، ودخلت امرأة على
النبي صلى الله عليه وسلم مستفتفية فما نرحت قالت عائشة رضي الله
عنها يارسول الله: ما أقصرها فقال: مهماً إياك والغيبة قالت يارسول الله:
إذا كانت ما فيها قال: أجل ولا لا ذلك لكان بها ما ، وسلت بعض الأدباء
عن صفة اللئيم فقال: اللئيم إذا غاب عاب وإذا حضر اغتاد. فأما الحبر
فتحمل على الإكثار لأفعال هؤلاء ولا يكون الإكثار غيبة لأنه نهى
عن منكر وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر. وأما النعمة فهي أن
تجمع إلى مذمة الغيبة رداء وشر وضم إلى أؤهمها نداء وغيرا ثم تُنزل
تانتقل المتواصلين وتتاعد المتكافئين وتتباطئ المتحابين. وروى
شهر بن حوشب عن أسماء بنت زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال: "ألا أخبركم بشراكم قلنا بيارسول الله قال: من شراكم المشرعون
باللئيمة المتصدرون بين الأحبة الباغون العيون، وروى محمد بن عمرو
عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شجرة ملعون كل
قنات ملعون كل منان. الشجار الحرش بين الناس يلق بينهم العداوة
والتحات الحرام. وقال: الناس الذي يكون مع القوم يتحدون فينهم حديثهم
والتحات هو الذي يستمع عليهم وهم لا يستمعون فينهم حديثهم. والمنان هو
الذي يصنع الخير وينهي به. وقيل في منثور الحكم: النعمة سيف قاتل.
وقال بعض الأدباء: لم يمشي ماش شرٌ من واس. فأما السعادة فهي شج
الثلاثة لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة وئوم النعمة التغير بالنفس والأموال
والقدح في المنازل والأحوال. وروى ابن قتيبة أن النبي صلى الله عليه
 وسلم قال: "الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع" الديوث هو الذي يجمع
بين الرجال والنساء سمي بذلك لأنه يدش بينهم. والقلاع هو الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء سمى بذلك لأنه يأتي الرجل المتمكن عند الأمير فلا يزال يقع فيه حتى يقلبه. وقال بعض الحكاء: الساعي بين منزلين قيحتين إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة وإما أن يكون قد كذب نفايل المروة. وقال بعض الحكاء: الصدق يزين كل أحد الأسعاة فإن الساعي أدم وأثر ما يكون إذا صدق. وقال بعض البلغاء: النعمة دخاء والساعة رداء وهم رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب أهلهما. ووقع الفصل بن سهل على قصة ساع سعي إليه: نحن نرى قبول السعاية شراً منها لأن السعاية دلالة والقبول إجازة فأنكروا الساعي فأنه كان في سعايةه صادقاً كان في صدقه آنما إذا لم يحفظ الحمرة ويستر العورة. وقال الاستضناء رجل سعي إليه بيجل: أنحب أن تقبل ملكه ما يقول فيه على أن تقبل منه ما يقول فيه قال: فكلف عن الشر يكشف عنك الشر. وروى أن الله تعالى أوعى إلى موسى عليه نبينا وعلى المسلمان أن في بلد ساعياً ولست أخبرك وهو في أرضك فقال: يارب دلني عليه حتى أحرجه فقال: يا موسى أكره النعمة وأتم الفصل السادس في الحسد والمنافة) أعلم أن الحسد خلق ذميم مع إضراره بالبدن وإفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعذابة من شره فقال تعالى: » ومن شر حاسد إذا حسد، وناهيك بحال ذلك شرا. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد هي الحالة الحالية الدين لا حالة الشعر والذي نفس محمد بيده لاتؤمنوا حتى تحاوبوا ألا أبتعدك بأمر إذا فعلتموه تحاوبتم أفواض السلام بينكم، فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وإن التحبيب ينفيه وأن السلام يبعث على التحبيب فصار السلام إذن نافياً للحسد. وقد جاء كتاب الله تعالى بما وافق هذا القول وقال الله
تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي يبك وبيته عداوة كأنه ولي حميم" قال معاذ: معاذن ادفع بالسلام إسقاء الممس. وقال الشاعر:
قد يلبث الناس حينا ليس بينهم ود فيزرعه التسليم واللطف
وقال بعض السلف: الحسد أول ذنب عصى الله به في السواء يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به في الأرض يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله. وقال بعض الحكاء: من رضى بقضاء الله تعالى لم يخطه أحد ومن حقه بطيبته لم يدخله حسد. وقال بعض البلغاء: الناس حاسد ومحسود وليك نعمة حسود. وقال بعض الأدباء:
ما رأيت ظالما أشبه بظلوم من الحسود نسائم دائم وهم لائم وقاب هائم. فأخذه بعض الشعراء فقال:
إن الحسود الظلوم في كرب يجلبه من يراه مظلموا
ذا نفس دائم على نفس يظهر منها ماكان مكتوبا
ولو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق ذنى يتوجه نحو الأفناء
والاقرب ويغوص بالمخالط والمصاحب لكانت الكنازة عنه كرها
والسلامة منه مغينا فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مضر حتى ربما
أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكابة في عدو ولا إضرار بمحسود.
وقد قال معاوية رضى الله عنه: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد
يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى الحسود. وقال بعض الحكاء: يكفيك
من الحسد أنه يغتم في وقت سرورك. وقال في منثور الحكم: عقوبة
الحاسد من نفسه. وقال الأصمعي: قلت لأعرابي ما أطول عمرك قالت:
ذكرت الحسد فبيقت. وقال رجل شريف القاضي: إن لأحاسدك على
ما أرى من وصبك على الحسسوع ووقوفك على غامض الحكم فقال: ما نفعك
الله بذلك ولا ضرني. وقال عبد الله بن المقتر رحمه الله تعالى:
اصبر على كيد الحسو دكان صبرك قاتله
فالناس تأكل بعضها. إن لم تجد ما تأكله.
وحقيقة الحسد شديدة الأسي على الخيرات تكون للناس الأفضل وهو
غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس
الأمر على مانظوا لأن المنافسة طلب التشيه بالأفضل من غير إدخال
ضرر عليهم والحمد مصرف إلى الضرر لأن غايته أن يعود الأفضل
فضلهم من غير أن يصب في الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحمد
والمنافسة إذن فضيلة لأنها داعية إلى أكتساب الفضائل والاقتداء
فأخير الأفضل وقدروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: المؤمن
يغبط والمنافق يهدم وقال الشاعر:

نافس على الخيرات أهل العلا فاما الدنيا أحاديث
كل أمرئ في شأنه كادح فوارث منهم وموروث
والعلم أن دواعي الحسد ثلاثة: أحدها بغض المحسود فيأسى عليه
فضيلة تظهر أو منقبة تشكر فيثير حسا قد خامر بغضا وهذا النوع
لا يكون عاما وإن كان أضررا لأنه ليس يبغض كل الناس. والثاني أن
يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير
ذلك حسا لألا لكاففة وهذا أوسطها لأنه لا يحسد الأكفاء
من دنا واما يختص بحسد من علا وقد ينتج بهذا النوع ضرب من
المنافسة ولكنها مع عجز فانهذا صارت حسدا. والثالث أن يكون
في الحاسد شج بالفضائل ويدخل بالمهم وليس عليه فيمنع منها ولا يهد
فبدفع عنها لأنها مهاب قد منحها الله من شاء، فيسخط على الله عزوجل
في فضائله ويحصد على ما منحه من عطائه وإن كانت نعم الله عن وجل
عندنا أكثر ومنحه عليه أظهر وهذه النوع من الحسد أعمرها وأخشبها
إذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فإن أفقت نبر وقودرة كان بورا
واستفاها وان صادف عجزا ومهانة كان جهدًا وشامًا. وقدقال: عبد الخالد
الحسود من المم كباقي السم فإن سري سمه زال عنه فهو. واعلم أنه
يحسب فضل الإنسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فإن
كثر فصلة كثرة حساده. وإن قلوا لأن ظهور الفضل يثير الحسد
وحدوث النعمة يضاعف الكبد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"استعينوا على قضاء الحوائج بصرها فأنا كل ذي نعمة محسود" وقال عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه: ما كانت نعمة الله على أحد إلا وجه لها حاسدا
فلو كان الرجل أقوم من القدح لما عدم غامرأ. وقد قال الشاعر:
إن يحساسدوني فأنا غير لأكمهم. فقبل من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي وفلم مابي وما بهم. ولما أحسثنا نظرا بما يجد
وربما كان الحسد منها على فضل المحسود ونقص الحسود كأن:
أبو تمام الطائي:
وظيفة أقالها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيها جاورت. ما كان يعرف طيب عمود
لولا التحوى للعوائق لم يزل للمحسود النعمة على المحسود
فأما ما يستعمله من كان عابلا عليه الحسد وكان طبعه عليه مائلا
ليعنى عنه ويكباه ودمعه ومن ضرره وعدوا فاموره له حسم
إنه صادفها عزم. لقلها كلا الدين في اجتنابه والرجوع إلى الله عز وجل
في أداه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن ليتم طاعته وإن كان
تقل الطبع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب
ويجب منها ما أتعب. وإن تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يظل
خلقه غير أنه إذا عاني تحسن نفسه تظاهر بالخلق دون الخلق ثم
بالعادة يصير كالخلق. قال أبو تمام الطائي:
فلم أجد الأخلاق الاعتقلة ولم أجد الأفضل الانتفاضا
ومنها العقل الذي يستريح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه
ويستنكف من هجينة مساوته في ذالك نفسه أثنة ويطهرها حمية فتدفع لرشدها وتجيب إلى صلاحها. وهذا اما يصحلذ النفس الأبية والهمة العالية وان كان ذو الهمة يمثل عن دناءة الحسد. وقد قال الشاعر:

أبي له نفسان: نفس زكية ونفس اذا ما خافت الظلم تسمس ومنها أن يستدفع ضرره ويتوق أثره ويعلم أن مكانه في نفسه أبلغ ومن الحسد أبعد فيستعمل الحزم في دفع ما كده وأكده ليكون أطيب نفسا وأهناً عيشا. وقد قيل: العجب لغلبة الحساب على سلامه الأجسام. وقد قال الشاعر:

يصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأى ما هو واقع ومنها ما يرى من تثور الناس عنه وبدهم منه فيخففهم إما على نفسه من عداوة أو على عرضه من ملامة فيأتلفهم بمعالجة نفسه ويارهم إن صلاحوا اجدي نفعا وأخلص ودا. وقال ابن العميد رحمه الله تعالى:

داوي جوى يجوى وليس يجازم من يستنكف النار بالحلفاء وقال المؤمن بن أميل

لاتحسبوني غنيا عن مودتك إنك فتك وإن أيسر مختصا ومنها أن يساعد القضاء ويستسلم للقدر ولا يرى أن يغلب قضاء الله فيرجع مغولبا ولا أن يعارضه في أمره فيرد مغروبا مسالوبا. وقد قال أردشير بن بابك: إذا لم يساعدنا القضاء ساعدنا. وقال محمود الوراق:

قدر الله كائن حين يقضى وروده قد مضى فيه عالمه وانتمى ما يريده وأخو الحزم حزمه ليس مما يزدهى فأرد ما يكون إن لم يكن ما تريدى.

فان أظهرته السعادة بأحد هذه الأسباب وهدته الراحة إلى استعمال الصواب سلم من سباقه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلاً
وصن فلدهم، هم أنفسهم على مديهم وصرفوا عن لائمة
فهو أظهر حزماً وأقوى عزماً من كتبته النفس جهادها. وأعطاه
قيادة وذلك قال على بن أبي طالب رضي الله عنه: خياركم كل من تقري
تولاء، وإن صدته الشهوة عن مراشده وأضلله الحمزان عن مقاصده
فانتقاد للطمع الكبير وغلبه على الحلق الدمى حتى ظهر حزمه واشتد
كمده فقد باء بأربع مذاهم: إحداه حسورات الحمز وسقام الجسد
ثم لا يجد لمساته أن تهبه ولا يجده لمساته شفاء. وقال ابن المعتز:
الجسد داء الجسد، والثانية تخفاض المنزلة وانقطاط المرتبة لاحتراف
الناس عنه وتخورهم منه. وقد قيل في منشور الحكم: الحمز لابسود;
والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبوباً وعداولهم له حتى لا يرى
فهم ولا يفيض بالعداوة مأثوراً ولالمقت مزجوراً ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم: "شر الناس من يبغض الناس ويغضونه"، والرابعة
إخفاض الله تعالى في معارضته واجتنام الأوزار في خلافته إذ ليس يرى
قضاء الله عدل ولا تنعمه من الناس أهلاً. ولذلك قال النبي صلى الله
عليه وسلم: "الجسد يأكل الحمزات كما تأكل النار الحطب" وقال عبدالله
ابن المعتز: الحمز مغطاة على من لاذ به يتجلى بما لا يملكه طالب
ماله جده. وإذا بل الإنسان لم من هذه حاله من حساد النعم وأعداء
الفضل استعداد باليه من بهد وتوكي مصارع كيه وترمز الشؤون حزمة
واسعد عن ملاسته وإذائه لعضل دائه وإعاقة دواه فقين
قيل: حساس النعمة لا يرضى إلا زواها، وقال بعض الحكاية: من ضر
بطبه فلا ينسى بقربه فإن قلب الأعيان صعب المرام. وقال عبد الحليم:
أقد تقاربه خير من حسود تراقبه. وقال محمود الزواج:
 أعطيت كل الناس من طيب الرضا إلا الحمزود فانه أعيان
ما إلهي إلا اليه عامته الأنظار نعمة الرحم.
لأبي الحسن البصري

247

وأبى فلا يرضيه إلا ذئتي وذهاب أموالي وقطع لسانى

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثماني لى إسلام أحد منحن: الطيرة وسوء الظن والحسد فإذا تطيرت فلا ترجع وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسنت فلا تبع".

(فصل) وأما آداب المعاصية والاصطلاح فضربان: أحدهما ماتكون المعاصية في فروعه والعقل موجب لأصوله، والثاني ماتكون المواصفة في فروعه وأصوله وذلك متضيع في الفصول التي ذكرها إذا سيرت وهي ثمنائية:

(الفصل الأول في الكلام والصمم) أعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستواعدات الضياء ويعبر بمكونات السرير لا يمكن استرجاعه ووادره ولا يقدر على رد شوارده تحقق على العاقل أن يعتزه من زله بالأمساك عنه أو بالاقل منه. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم". وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ: "يا معاذ! أنت سلم ماسكت فإذا كالت فعليك أو لك. وقال على بن أبي طالب: كرم الله وجهه: اللسان معيار أطهانه الجهل وأرجمه العقل. وقال بعض الحكاء: الزم الصمت تعبد حكيا جاهلا كنت أو عمالا. وقال بعض الأدباء: سعد من لسانه صمت وكلامه قوة. وقال بعض العلماء: من أعز ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم إلا الحاجته أو أصبه ولا يفكر إلا في عاقبه أو في أخرى. وقال بعض البلاغاء: الزم الصمت فأنه يكسك صفو المحبة ويؤمنك سوء المحبة ويلبسك نوب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار. وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك إلا عن حق توضجه أو بإخلاف تدحضه أو حكاء تنشرها أو نعة تذكرها. وقال الشاعر:

رأيت العز في أدب وعقل وفي الجهل المذلة والهوان وها حسن الرجال لم يحسن إذا لم يسعد الحسن البيان
كوني بالمرء عيباً أن تراه له وجه وليس له لسان
وأعلم أن للكلام شروطًا لا يسلم المتحكم من الزلل إلا بها ولا يعرف من النقص إلا بعد أن يستوفيها وهي أربعة: فالشرط الأول أن يكون الكلام لداع يدعو إليه إما في اجتلاز نفع أو دفع ضرر. والشرط الثاني أن يأتي به في موضة ويتونى به إصابة فروضته. والشرط الثالث أن يقتصر منه على قدر حاجته. والشرط الرابع أن يتخيل النقط الذي يتلكم به. فهذه أربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة بقية وسنذكر كثير تعليل كل شرط منها بما ينبي عن لزومه.
فأما الشرط الأول وهو الداعي إلى الكلام فإن ما لا داعي له هذيان وما لا سبيل له داعي ومن سامح نفسه في الكلام إذا عقب ولم يراع صحة دواعيه وإصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا كاذبًا حكي ابن عابسة: أن شابًا كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الأحنف خلت الحلقة يومًا فقال له الأحنف: تكلم يا ابن أخي فقال: يا عم أرأيت لو أن رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يصرح شيء فقال: يا ابن أخي ليتنا تركاك مستورا ثم تمت الأحنف بقول الأغور النشبي:
وكأن تنزيه من سامحته معجب زيادة أو نقصه في الكلام لسان الفقي نصف ونصف فؤاده فلم يبق الاصورة الهم والدم وكالذي حكي عن أبي يوسف الفقيه أن رجلا كان يجلس إليه فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف: ألا تسأل قال: بل زيت يفطر الصائم فقال: إذا غربت الشمس قال: فان لم تغريب إلى نصف الليل قال: فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل ببكي الخطيء جد جريج:
سيحت لازراء العيب بنفسه وصممت الذي فذكان بالقول أعما وفي الصمت سترللعي وإنما صحيحة لب المرا أن يتكلمًا
لايغ الحسن البصري

ومما أطرفك به عنى أنى كنت يوماً في مجلسي بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابي إذ دخل على رجل مسن قد ناهز الثمانين أو جاورها فقال لي: قد قصدتتك بمسألة اختركت لها فقالت: أسأل عافالك الله وطمنته بسأله عن حادث نزل به فقال: أخبرني عن نجم إيليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما إلا عادة الذين فعجلت وعجب من في مجلسي من سواه وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكيفنتم وفقت هذا لا ينع مع ماهور من حاله إلا بجواب مثله فأقبلت عليه وفقت ياها ان المنتجمين يزعمون أن نجوم الناس لا يعرف الا بعرف مواليدهم فإن ظنرت بمن يعرف ذلك فاسألته ففيئد أقبل على وقال: جزاك الله خيراً ثم انصرف مسحوراً فاما كان بعد أيام عاد وقال: ماوجدته الى وقت هذا منعرف مولد هذين. فانظر إلى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهما وأعربوا بالسؤال عن نقصهم إذ لم يكن لهم داعيه ولا روية فيها تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسعاي من شيته وبرزوا من عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لسان والعقل من وراء لقبه فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم واكان عليه أمساك وقال الجاهل من وراء سنانه يتكلم بكل ما عرض له" وقال عمر بن عبد العزيز: من لم يعد الكلام من عمله كثرت خطاه. وقال بعض الحكاية: عقل المراء محجوبي تحت تسانه وقال بعض البلاغاء: أحبس لسانك قبل أن يطيل حبضك أو يتفل نفسه فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويصرع إلى الجواب وقال أبو تمام الطائفي:

ومنا كانت الحكاية قالت: لسان المراه من تبع الفؤاد وكان بعض الحكاية يحسب الخصة في الكلام ويقول: إذا جالست الجاهل فأنصت له وإذا جالست العلماء فانصت لهم فان في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم. وأما الشرط
الثاني فهو أن يأتي بالكلام في موضعه لأن الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانفعال به وما لا يتعاف من الكلام فقد تقضي القول بأنه هذين وهجفر فإن قضي ما ينتقد التأخير كان عجلة وتزلف والآخر ما ينتقد التقديم كان توانا وعجزا لأن لكل مقام قولا وبكل زمان عملا.
وقد قال الشاعر:

تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعدها نزور
وأما الشرط الثالث وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته فإن الكلام
ان لم يحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن في هذه غاية ولا تقديره
والله يعلم من الكلام محدودا كان إما حصرًا أن قصر أو هضروا
ان كثر. وروى أن أعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كم دون لسانك من حجاب قال:
شفتى وأسناني قال: فإن الله عن وجل يكره البتاع في الكلام فنضر
الله وجه آخر وأوجز في كلامه فاقتصر على حاجته. وحكي أن بعض
الحكام رأى رجلا بكثير الكلام وينقل السكوك فقال: إن الله تعالى إما
خلاق لك أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعيف ما تتكلم به.
وقال بعض الحكام: من كثر كلامه نكرت آثامه. وقال ابن مسعود:
أنذر المستور بالمنطق. وقال بعض البلغاء: كلام المرء بيان فضله وترجح
عقوله فافظه على الجميل واقتصر منه على القليل وإياك وما يسقط
سلطانك ويوشح إخوانك فين أخطط سلطانه تعزف لهندو ومصر.
أووهش إخوانه تبرأ من الحزية. وقال بعض الشعراء:

وزن الكلام إذا نطقت فائدا يبدى عيب ذو العيوب المنطق
وخالصة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرًا وتكثير
يكون هذان وكلاهما شين وشين لمذر أشع وربما كان في غالب آخو.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وهل يكب الناس على مناحمهم في نار
لأبي الحسن البصري

جهنم الأحصائد أُستهم». وقال بعض الحكاء: مقتتل الرجل بين فكيه.
وقال بعض البلقاء: الحصر خير من الهدر لأن الحصر يضعف الجحة
والهذر يتلف المهجة. وقد قال الشاعر:
تأتي اللسان على أهله إذا سأسه المهل ليها متغيراً
وقال بعض الأدباء: يارب ألسنة كالسبتوف تقطع أعناق أصحابها
وما ينقص من هاينات الرجال يزيد فيهاها وألبابها. وقد ذهب بعضهم
إلى أن الكلام إذا أكثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان
صواباً لا يشبه خطل وسيا لا يتعوده زلل فهو بيان والسحر الحللال.
وقال سليمان بن عبد الملك: وقد ذم الكلام في مجلسه: كلاً إن من تكلم
فأحسن قدر على أن يسكت فيحسن. وليس من سكت فأحسن تقدر
على أن يتكلم فيحسن. ووصف بعضهم الكتب فتان الكاتب: من إذا
اخذ شبه كذا وأذا وجد طوماراً أملاء. وأشد بعضهم في خطأه: إباد:
يرىون بالخطاب الطوال وتراث وحي الملاحظ خيبة الرقباء.
وقال الميهم بن صالح لابنه: يا إبن، إذا أقلت من الكلام أكثنت من
الصواب فقال: يا أبت نان أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاماً وصواباً
فقال: يا إبن مارأيت موعظة أحق بأن يكون واعظاً منك. وأنشدت
لأبي الثقيلة:
تكلم وسدد ما استطعت قالاً كلامك حي والسكت حسباد
فان لم تجد قوله سديدا تقوله فصمت عن غير السداد سداد
وقيل لاباس بن معاوية: ما فيك عيب الأكثرة الكلام فقال: أقسم معون
صواباً أو خطأ قالاً: لا بل صواباً قال: فالزيادة من الخبر خير. وقال
أبو عثمان الحافظ: لكلام غاية ونضات الساعمين نهاية وما فضل عن
الاحتلال ودفع إلى الاستنتاج والملال فذكر الفاضل هو المذر وصدق
أبو عثمان لأن الاكتئار منه وإن كان صواباً يمل الساعم ويكمل الخاطر
(9)
وهو صادر عن إنجابٍ به لوالده لأكثر عنده ومرهّبٍ إنجاب بكلامه استرسل فيه، والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم المثار. وقال بعض الحكّاء: من إنجاب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرته المذر رجاء يقابل خوفه ولا تقع يوازي ضرره لأنه يخفف من نفسه الزلل ومن سامعه السامرة والملل وليس في مقابلة هذه حاجه داعية ولا تقع مرجعه. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أبغضكم إلى المنفيمب المكرار والملح المهدار". وقال رجل حكّاياه قالت مثرك أتكام قال: إذا اشتهيت الصمت فقالت أصمت قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال جعفر بن يحيى: إذا كان الإيجاز كما كان الاكتئب كما وإن كان الاكتئب واجبا كان التقصير سيا. وقال في منثور الحكم: إذا تم العقل تقاس الكلام. وقال بعض الأدباء: من أطل صمته اجتلاعب من الهيبة ما ينفعه ومن الورشة مما يضره. وقال بعض البلاغاء: هي تسلم منه خير من منطق تندم عليه فأقصار من الكلام على ما يقيم حجته ويبلغ حاجته وإياك وفضوله فإنه يزل القدوم ويوثر الندم. وقال بعض النصحاء: فالماعقل ما يصوّل الكلام: أحجم وقفي الماء مطلق كامّا شاء أطلق. وقال بعض الشعراء:

إن الكلام يغر القوم جلوته حتى بليج به عينٌ وإكثار وأما الشرط الرابع وهو اختيار النحو الذي يتكلم به لسان الإنسان يترجم عن مجهوله ويهيمن عن محصوله فيلزم أن يكون تهذيب ألفاظه حريما وبتقريم لسانه ملما. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس: يعجبني جالك قال: وما جال الرجل يارسول الله قال: لسانه. وقال خالد بن صفوان ما الإنسان لولا الله هل كان الأهمة مهملة أو صورة ممّلة. وقال بعض الحكّاء: أنسان وزير الإنسان. وقال بعض البلاغاء: يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله. وقال بعض الشعراء:

وقال الشاعر:

خير الكلام فبل على كثير دليش والعبت معنى قصير يحوه لفظ طويل
وفي الكلام فضول وفيه قال وقيل وأما صحة المعاني فتكون من ثلاثة أوجه: أحدها إيضاح تفسيرها حتى لا تكون مشاكلا ولا مجملة. والثاني استيفاء تسميتها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو فيها. والثالث صحة مقابلاتها والمناظرة تكون من وجهين: أحدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقارنة لأن المعاني تصير مشاكلا. والثاني مقابلته بما يضافه وهو حقيقة المقابلة وليس للقابلة إلا أحد هذين الوجهين. الموافقة في الافتلاز والمضادة مع الاختلاف. فأما فصاحة الألفاظ فتكون
بثلاثة أوجه: أحدها جانبيّة الفسبيّة الوحشي حتى لا يهمه سمع ولا ينثر منه طبع. والثاني ينتهب النظري المستقبلي والصعود عن الكلام المسترجل حتى لا يستقطبه خاصي ولا يبوعن فهمه عميقاً. قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فقلت أر قوماً أ مثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ لم لم يكن متوتراً وحشيًا ولا ساقطاً عامياً. والثالث أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطيعة. أما المطابقة فهي أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها. وقال نهر بن المعتمر في وصيته في البلاغة إذا لم تجد النظرة واقعة موقعها ولا صائرة إلى مستندة ولاحالة في مركزها بل وجدت قلبها في مكانها فأقرعت عليها موضعها فلا تكرها على القرار في غير موضعها فتأكل أن لم تتغطى قريض الشعر المزروع ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور لم بيعك بثر ذلك أحد وإذا أنت تكلفهم ولم تكن حاذقاً فهما عابك من أنت أقل عيباً منه وأنزرو عليك من أنت فوقه. وأما المناسبة فهي أن يكون المعنى يلبق بعض الألفاظ إذا لعرف مستعمل أو لانفصال مستحسن حتى إذا ذكرت تلك المعاني يفسر تلك الألفاظ كانت نافرة عنها وان كانت أفصح وأوضح لا اعتيد ما سواها.

وقال بعض البلاغاء: لا يكون البلاغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من فظته إلى سمعك. وأما معاطاة الاعراب وتتبرب اللحن فإنها هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة واشرف منزلة وليس لم يحن له في كلامه مدخل في الأدباء فضلًا عن أن يكون في عداد البلاغاء.

واعلم أن لكل كلام آدابا إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وظلم يهجة بيانه وما الناس عن محسن فضله بمساوئ أدبه فقدروا عن مناقبه.
ذكرت متأيلة: فعن أبيه أنه لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وإن كانت الزاهية عن الدم كرم، والتجاوز في المدح ملثم يصدر عن مهانة والسرف في الدم انتقام يصدر عن شر وكذابا شين. وان سلم من السكرب.

يرى أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سال رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأحمر عن قيس بن عاصم فدمجه، فقال قيس: والله يارسول الله لقد علم أنى خير مما وصف ولكين حسندي فدمجه عمرو وقال: والله يارسول الله لقد صدقت في الأول وما كتب في الأخرى لأني رصبت في الأول قبلت أحسن ما علمت وتنطت في الأخرى فقلت أجج ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إن من البيان لسحر على أن السلامة من الكرب في المدح والدم منذرة
لا سما إذا مدح نظر ودم تجتاه. وحكم عن الأحمر بن قيس أنه قال:
سهرت يلقي أفك في كاملة أرضيه بها سلطان ولا أستنكر بها أي فيها وجدتها.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قبل وكيف ذلك قال: يرضيه ما يسخط الله عن وجل. وسمع ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويلال في مدحه فأنشأ يقول:

اذ ما واصفت أمرًا لامريأ، فلا تفل في وصفه واقصد
فالأثر إن تفل تفل الطفو
ن فيه أمانة الأبعد
فيضمن من حيث عظمته لتفضل المعبث على المشهد.

ومن آدابه أن لا تبعضه الرغبة والرئة على الاسترسلاب في وعد
أو وعده يعجز عنه ولا يقدر على الوفاء بهما فإن من أطلق بهما أسانه
ورسل فيما عانه ولم يستقبل من القول ما يستقبله من العمل صار
وعدة نكثا ووعده جزاء. وحكم أن سالبان بن داود عليه السلام مر
بعصفور يدور حول عصفورة فقال لصاحبة: هل تدرون ما يقول لها قالوا
لا يأتين والله قال: إنه يخطب لنفسه ويقول لما زوجيتى نستكث.
أي غرف دمشق شئت قال سليمان: كذب العصفر فان غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر أن يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب.

ومن آدم أنه أن قال قولًا حققه فعله وأذان كل كلام صدقه بعمله فإن إرسال الكلام اختيار والعمل به اضطرار ولان يفعل ما لم يقل أجمل من أن يقول ما لم يفعل. وقال بعض الحكمة: أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه إلى الكلام أي يكتفى بالفعل من التقول. وقال محمد الزراق:

التقول ما سيدهقه الفعل والفعل ما وكده العقل لا يثبت التقول إذا لم يكن يقل من تحته الأصول.

ومن آدم أنه أن يراعى مخارج كلامه بحسب مقاوضة وأعراضه فإن كان ترغيبا قرهه باللين والطوف وإن كان ترهيبا خلطا بالخشونة والعئف فإن النظف في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود هوا. وقد قال أبو الأسود الدويل لابنه: يابن إن كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزرتك. ومن آدم أنه لا يرفع كلامه صوتا مستكرحا ولا ينزيج له انزعاجا مستنجزا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقاس الطيش أكثر من فضل البلاغة. وقد حكي أن لمجاج قال لأعرابي: أخرطيب أنا قال لم ولولا أنك تكره الردة وتثير باليد وتقول أما بعد. ومن آدم أنه أن يجاب هبس التقول واستصبح الكلام وليعدل إلى الكية عما يستحق صريحة وبستهنج فصيحه ليبلغ الغرض وسماه منه وأدبه مصون. وقد قال محمد بن علي في قوله تعالى:

وإذا مرروا باللغو مرروا كراما. قال: كانوا إذا ذكروا التروج كنوا عنها وكا أنه يقول لنسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغي إلى فش فان سماع الفحش داعي إلى إظهاره وذريعة إلى إنكاره وإذا وجد عن الفحش معرض كف قائله وكان إعراضا أحد النكيرين.
لاشي الحسن البصري

كما أن سماعه أحد الباعثين وأشداني أبو الحسن بن الحارث الهاشمي
تحترم الطريق أو ساطرة
وعبد عهد الموضوع المشتهية
ومعك صن عن قيبال الكلام
كشف السكان عن النطق به
فانتُدب اسماع القبيح
شريك لقائلته فانتبه
وما يجري مجرد فش القول وهباته في وجوه اجتذابه وازوم
تتكب ما كان شنيع البديعة مستنكر الظاهرة وان كان عقب التأمل سليما
وبعد الكشف والروية مستحقيا كالذي رواه الأزد عن الصوف
لبعض المتكلفين من الشعراء:

إيّا شيخ كبير كافر بواحة سيّير
أنت ربٌ ولهو أزق الطفل الصغير

يريد بقوله كافرأي لا بأس لأن الكبر النظفية ولذلك سمى الكافر
بواحة كافرأي لأنه قد غطى نعمة الله بمصيته وقوله بواحة سيّير يتضمن
عليها أن تسر وقوله أنت ربٌ يعني ربٌ وملك من التربة والمي رازق
الطفل الصغير كما أنه رازق الولد الكبير. فانظر إلى هذا التكلف الشنيع
والتمعق الشبيه ما اعتاش من حيث البديعة إذا سلم بعد الطور والروية
الؤلوما ان حسن فيه ظن أو دما إن قوى فيه الارتباك وقما يكون
ذلك إلا من خليج بطر ومرينبا اشر. فاأما الحديث المروي عن النبي
صل الله عليه وسلم أنه قال: لا تصلوا على النبي نخرج من هذا النوع
من التلبس وفي تأويله وجهان: أحدهما أنه أراد النهي عن الصلادة
في المكان المتعين المحدد مأخوذ من النبوة. والثاني أنه أراد الطريق
ومنه سمى رسول الله انيطا لأنهم الطريق إليه وإنما زال عنه التلبس
إذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان من قول غيره تلبسًا
شنيعًا لأن موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرفان كلامه عن التجوز
والإسراس في أمر أونه إلى ما لا يجوز أن يرد به شرع وينهى عنه.
نبّي وليس يمنع ذلك في غيره ولذلك افتقر وجوده منه ومن غيره و من آدابه أن يتخبأ أمثال العلماء الفوغاء ويتخصص بأمثال العلماء الأدباء فإن لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط الامثال ساقطا ونسبيها مستقبلا ولساقط أمثال فنها تميلهم للشيء المرير كقول الصنوبري:

"أنا ما كنت ذاول صحيح الأفاضل به وجه الطبيب ولذلك علانا: إحداهما أن الأمثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لدى الحمة الساقطة الأمثال مرنذول وتنبيه معلول. والثانية أن الأمثال مستخرجة من أحوال المتماثلين بها فيحبس ماهر عليه تكون آمناتهم فلهاين العلتين وقع الفوقاق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة. ورغم أن المتخصص مثلًا عامها أو بسبورا ركيما أكثر الشوطين سمعه من محاولة الأرمان في تسترث في ضرره مثلًا فيصير به مناهج كاذب حكى عن الأصحى أن الرشهد سالله يوما عن أسباب بعض العرب فقال على الخبير استطالت بأمير المؤمنين تبادل له الفضيل بن الربيع: أسقطت الله جنبك أشاطب أمير المؤمنين مثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاور الخلد بمن الأصحى الذي هو واحد عصره وقريع دهره. ولأمثال من الكلام موضع في الأسماع وتأثير في الفؤد لا يكد الكلام المرسل يبلغ مبلغه ولا يؤثر تأثيره لأن المعاني بها لائحة والشواهد بها واضحة والنفس بها وامتدت والقلوب بها واثقة والعقلان لها موافقة فأذان ذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها النجاة على خلقه لأنها في العقول معقولية وفي القلوب مقبوله وما أربعة شروط: أحدها صحة التشبيه. والثاني أن يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقة. والثالث أن يسرع وصولها لنفهم ويعجل تصورها في الوعى من غير ارتياء في استخراجها.
لا يمكنني قراءة النص العربي من الصورة.
ربما جزء النفس من الأمة له فرحة بكل العقائل
وقال ابن المتقفع في كتاب البينة: الصبر صبر في اللذة أصعب أجساماً
والكرام أصعب نفساً وليس الصبر المدود صاحبه أن يكون الرجل قوي
الجسد على الفك والعمل لأن هذا من صفات الخير ولكن أن يكون
للنفس طيبة والأمور متجملة ولذا يجب عند الحفاظ مرتبطة
وأعلم أن الصبر على سنة أقسام وهو في كل قسم منها مجمع: فأقول
اقسمها وأولاها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتهاء عمداً
الله عزه شأنه لأنه ت النفس الطاعة ونを見る الطاعة يصح الدين ونؤدي
الفروض ويستحق الثواب كالف قال في حكم الكتاب: «إذما يرضى الصابرون
أجهم بغير حساب» ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الصبر من الإيمان
بمنزلة الرأس من الجسد» وليس من قل صبر على طاعة خطط من بر ولا
نصيب من صالح ومن لم ير نفسه صبر يكسبها ثواباً ويدفع عنها عقاباً
كان مع سوء الاختيار بعيداً من الرشاد حقيقاً بالضلال. وقد قال الحسن
البصرى رحمه الله تعالى: يامن يطلب من الدنيا ما لا يلمته أرجو أن
تلحق من الآخرة ما لا تطيبه. وقال أبو العتاهية رحمة الله تعالى: 
أراك أمرنا ترجم من الله عفوه وأنت على ما لا يجب مقتضى
تعد على النقوى وأنت مقصر فيمان يداوي الناس وهو مستقيم
ووهذا النوع من الصبر إذا كنت نمط الحكمة وشدة الحكيم فان من
خاف الله عن وجه صبر على طاعته ومن خيب من عقابه ورفق عند
أواصره. والقسم الثاني الصبر على مقتضيه أوقاته من رزية قد أجهد
الجروح عليها وأ حداثة قد كده الهم بها فان الصبر عليها يعقب الراحة منها
ويكسه الموثوب عنها فإن صبر طائعاً وآقا انحصل مما لا زوا وصبر كارها
آتيا. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله تعالى من
لم يرض بقضاء الصبر على بلاي فليخير وبا سوا» وقال علي بن أبي
طالب كرم الله وجهه للأشمعيث بن قيس: إنك وإن صبرتي جرى عليك الغلم وان صبرتي جرى عليك القلم، وأنت مأجور، وان جزعتي جرى عليه القلم، وأنت مازور. وقد ذكر ذلك أبو قيم في شعره فقال:

وقال على في التموزى لأشمعيث أنسبر للبلوى عزة وخشية، وتوجر أو تسالو سلو البهائم.

وقال شبيب بن شيبة للهيدي: إن أحق ما تسبر عليه ما لم تجد إلى دفعه سيبيل وأشبد.

ولين تنسب مصيبة فاصبر، لما عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر، وقال آخر:

تصبرت مغذليا وانى لموقع، كما صبر الظماه في البلد القفر، وليس اصطباري عنصبر استطاعة. ولكنه صبر أمراً من الصبر، والقسم الثالث الصبر على ماقات إدراكه من الرغبة مرجة وأعوز نية، من مسمرة لمولى فإن الصبر عنها يعقب السDES; منها والأمس بعد الأمس، خرق، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أعطى فشكر، ومنع فصبر وظلم فعفر، وظلم فاستغفر فأولئك لهم الأمن، وهو مهتدون".

وقال بعض الحكاءاً: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تله مثل ما لا يخطر باللهم. فلم تله، وقال بعض الشعراء:

أذا ملك الفضاء عليك أمراً، فليس يعصف إلا الفضاء.
فناك ولعدا دار ذلك، ودار العروسة الفضاء.
وقال بعض الحكاءاً: إن كنت تجزع على ماقات من يدك فاجزع على ما لا يصل إليك فأخذه بعض الشعراء فقال:

لا تطل الحزن على فائت، قامة يجد ذكي عليك الحزن.
سيناء سرون على فائت، ومضمر حزنا لما لم يكن.
والقسم الرابع الصبر فيما يخشى جودته من رهبة يغفها أو يحذر.
حلوله من تلكة يخشاؤها فلا يعالج هم ما لم يأت فان أكثر الهموم كاذبة وإن الأغلب من الخوف مدفوع. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الصبر يتوقع الفرج ومن يدنع قرع باب يلج". وقال الحسن البصري رضي الله تعالى عنه: "لا تأجز عليك يومك هم عدك نفسک كل يوم همه. وأنشد بالحاظة لحارثة بن زيد:

اذا الهيم أمسى وهو داء فأمضيه ولست بمضيه وأنت تعادله ولا ينزل أمر الشديدة بحريه انا هم أمه عوقتنا عوادله وقل للفؤاد ان تجد بك ثورة من الروعة فافرح أكثر المرءاطله والقسم الخامس الصبر فيا يتوقعه من رغبة يرحوها. وينظر من نعمة يألما فانه إن أدهسه التوقع لها وأجهله التطلع إليها استندت عليه سبيل المطالب واستفظه تسويل المطامع فكان أحسن لرجائه وأعظم لبلائه. وإذا كان مع الرغبة وقورا وقد الطلب صبورا احتلت عنه عمادية الدهى. وانجبت عنه حيرة الولد فأبصر رشدته وعرف فصده. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الصبر ضية" يعني والله أعلم أنه يكشف ظلم الحياة ويوضح حقائق الأمور. وقال أكثم بن صيفي من صبر ظفر. وقال ابن المفعول: كان مكنويا في قصر أردشير الصبر مفتاح الدرك. وقال بعض الحكايه: بحسن التأني تسيل المطالب. وقال بعض البلغاء: من صبر نال منى ومن شكر حسن النعمى. وقال محمد بن بشير:

إن الأمور إذا سدنت مطالبها فالصبر يفتح منها كل ما ارتجأ لا تتأسست وإن طالت مطالبة "إذا استعتن بصبر أن نرى فرجا أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته. ومدمن القرع للأبواب أن يلجا والقسم السادس الصبر على مانزل من مكره أو حمل من أمر مخوف في الصبر في هذا تفتح وجه الآراء. وتستدعي مكائد الأعداء فإن من قل صبره عزب وأبى واشنده جزته فصار صريح همومه وفريضة غمومه.
وقد قال الله تعالى: "وأشار علي ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور" وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أن استطعت أن تعمل الله بالرضا في البقين ففعل وان لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ماتكره خيرا كثيرا وأعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر" وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مستأصل الحدثان والجزع من أعوان الزمان.
وقال بعض الحكّاء: بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغالق الأمور. وقال بعض البلغاء: عند نسياد الفرج تبدو مطالب الفرج. وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن سليمان بن داود عليه السلام لما استكمل شياطينه في البناة شوكتوا ذلك إلى إلئيس لعنهم الله فقال: اسلتم تذهبون فرحا وترجعون مشاغيل قالوا إلى قال: ففى ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على النافذة عليه السلام فشغفلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك إلى الابليس لعنهم الله فقال: أسلتم تسرحون بالليل قالوا إلى قال: ففى هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغفلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك إلى إلئيس لعنهم الله فقال: الآن جاءكم الفرج فما لبنا أن أصبر سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فادا كان هدى في نفي من أئمة الله يعمل بأمره ويقف على حده فكيف بما جرت به الأقدار من يد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناسي الانتقضة وعند بلوغ الغاية إلا منحوسة. وأنشد بعض الأدباء لعثمان ابن عفان رضي الله عنه:

خليلى لا وانها ما من ملَّمة ولاتكشر الشكوى إذا النحل زالت فصبا برأحتى مضت واضحت تلقينها بالصبر حتى تجلت وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة تدوم على حي و إن هي جلت فان نزلت يوما فلا تخضن لها وان كثر الشكوى إذا النحل زالت فصبا برأحتى مضت واضحت تلقينها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الأيام نفس عزينة فلم رأى صبري على الذل ذلك قالت لها يا نفس موقة كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت وتسامح المصائب وتخفيف الشدائد أسباب إذا قارت حزفا وصادفت عزما كان وقعها وقل تأثيرة وضررها فمنها استشعار النفس بما تعلمه من تزول الفناء وتقيض المسار وأن لها آجال منصرمة ومددا منقضية إذليس الدنيا حال تدوم ولا تخلو فيها بقية. وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما مثل وئلة الدنيا إلا كثيل راكب مال إليه ظل شجرة في يوم صافف ثم راح وتركها". وسأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال: تغر وتضر وكر وسأل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال: إذا أقبلت أدربر وقال عمر بن عبيد: الدنيا أمد والأخرى أبد. وقال أنوشوان: إن جربت أن لا تغتم فلا تتقن ما به تهتم فأخذه بعض الشعراء فقال: 

ألف تر أن الدهر من سوء فعله بكذربمأعطى وسلما ماسدي فمن سره أن لا يرى ما يسوء فلا ينفد شتينا يخف له قدما

وأنشد بعض الحكاء لحكيمنا بعشرة خير قضية ووصية تنفى المهموم الركدا قال المهموم تكون من طبع الورى في لبث ما في طبعه أن ينفدما فإذا أقتنيت من الرجاحة قابلا للكرسا فانكسرت فلا تك مكدا

وأنشدنا بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم: إما الدنيا هبات وعوار مستدردة شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة ولا قتل بزيجهر وجد في جيب قيصره رقعة فيها مكتوب: إذا لم يكن جيد فقيم الكبد فإن لم يكن للأمر دواي فقيم السرور وإذا لم يدع الله دواي ملك فقيم الحياة وقال ابن الزوي:
رأيت حياة المرء رها بموته وصحبه رهنا كذلك بالسمم 
إذا طاب لعيش تنفس طهيه بصدق يقين أن سيذهب كالحلم 
ومن كان في عيش يراعى زواله فذلك في نوس وأن كان في نعم 
ومنها أن يتصور انجذب الشهداء وانكشف الهموم وإنها تتقدر بآوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزء ولا تطول بصبر وإن كان كل يوم يُزْدَهِبَ بها يذهب منها بشطر وياخذ منها بنصيب 
حتى تنجب وهم عنها غافل، وحكى أن الرشيد حبيب رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للوكل به: قل له كل يوم يمضى من نعيمك يمضى من 
قيمة مشله والأمر قريب والحكم الله تعسالي فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

لأ أن ما أَلَّفَ فِيهِ يَدَوَم لَكَ 
المسكين عالم أني وأسْمَكُ 
وأنشد لبعض الشعراء:

عواقب مكروه الأمور خيار 
أوَلِس بباق بُؤسُها وعيمها 
وأناشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حسنته الوفاة: 
أليدبه الحديثة والقديمة 
المير أن ربك ليس تحصي 
تسل عن الهموم فليس شيء 
لعل الله ينظر بعد هذا 
والك بنظرية منه رجيمه 
ومنها أن يعلم أن فيها وقي من الرزيا وكفيا من الحوادث ما هو أعظم 
من رذيته وأشده من حادته ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك 
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى في أثناء كل محبة منحة". 
وقيل للشعي في نائبة كيف أصبحت قال: بين نعمتين خبر منشور وشر 
مستور. وقال بعض الشعراء:
لا تكره المكروه عند حلوله وإن العواقب لم تزل متباينة كم نعمة لا تستقل بسُكراً الله في طي المكاره كامته ومنها أن يتأسِّي بذوى الغير ويتسل بأولى العبر ويعمل أنهم الأكثرون عددادا والأسرعون مدا فيستعجل من سلوة الأمه وحسن العزا ما يخفف شجوعه ويقتل هله وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصقوا بذوى الغير نتسع قول بكم وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء قال البحتري:
فلا تحجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأحاديث من فصيح وأعظم حفرة وحشي تسقط حزوة الردى وموت على من حسام ابن ملجم وقال أبو نواس المرء بين مصائب لا تنقضى حتى يوارى جسمه في رمسه فمؤجل يلق الردى في أهله ومعجل يلق الردى في نفسه ومنها أن يعلم أن النعم زائدة وأنها لم ناحية زائدة وأن السروى بها إذا أقبلت مشروب بالحذر من فراقها إذا أدررت وأنها لا تفرح بإقباطها فرحًا حتى تعقب بفراقها ترحّب فعل قد السروى يكون الحزن. وقد قيل في مشروط الحكم: المروج به هو المتخون عليه. وقيل: من بلغ غاية ما يحب فليتوقف غاية ما يكره. وقال بعض الحكماء: من علم أن كل ناشبة إلى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء. وقيل للحسن البصري رحمه الله: كيف ترى الدنيا قال: شغفني توقع بلائها عن الفرح بخائها فأخذ أبو العتاهية فقال: تزيد الأيام إن أقبلت شدة خوف لتصارينها كأنها في حال إسعافها تsumer وعقة تخفيفها ومنها أن يعلم أن سروى متروك بساءة غيره وكذلك حزنه متروك بسروى غيره إذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب وتصلى صاحبا بفراق صاحب فتكون سروى من وصلته وحزاً من فارقه وقد
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما قرعتم عصا على عصا إلا فرح لها قوم وحزن آخرون" وقال البكترى:
متي أرت الدنيا نباحة خامل فلا تزقب إلا يحمل نبيه
وقال المنتبي:
بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصاصب قوم عند قوم فوائد
ولأنشد بعض أهل الآدب:
ألا أنت الدنيا غضارة أية إذا أخضى منها جف جلوب
فلا تفرح منليك بعينك تفيدة سياحة بيوامثل ما نستذهب وما هذه الأيام الا جنائع
ومالعيش واللذات الأمصاب
ومنها أن يقول أن طوارق الإنسان من دلالات فضله ومحنه من شواهد تجلب وذلك لأحدى عائتين إما لأن الكمال معوز والنقص لازم فإذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيها سواء.
وقد قيل: من زاد في عقله نقص من رزقه.
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "ما انتقصت جارية من إنسان إلا كانت ذكاء في عقله" وقال أبو العثما:
ما جاور المروء من أطرافه طرفًا إلا تخونه النقصان من طرف.
ولأنشد بعض أهل الآدب لا براهم بن هلال الكاتب:
أنا جمعت بين آراءين صناعة فاحبى أن تسري الذي هو أحذق فلا تتقق منهما غيرما جرت به لما الأزرق حسنين تفرق حيث يكون النقص فالرزو واسع.
وإما لأن ذا الفضل محسود وبالذى مقصود فلا يسلم في به من معاد واشتطاط منا و قال النسيبي:
نحن الفقى مخرب عن فضل الفقي كان نسار نبيبة بفضل العين.
وقيلنا تكون عن عنة فاضل إلا من جهة ناقص وبلوئ عالم إلا على يد.
جاهل وذلك لاستخدام العداء بينهما بالمباهنة وحدود الانتقام لأجل التقدم. وقد قال الشاعر:

فلا عدو أن يبني علم يجاهل فإن ذنب التنين تنكرف الشمس ومنها ما يعتاضه من الارتداء بتواب عصره. ويسطه من الحنكة ببلاء دهر ف يصل عوده ويستقيم عموده و بكل أدنى شدته ورخائه ويطغى بحالة عفوه و بلائه. حكي عن تعلق قال: دخلت على عبد الله بن سليمان بن وهب و عليه خلع الرضا بعد النكبة فاما مثلت بين يديه قال ليا أبا العباس استمع ما أقول:

نواب الدهر أدنى وإنما يوعظ الأديب قد ذقت حالا ودقت مرأة كذلك عيش الفتى ضروب لم يمض بؤس ولا تعني إلا ولي فيهما نصبين كذلك من صاحب الليلين تغذوه من جزها الخطوب فقلت لمن هذه الأبيات قال لي ومنها أن يختبر أمور زمانه وبذبه على صلاح شائه فلا يغتر بخيه ولا يطمغ في استواء ولا يفعل أن تبقى الدنيا على حالة أو تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر أجواها ها ها عليه بؤسها ونعيدها. وأنشد بعض الأدباء:

إلى رأيت عواقب الدنيا فترك ما أهوى لما أخشى ففركت في الدنيا وعلمها فذا تجعل أمرها فذاخته كل أمر في شأنه يسعى في العز أفربحا من المهوى تعفو مساويا محاسبتها ولا فرق بين يديه والبشرى مسئلة بين العبد والمولى أراك تدرى كم رأيت من الأحياء ثم رأيتهم موقعاً فإذا ظفر المصائب بأحد هذه الأسباب خففت عن عحزانه وتمهلت
لأبي الحسن البصري

عليه أشجعه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزا. وقال بعض الحكاء: من حاذره لم يبلغ ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجا. وقال بعض الشعراء:

ما يكون الأمر بها كله إما الدنيا سروب وحزون
هؤلاء هوئت الاما سيهون
تطلب الراحة في دار العنا طل من يطلب شيئا يكون
فان أغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعها من أسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الأسى وهم الجزع ما لا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا. وقال ابن الرومي:

إذا البلاط كبر مضاعف فأذا تضاعف صار غير مطلق
فأذا ساعدته جزه بالأسباب الباعثة عليه وأمده هله بالذرائع الداعية اليه فقد سعى في حثنه وأنان على تلته. فمن أسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوا ولا يخلط مع التصور تعزية. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تستفزوا الدموغ بالذكر. وقال الشاعر:

ولا يبعث الأحزان مثل الفكر
ومنها الأسف وشائكة الحسيرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزادر بالأسف ولهما بالحسرة هذا. ولذلك قال ابنه تعالى:

لكي نأتسم واذا وفاكم ولا تورحوكم بما آتاكم. وقال بعض الشعراء:

إذا بينت فتى بالله وأرض به إن الذي يكشف البلوي هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لتقرته ما لا مرءا حيلة فيها قضى الله
الناس يقطع أحيانا بصاحب الله، لا تأسبا فارث الصاغان الله
ومنها كثرة الشكو ورب الجزع فقد قبل في قوله تعالى: فاصبر صبرًا جيلا إنه الصبر الذي لايشكو فيه ولا يوث. روى أنس بن مالك

وقال بعض الشعراء:
لا تشك دهوك ما صححت به إن الغنى هو صحة الجسم
هك الحليفة كنعت منتفعاً بغضاارة الدنيا مع القسم
ونمائها الياس من جبر مصابة ودرك طلابه ففيه مقترين بجزن الحادثة
قئوتو الياس فلا يبق معهما صبر ولا يسمع لها صدر.
وقدي قيل:
المصيبة بالصرى أعظم المصيبتين.
وقال أبي الرومي:
إصبري أيتها النفس فإن الصبر أحمي
ربما خاب رجاء وأتي ما ليس يرجي

وأنشدني بعض أهل العلم:
أتمسب أن البؤس للقدر دائم
ولو دام شيء عده الناس في العجب
لقد عرفتック الحادثات بؤسمها.
وقد أثبت أن كان ينفعت الأدب
ولو طلب الإنسان من صرف دهم.
دوم الذي يخشى لأعياء مطلق.
ومنها أن يغري بالدغة واستمع بالثورة والسعة ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مسؤولاً وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكثفاً فلا يستطيع صبرًا على بلوي ولا يلزم شكرًا على نعمي.

ولو قال بهذه الطريقة...
ملاحظة من شاركه في الرزية وسماوه في الحادثة لتكافأ الأمران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج. وأنشدت لامرأة من العرب:

أيها الإنسان صبراً إن بعد العصر يسر.
كم رأينا اليوم حرًا لم يكن بالأس خرا.
ملك الصبر فاضتي مالكا خيرا وشرًا.
ن شرب الصبر كان ن من الصبر أمرًا.

وأنشدت لبعض أهل الأدب:

يراع الفتى المطقب تبدو صدوره فأسي وفي عقباه يأتي س روره.
دجاه بدأ وجه الصباح وtourه.
فلا تصبن اليسان كنت عالما.
ليبيا فان الدنيا شتى أموره.

واعلم أنه قل من صبر على حادثة وكم لك في نكبة الأكاب
انكشافها وشجاعة وكان الفرج منه قريبا. أحبرى بعض أهل الأدب أن
أبأ أبو الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت
خيلته وقل صبره فكتب الله بعض إخوانه يشكو له طول حبسه فرد
عليه جواب رقعته بهذا:

صبرأ أبأ أبو صبر مبرح
إذ الذي عقدالذي انعقدت له
عقد المكاره فيك يملك حليا.
فقال لها أتبت تجلل ولعلها
فأجابه أبو أبو يقول:

صبرتى ووعظتني وانا لها. وستنجل بل لا أقول لعلها
وبله من كان صاحب عقدها
 صبر وأذ كان يملك حلها.
فل يلمب بعد ذلك في السجن الا أياما حتى أطلق مكرما. وأنشد
ابن دريد عن أبي حاتم:

إذا اشتملت على الياس القلب. وضاق لما به الصدر الرحب.
أدب الدنيا والدين

وأوطنت المكارة، واطمنان، وارست في مكانها الخطوب
ولم ير لانكشاف الضّرر وحِيا ولا أغني بحلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يملّ به اللطيف المستجيب
وكُل الحادثات اذا تناهت فوصل بها الفرج القريب
(الفصل الثالث في المشورة) أعلم أن من الحزم لكل ذي لب
أن لا يبرم أمرا ولا يمضى عز ما إلا مشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة
ذي العقل الراجح فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم
مع ما تكفل به من إرشاده ووعد به من تأييده فقال تعالى: وشاوروه...
في الأمر.

قال قناد: أمره بمشاورتهم تألفاً لم شطب قلبهم. وقال الضحاك
أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل. وقال الحسن البصري رجاء
الله تعالى: أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتعبه فيها المؤمنون وإن
كان عن مشورتهم غنيا. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: المشورة
حصن من النذامة وأمانة الملامحة. وقال على بن أبي طالب
رضى الله عنه: نعم الموازنة المشاورة وابنس الاستعداد الاستبداد. وقال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثية: رجل ثرد عليه الأمور
فيسندها بأيديه. ورجل يشاور في أشكل عليه وبنزه حيث يأمره أهل
الرأي. ورجل حائر بأمره لا يذكر رشدا ولا يطيع مرسدًا. وقال عمر بن
عبد العزيز: إن المشورة والمناظرة باباً رحمة ومفتاحاً بركة لا يضل معهما
رأي ولا يفقد معهما حرم. وقال سفيان بن ذي زن: من أعمى بأيديه
لم يشاور ومن استبد بأيديه كان من الصواب بعيدا. وقال عبد الجليل:
المشاور في رأيه ناظر من وراءه. وقال في منشور الحكم: المشاورية راحة
لك وتبع على غيرك. وقال بعض الحكماء: الاستشارة عن الإداة وقد
خاطر من استغني بأيديه. وقال بعض الأدباء: ما خاب من استخار ولا
لابي الحسن البصري

ندم من استشار. وقال بعض البلغاء: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكمة، فالأراى قد زى، والعقل الفرد ربما ضل. وقال بشار بن بير: 

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم ولاتجعل الشورى عليه غضامة فإن الخوافي قوة للقوادم.

فأذا عزم على المشورة أرتاد لها من أهلها من قد استحكتم في عقله خصائص: إحداه عن عقل كامل مع تجربة سالفة فإنه بكثرة التجارب تصح الروية. وقد روى أبو الزناز عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا". وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد: أحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما نصرع تداوا العاقل إذا كان عذرًا فإنه يوشك أن يورطك، بمشورته فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل.

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال: لن أعفر رجل وفينا حازم ونحن نطيعهم فكأننا ألف حازم. وكان يقال: إياك ومشاورة رجلين شاب معجب بن نفسه قليل التجارب في غيره أو كير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه. وقيل في منتشر الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب ولذلك قيل: الأيام تهنك لك عن الأستاذ الكامنة. وقال بعض الحكاء: التجارب ليست لها غاية والعاقل منها في زيادة. وقال بعض الحكاء: من استعان بذوى العقول فاز بدريك المأمون. وقال أبو الأسود الدؤلتي:

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بليب بيك ولكنه إذاً استجمع عند صاحبه فشاق له من طاعة بنصيب والخصلة الثانية - أن يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح.

وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون، السريرة موفق.
العريزة - روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أراد أمرا فشاور فيه أمرا مما سنة وفقه الله لا رشد آمنه". والخصلة الثالثة - أن يكون ناصحا وودعا فان النصح والمؤدة يصدقان الفكر ويجهدان الراي. وقد قال بعض الحكاء: لا تشاور إلا الحاجز غير الحسود واللبيب غير الحقوق، وإياك ومشاورة النساء، فإن رأيين إلى الأفن وعزمين إلى الوهن. وقال بعض الإدباء: مشورة المشفق الحاجز ظفر ومشورة غير الحاجز خطر. وقال بعض الشعراء:

أصف ضيراً من تعاشره، وأسكن إلى ناصح تشاوره، وآرض من المرء في مودته، بما يؤدي اليد ظاهره، من يكشف الناس لابد أحداً، تصح منهم له سرره، أو شك أن لا يدوم وصل أخ في حقل زلاته تنافره.

والخصلة الرابعة - أن يكون ساهم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهاموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر. وقد قيل في مشور الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب. وكان كسرى إذا دهنه أمر بعث إلى مرازته فاستشارهم، فان قصروا في الرأي ضرب قاحرته وقال: أبطؤهم بأراظهم فأخطروها في أرائهم.

وأما حلاي بن عبد القدوس:

ولا مشير كذى نصح ومقدرة، في مشكل الأمراختذالاً، منتصحاً، والخصلة الخامسة - أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هو يساعده فان الأغراض جاذبة والموى صادمة، ورأى إذا عارضه الموى وعذبته الأفراش فسد. وقد قال الفضل بن العباس ابن عتبة بن أبي هب:

وقد يحكم الأيام من كان جاهلاً، ويدى الموى ذا الرأى وهولييب ويجد في الأمر الفقي وهو مطعى، ويعدل في الاحسان وهو مصيب.
فأذا استسكنت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهلا للشورة ومعدنا للرأي فلا تعدل عن استشارته اعتيادا على ما تتوهمه من فضيل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة روايتك فإن رأي غير ذي الحاجة أسلم وهو من الصواب أقرب خلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم المدير وارتفاع الشهوة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رأس العقل بعد الإيمان بالله التوود إلى الناس وما استغني مستبد رأيه وما حلق أحد عن مشورة فإذا أراد الله نبؤة هكذا كان أول ما يلتفت رأيه". وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: الاستشارونة عين الهمديا وقد خاطر من استغني بأبيه. وقال لقان الحكيم لابنه: شاوار من جرب الأمور فإنك تعطيك من رأيي ما قام عليه بالغالب وأن تأخذه مجاناً. وقال بعض الحكاء: نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكفي لك الرأى. وقال بعض الأدباء: من استغني بأبيه ضل ومن أكتسبه تعالىه لزلي. وقال بعض البلقاء: الخطأ مع الاسترشاد أسف من الصواب مع الاستبداد. وقال الشاعر:

خليل ليس إلا رأي في صدروا واحد أشيأ على البالذي تريات ولا ينبغي أن يتصور في نفسه أنه ان تأثر في أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر إلى رأي غير فان هذه معاذير النوكي وليس يرد الرأى للباهة به وإذا رأد لإلتقاء بيتته والتحيز عن الخطا عند زله وكيف يكون عاراً ما أدى إلى الصواب وصدأ عن خطأ. وقدروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لتحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشاورة". وقال بعض الحكاء: من كمال عقلك استظهارك على عقلك. وقال بعض البلقاء: إذا أشتكى عليك الأمور وتفتيت لك الجمهور فارفع إلى رأي العقلاء وافزع إلى استشارة العلماء ولا تائف من الاسترشاد ولا تستنكر من الاستعداد.
فلأن تسأل وتسلم خير لك من أن تستقبِد وتتدم. وبيني أن تكثر من
اشتراوة ذوا الأفكار لاسيما في الأمر الجميل فقاً ما يضُل عن الجماعة
رأياً ويذهب عنه صواب لأن إرسال المواطر الثاقبة وإجالة الأفكار
الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز. وقد قيل في منثور
الحكم: من أكثر المشورة لم يعتمد عند الصواب مادحاً وعند الخطأ عادراً
وإن كان الخطا من الجماعة بعيداً. فإذا استشار الجماعة فقد اختالف
أهل الرأى في اجتنابهم عليه وانفراد كل واحد منهم به مذهب الرس
أدب الأولي اجتنابهم على الارتداء وإجالة الفكر ليدرك كل واحد منهم
ما قدسه خاطره وأنتج كما كناا في هذا قادح عورض أو توجه
عليه رد نرض كالجود الذي تكون فيه المتزوجة وتقطع فيه المنزعة
والمشاجرة فانه لا ينصح فيه مع اجتياز القراش عليه خلل إلا الأظهر ولا زلل
الأوان. وذهب غيرهم من أصناف الأمم إلى أن الأولى استمرار كل
واحد بالمشورة ليجيم كل واحد منهم فكره في الراي طمعاً في الحفظ
بالصواب فان القراش إذا انفردت استكدها الفكر واستفرغتها الاجتهاد
وإذا اجتمعت فقوست وكان الأول من بديهتها متبوعاً. ولكل واحد من
المذهبين وجه وجه الثاني أظهر. والذي أراه في الأولى غير هذين
المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في الشورى فان كانت في حال واحدة
هل هي صواب أم خطأ كان اجتيازهم عليها أول لأن ما زود بين
أمرى فالمارد منه الاعتراف على فساده أو ظهور الأخفية في صلاحه وهذا
مع الاجتياز أبلغ بعد المناظرة أوضح. وإن كانت الشورى في خطبة
قد استهم صوابه واستعمج جوابه من أمور خانية وأحوال غامضة لم
يعصرها عدد ولم يجيها نتائهما ولا يعرف له ما جواب يكشف عن
خطته وصوابه فالأول في مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوته بخاطره
ليجتهد في الحجوب ثم يقع الكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون
لابي الحسن البصري

الاجتهاد في الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعا لأن الانفراد في الاجتهاد أوضح والاجتناب على المناظرة أبلغ فهمًا، حيث أن يسلم أهل الشورى من حسب أور تناقص من تسليم الصواب لصاحبهم ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارياء والاجتهاد فإذا كان أعظمًا فإن أعدادهم كشف عن أصولها وأسبابها وبحب عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الأمر متعلقًا ولا في الرأي معلومًا فإن يستنجد بذلك معارفية بالجتان بكل خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه وثانية معرفة عقل صاحبه وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأيه والثالثة وضوح ما استبعده من الرأى وافتيت ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضه ولا يؤخذ ضعفه بالاجتناب ثلاث خصال: إحداه معرفة عقله وصحة نزقه والثانية معرفة عقل صاحبها وصورته رأية.
منتهزة والثقة مجيز. وقال ملك، زال عنه ملكه، ما الذي سلبك ملكك.

قل: تأخير عمل اليوم لغد. وقال الشاعر:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزم.
ولا تك بالترداد للرأي مفسداً.
فاني رأيت الريح في العزم هجينة.
 وإن فذ الرأي العزمية أرشداً.

وينبغي لي أن أزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح المواد حتى صار
مأمول النهج مرجع الصواب أن يؤدى حق هذه الثمرة بإخلاص
السيرة، ويكافئ على الاستسلام بهذال النصح. فقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن من حق المسلم على المسلم إذا استنصحه
أن ينصحه» وربما أبطره المشاورة فأنجب برأيه فاحذره في المشاورة
فليس للعجب رأي صحيح ولا روية سليمة. ورمى يَه في الرأي لعداوة
أو حسد أو مكر فاحذر العدو واتبِق بحمود ولا عذر لن استشاره عدو.
أو صديق أن يَكتم رأي وقد استرشد ولا أن يَحون فقد ارتو.. روى
محمد بن المنكدر عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال: «المستشير معان ولمستشار مؤمن». وقال سليمان بن دريد:
وأجب أخاك إذا استشارك ناسحاً وعلى أخلاق نضية لا ترد.

ولا ينبغي أن يثير قبل أن يستشار الأفا مس ولا أن يتبع بالرأي
الا فيا لزم فانه لا ينفك من أن يكون رأيا مثما أو مطرا وفي أي هذين كان
وستبة وإنما يكون الرأي مقبولًا إذا كان عن رغبة وطلب أبو كان لباعث
وسبب. روى أبو بلال العجل عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال: «فاللقان لابنه يابن إذا استشهدت فاشهد وإذا استعنت
فأعن وإذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر». وقال يحيى الكلابي:

له الرأى يستغشتش مالاً تبايعه.
فل لمعن الرأى من ليس أهله. فلا أنت موحود ولا الرأى نافعه.
(الفصل الرابع في كتاب السر) أعلم أن كتاب الأسرار من أقوى أسباب النجاح. وأدوم لأحوال الصلاح. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "استعينوا على الحاجات بالكتاب فإن كل ذي نعمه موسى وقال على بن أبي طالب، كرم الله وجله: سرك أسرك فان تكلمت به صرت أسره. وقال بعض الصحيحة لابنه: يابن كن جواداً بالملال في موضع الحق ضنينا بالأسرار عن جميع الحق فإن أحمد جود المره الاتفاق في وجه العين والبخ والبحث الكتاب. وقال بعض الأدباء: من كتب سره كان الخيار فيه ومن أفصاخ كان الخيار عليه. وقال بعض البلغاء: مأسرتك ما كنت بسرك. وقال بعض النصحاء: ما لم تغيبه الأضاع فهو مكتوف ضائع. وقال ابن سيد: 
ولا تفش سرك الآليك فإن لكل نصيح نصيحا فإنك رأيت وشاهد الراجل لا يتكون أدب صحيحا.
ومع إظهار أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطلبه ولم كن با من سخطه آلم. وفي عواقبه سلما ولناجح حواجه راجيا. وقال أندروان: من حسن سره فله تخصيصه خصائص الظهير بيئته والسلامة من السوطات وإظهار الرجل سر غير أقبح من إظهار سر نفسه لأنه ييوة بحادي وضعتين الحناية أن كان مؤمنا أو 없منا أن كان مستودعا فأما الضرر فهما استودية فيه أو تنفاضة وكلاهما مدموم وهو فيهما ملوم وفي الاسترسال بابذاء السر دلائل على ثلاث أحوال مدمومة: إحداها ضبق الصدر وقامة الصبر حتى أنه لم ينتصر لسر ولم يقدر على صبر.
وقال الشاعر:
إذا المبرء أفيض سره بلسانه ولاع عليه غيره فهو أحصأ
إذا ضاق صدر المرء عن سرته فصبر الذي يستوعب السر أضيق
والثانية — الفعلة عن تحذر العقلاء والمهم عن يقظة الأذناء. .
أدب الدنيا والدين

280

وقد قال بعض الحكاماً: انفرد بسرك ولاتودعه حازماً فيزلاً ولا يجاهل فيه من الخطر. وقد قال بعض الحكاماً: سرك من دمك فإذا تكلمت به فظورته» واعلم أن من الأسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مسالم واستشارة ناصحاً مسالم فليختار العاقل لسره أميناً لبأ لم يتقدم إلى كتمه سبيلاً ولا يتجزى في اختيار من يأتمه عليه ويسوده إياه فليس كل من كان على الأموال أميناً كان على الأسرار مؤمناً، والعفة عن الأموال أمير من العفة عن إذاعة الأسرار لأن الإنسان قد يذيع سر نفسه بمقدار لسانه وسقطر كلامه ويتجزى باليسير من ماله حفظ له وضنه به ولا يرى ما أضعاع من سره كيراً في جنب ما حفظه من يسر ماله مع عظم الضمر الداخل عليه فن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشد تعذراً وأقل وجوداً من أمناء الأموال وكان حفظ السر الخاص أمير من كتم الأسرار لأن أحراز الأموال مميتة وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويتسمحها كلام سابق. وقال عمر شابان عبد العزيز: أيته عنه: القلوب أوعية الأسرار والشقاه أفقالها والألس منشقة فليحفظ كل أمر مستراح سره. ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صادق، ودفين حاتج ونصح بذول وودي موفور وكتمه بالطبع: فان هذه الأموال تمنع من الأذاعة وتوجب حفظ الأمانة فمن كانت فيه فهو عنقاء مغرب، وقيل في منشور الحكم: قلوب العقلاء حصون الأسرار، ولمحذور صاحب السر أن يوجد سره من ينتفع إليه وينقول وقأفع عليه: فان طالب الوديعة خائن. وقال صاحب عبد القادر: لا تدع سراً إلى طالبته، مثل فالطالب للسر مذيع ولمحذور كثرة المستودعين أسره فإن كثرتهم سبب الأذاعة وطريق الانتشار لأمراء: أجهذها أن اجتاع هذه الشرط في العدد الكثي مموز ولا بد إذا كانوا من أن يكون فيهم من أخيل بعضها، والثاني
لافي الحسن البصري

أن كل واحد منهم يجد سبيلًا إلى نقي الإذاعة عن نفسه وإحالة ذلك على غيره فلا يضاف إليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب. وقد قال بعض الحكاء: كنا كثرت حزان الأسرار إزدادت ضياعًا. وقال بعض الشعراء:

ورسر ما كان عند أعرئي وسر الشنائلة غير الخفي

وقال آخر: فلا تنتقم بسرك كل سر إذا ماجاوز الاثنين فاشى

ثم لو سلم من إذاعتهم لم يسلم من إدلاهم واستطالتهم فان لم ظهر بسر من فوطر الإدال وكثرة الاستطالة ما لم يعجبه عنه عقل ولم يكن عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع التعبد. ولذلك قال بعض الحكاء: من فشي سرد كثير عليه العتورون فادا اختار وأرجوان يوفق للاختيار واضطر إلى استيداع سرد ولئنه كفى الاضطرار وجب على المستندي له أداء الأمانة فيه بالتحفظ والتناسي له حتى لا ينظر له ببال ولا يدورة في خلد ثم يرى ذلك حزيمة يرعاها ولا يبدل إدلاه اللنم. وحكى أن رجلا أسرى إلى صديق له حديثا ثم قال أفهمته قال: بل جهبت قال أحفظت قال: بل نسيت. وقيل لجلب بكيف كنت لأسرك قال:

أحمد الخبر وأحلف للمستندي. وقال بعض الشعراء:

ولوقدت على نسيان ماتشتمت منى الضموع على الأسرار والخبز
لكنت أول من ينمي سرائه أذكنت من نثرها يومًا على خطر.

(1) وحكى أن عبد الله بن طاهر تنا كر الناس في مجلسه حفظ السر قال ابنه:

ما لا يخفى ماكى هذه الآيات من الاضطراب وعلم الناسك. والرواية الصحيحة ماذكره الصفيدي في شرح لامية العجم فاقع قاصح هذا الكتاب قال مانصه. وحكى المسعودي أن عبد الله بن طاهر تنا كر الناس في مجلسه حفظ السر قال:

ومستندي مرا تضمنت سره وأودعته من مستقر الحشاء فرأى

وأما السر في قلي كنار ببحيرة

فلا أرى المدفنين ينظر الحشيا

لكنني أخفى فإني كنت

كتب أحمد إبراهيم
ومستودعي سرا تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبراً
ولكنني أخفيت عن كأنك
من الذرة يوماً مأحتط به خبرًا
وما السر في قلبي كيّت بخافصة
لأنى أرى المدفون ينظّر النشراً
(الفصل الخامس في المزاح والضحك) أعلمن أن للزاح إراحة عن
الحقوق ومحزراً إلى القطعية والعقوبة يضم المزاح ويدى المزاح
فوصمة المزاح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء
وأما أذية المزاح فلا إن له معقوبة بقول كريه وفعل ممض أن أمسك عنه
أحسن قاله وأن قاله جنب أدبه سحق على العاقل أن يتقيه وينزه
نفسه عن وصمة مساوية. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال: "المزاح استدراج من الشيطان وابتذاع من الهمى". وقال
عمري عبد العزيز: اتقوا المزاح فإنه حقيقة تورث ضغينة. وقال بعض
الحكاء: أما المزاح سبب إلا أن صاحبه يضحك وقيل: إذا سمى المزاح
مزاحاً لأنه يريح من الحق. وقال باههم النحوي: المزاح من خخف
أو بطر. وقيل في منشور الحكم: المزاح يأكل الهيبة كتأكل النسار
الحطب. وقال بعض الحكاء: من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر
خلافه طابت غيبته. وقال بعض البلاغاء: من قل عقله كثر هزله.
وذكر خالد بن صفوان المزاح فقل: يصع أحكم صاحبه باشدة من
الحنبل ويشتهه أنف من الخردل وينفر عليه أهور من الرجل ثم
يقول إنما كنت أمازاحك. وقال بعض الحكاء: خير المزاح لا ينال
وشره لا يفقال فنظامه النيسابوري في قصيدته الجامعة ألا داب فقال ورزد:
شر مزاح المرء لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح
إن المزاح بدؤه حلاله
لكننا آخره عداوه
ويحترى بسخمه السخيـف
يحتذى منه الرجل الشريف
وقال أبو نواس
خل جنبيك لرام وأمض عنك بسلام
متبدياً الصمت خير لك من داء الكلام
إذا السالم من ألم فه بلجسام
ربما استفتح بالمرح مغاليق الحسام
والمساواة أكلات شاربات للأنام
وعلم أنه قاما يعرف شاهد زواج من كان سهلًا فعالق يتوخي بمزاجه
إحدى حالتين لا ثالثة لها: احصاهما آتاس المصاحبين وتوقد إلى
المغالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول وسيوط من مستحسن
الفعل. وقد قال سعيد بن الامام لابن: اقتضى في مزاحك فإن
الرافض فيه يذهب الذهاب ويجري عليك السفهاء وان التقصير فيه يقض
عنك المؤامرين ويوحي مكالم المصاحبين. والحالة الثانية أن يُنفق
ماظرأ عليه من سام وأحدث به من هم فتقدخل لا يبدل الصدور أن ينفت.
وأنشدت لأبي الفتح البستي:
أفد طبعات المكدود بالحجة راحة بيم وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روي عنه
صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً» فمن مزاحه
صلى الله عليه وسلم ما روي أن الحوراء من الأنصار أنتبه تعالى وكانت برسول
الله أدعى بالمغفرة فقال: أما عامتنا أن البينة لايجعلها العجز فصرخت
فتيسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أما قرأت من القرآن قول
الله عزوجل «إنا أنشأناكم إنشاء جعلناكم أبكاراً عرباً أتراكاً» وأنتم
أخرى في حاجة لزوجها فقال لها: ومن زوجت فقالت: فلان فقال لها:
الذي في عينه بياض فقالت لا فقالت: فانصرفت عجب إلى زوجها.
وجعلت تأمل عينيه فقال لها: ما شاءك فقالت: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في عينيك بياضًا فقال: أما ترين بياض عيني أكثر من سواها. وسأل الشعبي عن أكل لحم الشيطان فقال: نحن نرضي منه بالكفاف وقيل له: ما اسم أسرأة أبيليس لعنه الله فقال: ذلك نكاح مابشداهنا وقال رجل لجلال: بكم تعمل معي قال: بطماعي قاتل له: أحسن قليلاً قال: فأصمع الاثنين والخمس. وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه مسترسلاً في مزاجه. وروى ابن قتيبة في المعافر أن مروان رضي الله عنه يستخلصه على المدينة فركب حماراً قد شهد عليه رذاعة فيسير فيلق الرجل يقول: الطريق قد جاء الأمر وربما أنى الصبيان ولهم يلعبون لعبة الأعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم وينضرب برجله فيقطع الصبيان فيفرعون وهذا خروج عن القدر المستمسم به ويشمك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سابق. وقد كان صبهب بن سان من مازاحاً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أنا كلهما و بك ردد فقال يارسول الله إذا أمضى على الناحية الأخرى وإما استجاز صبهب أن يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لأن استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فأجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتأقباً من قلبه ولا فليس لأحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحاً لأن المزح هزيل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عن جمل أحكامه المؤدي إلى خلقه أوصاره هزلاً ومزحاً فقد عصى الله ورسوله وصبهب كان أطوع الله سيحانه و تعالى من أن يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم: "أنساب العرب وصبهب سابق الروم وسلامان سابق الفرس بلأل سابق الحبشة، وليحذر أن يسترسل في مزاحه عدوًً فيجعل له طريقاً إلى إعلان المساوي هزلاً وهو موجع ويفسح له في التشكي منزحاً وهو محق. وقد قال بعض الحكام: إذا مازحت عدوًك ظهرت عيونك".
لاbiesns_yusri

وأما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة مذهل
عن الفكر في النوائض الملائمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا من
وسم به خطر ولا مقدار . روى أبو إدريس الخولاني عن أبي
ذر الغفاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياباك وكثرة الضحك
فانه يمت القلب ويذهب بنور الوجه" . وروى عن ابن عباس في قوله
عند : "ما هذا الكتاب لا يهزك صغيره ولا كبرة إلا أحصاها" . أن الصغيرة
الضحك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "إذا ضحك العالم ضحك جم من العلم
مجة . وقيل في منشور الحكم : ضحكه المؤمن غلطة من قبله والقول
في الضحك كتبت في المراحل ان تجافاه الإنسان تفر عنه واوحش منه
وإن أنه كتب حاتما ما وصفه فلا يكين بدضحك عند الإنسان تيسرا
وبطاها . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "البسم دعابة وهذا أبلغ
في الإيناس من الضحك الذي قد يكون استهزاء وتعجب وليس ينكر منه
لمرة ثانية لطائري استغلل النفس عن دفعه . هذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجه ولا
كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي ذكرتاه
(الفصل السادس في الطريقة والتفال) أعلمه أنه ليس شئا أضر بالرأى
ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطريقة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيم
غريب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فلقد جهل . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا عدو ولا طيرة ولا هامة ولا صفر".
فالعدوى ما يظهنه الناس من تعتدي العلل والأمراض فأخبر أنها لا تعدى
فقيل يا رسول الله عنى بأني النقية من الحرب في مشهد البعير فتعتمد
الي جميع فقال صلى الله عليه وسلم : "فأعدى الأول" وأما العدة فهو
ما كانت العرب في الجاهلية تعتدهم من أنف القتيل إذا طل دمه فلم

يدرك بثأرها صاحت هامته في القراءتين، وقال الزهراني بن زيد يعنيها:
(1) يا عمرو إلا انتظَرْ شتى ومنقصتي أضرعك حتى تقول الهامة اسموئيل
وقال إبراهيم بن همية
وكيف وقد صاروا عظاما وأقربا يصبح صداها بالعشي وراءها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة سريع إلى ورد العلما كرامها
وأما الصفر فهو كالحية يكون في الجوف يصيب الماشية والناس
وهو أعدى عندهم من الحرب وفيه يقول الشاعر:
لا يس لك الساق من آين ولا وصب ولا يعص على شرسوه الصفر
وروي أبو هزيمة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال: "إذا ظنتم فلا تخفوا وإذا حصدتم فلا تبغوا وإذا نظروتم فامضوا
وعلى الله فتوكلوا" وقال الشاعر:
طيرة الناس لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
أي يوم تخصه بسعود والمنسايا يتبلى في كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعود وتحوس تجري لقوم وقويم
وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب إذا أرادت سفرا
أنفرت أول طائر تلفنه فإن طارتبه سمارت وتمنت وإذا طار بسرة
رجعت وتشاهدت فنرى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال: "افرو الطير على وكتاتها". وحكى عكرمة قال: كا جلوسا عندها براضي الله
عنهم فر طائر يصبح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس: لاخير
ولا شر. وقال لبيد:
لعمرو ماندري الضوارب بالحصى ولا زاحر الطير ما الله صانع
وعلام أنه قاسم يخلو من الطيرة أحد لسهم من عرضته المقداد
(1) هذا البيت من قصيدة نسخ صاحب الأمال في صفحه 359 من الجزء الأول
لدى الإ이며 العدنان.
في أرادته وصدّهقضاء عن طلبه فهو يرجو والأس عليه أغلب ويامل والخوف إليه أقرب فاذا عاقه القضاء وخانت الوجه جعل الطيرة عذر خيته وغفل عن قضاء الله عن وجل ومشيته فاذا تطير أحمم عن القدام ويس من الظهر وظن أن القياس فيه مطرد وأن العسرة فيه مستمرة ثم بصير ذلك له عادة فلا يبخ للسعي ولا يتم له قصد فأما من ساعدته المقدار ووافقه القضاء فهو قابل الطيرة لا قادمه ثة يباليه وتعويلا على ساعدته فلا يصده خوف ولا يكبه خور ولا ينوب الاظراف ولا يعود الامنجحا لأن الغنم بالقدام والخلبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الإباد واطراحها من أمورا الاقبال فينفغى فمن ملي بهما وألي أن يصرف عن نفسه وساس النوكي ودواعي الحيبة وذرائع الحرم وليجعل للشيطان سلطانًا في نفس عزرائه ومعارضة خانته ويلع أن قضاء الله تعالى عليه عابب وأرذقه له طالب وأن الحركة سبب فلا ينفي عنها ما لا بصر مخلوق ولا يدفع مقدورا. ومض في عزائه وائتاه بانه تعالى أن أعطي وراضيا به ابب مدع وفده روى أبوهيره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الإنسان ثلاثة الطيرة والطبن والحسد فخجره من الطيرة أن لا يرجع وخرجه من الطبن أن لا يحقق وخرجه من الحسد أن لا يبيغى". وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كفارة الطيرة الموكل على الله تعالى". وقيل في معتن الحكم: الخير في ترك الطيرة وليقل إن عارضه في الطيرة ريب أو خامر فيها وهم ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تطير فليقل اللهم لا يأتي بالنخيرات إلا أنت ولا يدفن السينات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله". وقد روى أنب رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: "إنا نزلنا دارا كثيرة فيها عدنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحوّلنا عنها إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها..."
عددنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذروها فهي ذميمة. وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وتزك ما استوحش منه إلى ما أنس به. وأما التأل فتقوية للعزم و باعث على الجلد ومعونة على الظهر فقد تفاعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه. وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فذحه فقال: أخذنا فذلك من فيك. فينبغي لم نتفاءل أن يتأول النابل بأحسن تأو يلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سيديلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن البلاء موكيل بالمنطق» رواى أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس فأوجى الله تعالى إليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت: رج السجن أحب إلي ولوقلت العافية أحب إلي لعوفيت. وحكم أن المؤمّل بن امّال الشاعر لما قال يوم الحرية:

»شَفَّتُ الْمُؤَمِّلِ يَوْمَ الْحَرْيَةِ النَّظِيرِ لِيْتَ الْمُؤَمِّلُ لَمْ يَخْضَقْ لِهِ بَصَرٍ عَيْنِي فَأَدَأْتُهُ فِي مَنَامِهِ قَالَ لِهِ: هَذَا مَا طَلَبْتَ. وَحَكِيَّ أَنَّ الْوَلِيدَ ابْنِ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ مَلِكِ يَوْمَ تَفَاءل يوُهَا في المصحف نَفْرٌ لِهِ قَوَّلُهُ تَعَالَى: وَاسْتَفْتَنُوا وَخُبِّ كل جَبَارٍ عَنْدَكُمْ فَقرَطُ المصحف وأنشأ يقول:

»اتبعت كل جبَارٍ عندك وَفَأَنَا ذَاكَ جَبَارٍ عَنِيدُ

إِذَا مَاجَأْتُ رَبِّكَ يَوْمَ حِضْرَ تَفَاءل مِن رَفْقِكِ الْوَلِيدَ فيلم ليلبث الايامآ حَتَّى فَنَّشِل شَرِفتِهِ وَالحَضَرُ رَأْسِهِ عَلَى قَصْرِهِ ثُمَّ عَلَى سَورِ بِلَدِهِ فَنَذَوَّرَ بِاللَّهِ مِن الْبَنِي وَمَصْعَارِهِ وَالشَّيْطَانِ وَمَصِيَادِهِ وَهُوَ حَسِبًا وَعَلَيْهِ تَوْكِلاً

(الفصل السابع في الحواء) أَعلَمَ أَنَّ مِن شاهِدَ الْفُضْلِ وَدَلائل الْكَرِم المروءة التي هي حيلة النفس وِزاينة الهمم فالمروءة مراعاة الأحوال التي تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قيبش عن قدس ولا يتوجه إليها ذم
لابى الحسن البصيري

باستحاقه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عامل الناس فلم يظامهم وحاتهم فلم يجدهم، ووعدهم فلم يغلبهمن فهوى من كلا موته، وظهرت عدالته ووجب أخوته". وقال بعض البلقاء: من شرائط الموهبة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيها لا يستحق ولا يستقل على من لا استحق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثردنا على شريف ولا يسر ما يعقب الوزير والاثم ولا يفعل ما يوجب الذكر والاسم. وست بعض الحكاء عن الفرق بين العقل والموهبة فقال: العقل يأمرك بالأشع والموهبة تاصرك بالأجمل.

ولن نجد الأخلاق على ما وصفنا من حد الموهبة منطوبة ولا عتبة المراة مستعفية، فإنها الموهبة هي الموهبة لما انتعبت عليه من فضائل الأخلاق لأف غورر الموهية وابزع الشهوة يصرفان النفس أن ترك الأفضل من خلافتها والأجمل من طرائقها، وان سامت منها وان أدن أن تسلم إلا من استكمل شرف الأخلاق طبعا، واستغنى عن تبذيبها تكلفها وتطعها. وقال الشاعر:

من لك بالخص ولئس شخص، يقبل بعض ويطيب بعض.
ثم لو استكمل الفضل طبعا، وفي المعوز أن يكون مستكلا لكان في المستحسن من عادات دهره، والموضوع من اصطلام عصره، من حقوق الموهبة وشروطها، ما لا يتوصلى إليه إلا بالمعاناة، ولا يوفق عليه إلا بالتفقد، والمرأة فثبت أن مراة النفس على أفضل أحوالها هي الموهبة، وإذا كانت كذلك، ليس يقصد لها مع تقل كلها إلا من تسهل عليه المشاقين رغبة في الحمد، وهانة عليه الملاذ حذرًا من الدمع، ولذلك قيل:

سيد القوم أشقاه. وقال أبو تمام الطائي:

والحمد شهد لا رى مشاره، يجمعه إلا من تقي الحنطل، عقل حامله ومحبة الذي لم يوه عايته خفيف تحميل.
وقد لحق المنفي ذلك في قوله:
لولا المشقفة ساد الناس كالمجود يفقر والافقاد قتال
وله أيضاً

وأذا كانت النفوس كباراً تعتب في مرادها الأجسام
والداعي إلى استسهال ذلك شيئان: أحدهما علوه الهمة والثاني شرف النفس، أما علوه الهمة فلا إله له باعت على التقدم وداع إلى التخصيص أنفسنا من خمول الضعف واستنكاراً لمهانا النقص، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب معلمي الأمور وأشرافها وشكر دينها وسنفاسها".
وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا تصغر همكم، فليس من أكيد من المكرومات من صغر الهمم. وقال بعض العلماء: إذا طلب رجلان أمرزا طرحة أعظمهما مروية، وقال بعض العلماء: من ترك الناس المعالي فبدو الراجع لم يبلج جسياً، وأما شرف النفس فإنها به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم وتهذيب لأن النفس ربما جبت عن الأفضل وهي به عارفة ونفرت عن الأدب وليست مستحيلة لأنها عليه غير مطبوقة ولا غير ملائمة فتصير منه أمر وضيده الملازم أثر.
وقد قيل: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه وإذا شرفت النفس كانت للاذاث طالبة وفي النضال راغبة فإذا مازجها صارت طببا ملائماً فتُها واستقر قاً من مني علوه الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضاً لأمر أعوزته آله وأفسده جهانه فصار ضرير يروم تعلل الكتابة وانحرس يزيد الخطب فلا يزيد الاجتهاد إلا نعزاً والطلب الاغوزا، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ماهلك امرؤ عرف قدره". وقيل لبعض الحكّاء من أسوأ الناس حالاً قال: من بعدت همته واتسعت أمنيته وقصرت آله وقامت مقدرتها. وقال أفنون الفقيه:
ولا خير فيا يكنب المرء نفسه وتقواله للشيء ياليت دليل الا
لحمرك مابدرى أمرك كيف يتيق اذا وكمل يجعمل له الله واقبا
وقال بعض الحكاى: تجنيوا المني فانهاتذهب بهجة مأخولت ويتصرفون
بها نعمة الله عليكم. وقيل في منشور الحكم: المني من باضع التوكي فان
صادف بهمته حظة تال به أملأ كان فيا ناليه كالمغتصب وفيها وصل إليه
كالمغلب إذ ليس في الحظوظ تقدير حق ولا تميز لستحق وإنما
هي كالسحاب الذي يمسك عن منابت الأشجار الى مغناوص البحار
وينزل حيث صادف من حيث وطيب فان صادف أرضا طيبة فنع
وإذ صادف أرضا خبيثة ضر كذلك إن صادف نسا شريفة تفع
وكان نعمة عامة وإن صادف نسا دنيا ضر وكان نعمة طاقة. وحكى
ان نوسين بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحي إليه قد
ملكت أسفافها على أعلاها فقال: يارب كنت أحب له مريم عذابا عاجلا
فأوحي الله تعالى إلي أليس هذا كل العذاب العاجل الأليم. فأما شرف
النفس إذا تجرد عن عقول الحمة فان الفضل به عاطل والقدر به عاطل وهو
كالفكاة في الجلد الكفول والجبان الفشل نضيع قوته بكسله وجعله بقشله
وقد قيل في منشور الحكم: من دام كلبه خاب أمله وقال بعض الشعراء:
إذا أنت لم تعرف نفسك حقا حوالا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وانضاق مسكن عليك كما أطلب لنفسك مسكات
وياك والسيكى بنزل ذلة يعمر مندك وياك محسنا
وشرف النفس مع صغر الحمة أوين من عقول الامة مع دناء النفس
لأن من علت همته مع دناء نفسه كان متعددا الى طلب ما لا يستحقه
ومنتختا الى آذان السا ما لا يستوبيه ومن شرفت نفسه مع صغر همته
فهو نارك ما لستحق ومنصرب عم يحب له وفضل ما بين الأمرين
ظاهرة وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب. وقد قيل لبعض
الحكاية ما أصعب شيء على الإنسان قال: أن يعرف نفسه ويكتم الأسرار.
فإذا اجتمع الأمراء واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرًا والأدب بهما وافرا ومَشاقي الحمد بينهما مسِيلة وشروط المروة بينهما متمينة. وقد قال الحصين بن المهد الرقاشي:
إن المروة ليس يدركرها أمره ورث المكارم عن أب فأضاءها أمرته نفسها بالبداية والختام ونتهى عن عمل العلا فاطعها فأما أصاب من المكارم خلة التي الكريم بها المكارم باعها.
وأعلم أن حقوق المروة أكثر من أن تحصى وإن كنت من أن تظهر لأن منها ما يقوم في الهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحلال حسًا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفي بالتفاوت فلذلك أعور استيائه شروطها إلا جحلا ينتبه الفاضل لها ليقطنه ويدخل العاقل عليها بقطره وإن كان جميع ما تضمنه كتبنا هذا من حقوق المروة وشروطها ونما أذكر في هذا الفضل الأكبر من قواعدها وأصولها والأظهر من شروطها وحقوقها
محسورة في تقسيم جامع وهو يقسم قسمين:
أحدهما شروط المروة في نفسه والثاني شروطها في غيره. فأما شروطها في نفسه بعد التزام ما أوحيه الشرع من حكايته فيكون بثلاثة أمور: وهي العفة والنزاهة والصيانتة. فأما العفة في نوعان: أحدهما العفة عن المال وثاني العفة عن المآئم. فأما العفة عن المال فنوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام. والثاني كيف اللسان عن الأعراض. فأما ضبط الفرج عن الحرام فلا أن عده مع عيده الشرع وزائير العقل معترفة فاضحة ومتكلمة واضحة. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من وقَّعَ شَرِّ ذَبْهٍ وَلَقَّفَهُ وَقَبَّشهُ فَقُدْ وَقِ» يريد بدعاء الفرج واقته اللسان وبقته البطن. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أحب العفاف إلى الله تعالى عقافة الفرج والبطن.» وحكي أب
لأبي الحسن البصري

معاوية رضي الله عنه سأّل عمرا عن المرعى فقال: تقوى الله تعالى وصلة الرحمن وسأّل المغيرة فقال: هي العفة وما حرم الله تعالى والحرفة في أهل الله تعالى وسأّل يزيد فقال: هي الصبر على البلوى والشكر على النعمة والإفو عند القدرة فقال معاوية: أبي منى حقتا. وقال أبا شروان لابنه هرمز فقال الكامل المرعى من حسن دينه ووصيل رحمه وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكمة: من أحب المكارم اجتنب المحارم. وقيل: عار الفضيلة يُكرر لدتها. وقد أنشدنا بعض أهل الأدب للحسن بن على رضي الله عنهما:

الموت خير من ركب العار والعار خير من دخول النار.

وأبي الله من هذا وهذا جاري.

والدأعي إلى ذلك شيطان: أحدهما أرسل الطرف والثاني اتباع الشهوة.

وقد روى عن النبي ﷺ عليه السلام أنه قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان الأولى لك والثانية عليك. وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تأو يلان: أحدهما لا تتبع نظرة عينيك نظراً🗣 وثاني لا تتبع الأولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي توقعها عمداً. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: إما كم والنظرة بعد النظرة فإنها تزعر في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبتها فتنة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: العيون مصادع الشيطان. وقال بعض الحكمة: من أرسل طرفه استدعى حتفه. وقال بعض الشعراء:

وكنت متهيو أرسلت طرفك رائناً القلب يوماً أنت بعثت المناظر.

رأيت الذي لا حسكة أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر.

وأما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الألباب ومحسنة الفبائع ومسؤولة الفضائح وليس عطاب إلا وهي له سبب وعليه ألب ولذلك قال النبي ﷺ عليه السلام: "أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان: من ملك نفسه حين يرغب وحين يذهب وحين يشتهى.
وحين يغضب». وقررها عن هذه الأحوال يكون بثلاثة أمور: أحدها غض الطرف عن إثارةها وكفها عن مساعدتها فإن الرائد المخلد والقائد المهلك، روى سعيد بن سسان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تقولوا الي بسم أقبل اليمين بالحجة قالوا وما هي يارسول الله قال: إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا أتم على غضوا أحشواكم واحتفظوا فروجكم وكفوا أيديكم». والثاني تريثها في الحال عوضا واقتها بالمباح بدلا فان الله ماجزم شيئا ولا أغني عنه محاب من جسمه لما علمه من نوازع الشهوة وتركب النظرة ليكون ذلك عونًا على طاعته وحاجزا عن مخالفةه. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «مأصر الله تعالى بذئ الإعانة ولا أعز على شيء إلا وأغني عنه. والثالث إشعار النفس تقوى الله تعالى أو وراءه واقتها في زواجها وإزارها ما آلمه من طاعته وتخذهما ما حذر من معصیته واعلامها أنه لا يخفى عليه صبر ولا يзы عليه قطيعا وأنه يجازي الخير وبقاء الدمعة، وذلك نزل كتبه وبلغت رسالته. روى ابن مسعود أن آخر هانزل من القرآن: «وأنقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم تقوى كل نفس ما أكبت وهم لا يظلمون» وأخر ما نزل من الدورا: «اذا لم تستذئ فاصع مسمت» وأخر هانزل من الأنجيل شر الناس من لا يبال للزواج الناس مسئوال» وأخر ما نزل من الزبور من يرع خيرا يقصد زرعه غبت فإنا أشارها ماوصفنا انفتادت إلى الكف وأذنت بالانتهاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط وأما كف النسوان عن الأعراض فلا أن عدهم ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغواغر وهو مستسلم الكف إذا لم يقصر نفسه عليه براع كاف وزاجه صاد تلبب بتعاب وتحطب بمضاره وظن أنه لنجفي الناس عنه حمي يبكي وربتة ترتفع فهلك وأهلك. فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:
وكنت كمنز السوء قامت حلفها إلى مدينة تحت الثرى تسيبها وأما الحلال فقد يكون من قوة الظلم وتطالب مدنه فيصير نظامه مع المكينة جلاء وفانء كان نارًا إذا وقعت في يابس الشجر فلا تقرب معها تمكنها شيئًا حتى إذا ألبنت ما وجدت أضحكت نحنست فكدًا حال الظلم مهلك ثم هالك. والباحة على ذلك شيئان الجراءة والفسوقة ولذلك قال النبي عليه السلام: "اطلبوا الفضل والمعرف عند الرحمة من أمتي تعيشوا في أكافهم" والصادق عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى في الظلمين فأخلفه عرها ويتصرف عواقب نظامهم فإن فيها مزدجاً. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من صحف ولم يتوظف أحد غزوات الله له ماجترم". وروى جعفر بن محن عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا على ألق دعوة المظلوم فإنما يسأل الله حفه وإن الله لا يمنع ذلك حق حقه". وقيل في مثى الحكم: وليل للظلم من يوم المظلوم. وقال بعض البلقاء: من جارحكه أهلكك نظامه. وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا نظام إلا سبيله نظام، وأما الاضرار بالخيانة فضعة لا يد بذل الخيانة مهين ولقن التفاحة به مستكين. وقيل في مثى الحكم: من يدخن يهن. وقال خالد الربي: قرأت في بعض الكتب السالفة أن مما تعجل عقوبته ولا تؤثر الأمانة تفان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس. وألم يكن من ذم الخيانة إلا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكلفه زاجرها ولو تصور عقبي أمنامه وجدوى تقت له علم أن ذلك من أربع بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدميه مع ما يجده في نفسه من العز وقابل عليه من الاعظام. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أذا الأمانة التي من امتلك ولا تنفع من خانك". وروى سعيد بن جبير قال لما تزلت هذه
لا تخفني لما أقول على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين واستترق الله مهما في خرائطه فابن الكاف والهون والبعث على ذلك شيمان الشره وقيلة الأثقة فلا يقع بما أوقى وإن كان كثيرا لأجل شره ولا يستنكر مما منع وإن كان حقيقا لقلة أتفتته وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدرا ورى المال أعظم خطرا
فييرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنا وليس لأن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل إصلاح لتأنيث ولا قبول لتأديب، وروى أن رجلا قال يرسول الله ﷺ أوصني قال: عليك بالآيات ما في أيدي الناس وإليك والطبع فأنه فقر حاضر وإذا صلت صلاة فصل صلاة مودع وإليك وما يعتذر منه وقال بعض الشعراء:

ومن كانت الدنيا منه وهم سنة المري واستعذبته المطامع
وحسم هذه المطامع شيطان، ياس والقناعة، وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن روح الله نفت في روعي أن نفسي ان تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجلسوا في الطلب ولا يجلمنكم إبطاء الرزق على أن تطلبوا بمعاصي الله تعالى فان الله عن وجل لا يدرك ما عانده إلا ببطائه»، فهذا شرط، وأما مواقف الريف فهي المتزد بمنزلتي حف ودم والوقوف بين حائلة سلمامة وسك فتنوّجه إليه لائمة المتوفين وساله ذلة المريبين وكسف بصاحبه موقناً إن صحف تضح، وإن لم يصح امتنع، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دع ما يزيدك إلى مالا يريبك» وسُئل محمد بن عاين المروأة فقال: ألا تعمل في السر علما تستحي منه في العلنجة وقال حسان بن أبي سنان: ما وجدت شيطان هو أهون من الورع قبل له وكيف قال؟: إذا أرتيت بشعر تركته، والداعي إلى هذه الحال شيطان: الاستسال وحسن الظن والitalize منهما شيطان، الحياء والجذور، وربما انتفت الريفة بحسن الناقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة، وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين، وقد خرج من منزل أمرأة ذات خفق وقال: يا روح الله ما تصنع هذا، فقال الطبيب أنها يداوي المرضى، ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقا إلى الاستسلام، ولكن الحذر عليه أغلب وأنا الخوف من تصديق التهم أقرب فما كل رية...
لأبي الحسن البصري

بنفسي حسن الثقة. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق
الله من الريب وأصوئهم من التهم وقف مع زوئته صافية ذات ليلة
على باب المسجد يحائرها وكان معتفكا فز به رجلان من الأنصار
فاما رأياه أسرع فقال لها: على رسّلكا إنها صافية بنت حي فقالا: سبحان
الله أوفيك شكل يارسول الله فقالا: م السيطان يجري من أحكم
بجري لجهزته ودهم نفشت أن يقدم في قليكم سوءاً. فكيف من تغلبت
في الشكوك وتغلبت فيه الظنون فهل يعرى في مواقف الريب من
قاذح محق ولايم مصدق. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال: "إذا لم يشق المرء إلا مما عمل فقد سعد" وإذا استعمل
الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومزان التهم وليفق موقف
الاعتدار ولاذر لختار لم يختال في زاهته شك ولم يقبح في عرضه إفك.

وقد قال الشاعر:

أصلحك أن أدل عليك انا لأن الظن مفتاح البقين
وقال سهل بن هرصن مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتصرف. وقال
بعض الحكاءاء: من حسن ظنه بين لا يخفى الله تعالى فهو مدخل. وأندنا
بعض أهل الأدب لأبي بكر الصديق رحمه الله قوله:

أحسن ظني بأهل دهرى
حسن ظني بهم دهان
لا أمن الناس بعد هذان
مال الخوف الا من الأذان

فهذا شرط استوفينا فيه نوع النزاعة. وأما الصيانة وهي الثالثة
من شروط المروعة فنوعان: أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقديم
مادتها والثاني صيانتها عن تجول المن بن الاسترسال في الاستعانة. أما
التماس الكفاية وتقدير المسافة فلا أن المحتاج إلى الناس كل مهتم وذليل
مستثنى وهو لما أضرع عليه يحتاج إلى ما يستمده ليقيم أود نفسه ويدفع
ضرورة وقته ولذلك قالت العرب في أمثالها: كلب جوال خير من أسد
على التوالي، وحسن التدبير في المعيشة. وقيل لبعض الحكاكاء: فلا ينفع فقال: لا أعرف ذلك مالى أعرف تدبيره في ماله فذا استقلل هذه الشروط، فإن يستدمه من قدر الكفاعة فقد أدى حق المرؤه في نفسه.

وسأل الأحذاء بن قيس عن المرؤه فقال: اللطف والحرفة. وقال بعض الحكاكاء: فبأني لا أبتكون على أحد. فتزيد ضلاغ ولا ينفع في الأرض عوداً. وبدأ ولا ينفع لناس كفر كان فدهب ولا ينفع من الطلب لوصف ولا ينفع من هذا حال اللانز. وقيل كان دوافهم العليلة والظروف الأبية يرون ماوصل إلى الإنسان كما أفضل مهما وصل إليه

إرثه لأنه في الأثر في جواد غيرة والإكس ماجد إلى غيرة وفرق ما ينها في الفضل ظاهر. وقال كشايج:

لا أستدل العيش لم أباد له طلب وساع في الحمامة والنظام.

وأرى حرام أن يتواتني الفنح حتى يحاول بالعناء ويدميث فأصرف نوالك عن أخليك موجهاً فالديك ليس يسيئ إلا ما يفطر.

وأما الندب فهو مافضل عن الكفاعة وزاد على قدرا الحاجة فان الأمر فيه معبر بماله طالبه فإن كان من تقاعد عن مراتب الهواء وقناصر عن منظورين وأنفسهم عن منافسة الأكفاء فحسب ما كفاء فليس في الزيداء الا شرب ولا في الفضل إلا نههم وكلاهما مذهوم. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خير الرزق ما يكتن وخير الذكر الخلاني".

وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: الدنيا كلها على الدافع. وقال عبد الله بن مسعود: المستحق من الدنيا بالدنيا كطفل النار بالتبين.

وقال بعض الحكاكاء: أشتهر ماء وجعله بالقناعة وظل عن الدنيا بتغالها عن الكرم. فإن كان من مبنى علو الهام وتحركت فيه أريجية الكرم. وأثر أن يكون رأساً مقدماً وأن يرى في النفس معهما ونعشها فالكفاعة لا تقل حتى يكون ماله فاضلاً ونائله فائضاً فقد قبل لأبعاد العرب.
المروعة فحكم قال: طعام ما كول ونائئ مبذول وبشر مقبول. وقد قال الأحناط بن قيس:
فأولم شروى بمال كبير بلغت وكنت له بإذلا
فان المروعة لا تستطاع إذا لم يكن مالها فاضلاً
وأما صائنتها عن تجلل المنى والاسترسال في الاستعفانة فلأن المنى
استرقاق الأحرار تحدث ذلة في المقول عليه وسطوته في المان والاسترسال
في الاستعفانة تشيل ومن نقل على الناس دان ولا قدرون عندهم مهان.
وقال رجل لعمري رضي الله عنه: خدمك بنوك فقال: أغلقت الله عنهم.
وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: لا بني الله ذو نعمة فإذن إلا
ان استمعت أن لا يكون بنيك وبن الله ذو نعمة فإذن إلا
وقد جملك الله حرا فان اليسير من الله تسالى أكرم وأعظم من
الكثير من غيره و إن كان كل منه كنير. وقال زيد لبعض الدهاقين:
مالمروعة فحكم قال: اجتنب الرعب فإنه لا يذيل مصيب وإصلاح الرجل
مالمه فإنه من مروعة وقيمه تحواثه ومواثق أهله فإنه لا يذيل من احتاح
إلى أهله ولا من احتاح أهله إلى غيره. وأنشد تعلب:
من عرف خف على الصديق لقاؤه وأخوه الأجواق وجهه مملول
وأخوته من وفرت ما فق كيسه فاذعا عبئت به فأتت تقبل
و إن كان الناس لحمة لا يستغتون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعد
المطافر فان ذلك تعاون اشتكاهون فيه ولا يتفاضلون وربما
كان المستعين فيه مفضلاً والمعين مستضلاً كاستعفانة السلطان بجنه
المزارع بأكرهه فليس من هذا بد ولا لأحد عنه غني. وإنما الذي
يعتبرهم عن الكرم تعاون الوضيء فيقبضون عن أن يستعينوا لتلا
يكون عليهم يد ويسارعون أن يعينوا لأن يكون لهم يد ومن أقدم من
غير ضرور على الاستعفانة بجان أو مال فقد أوهى مروعته واستبدل
صيانته، ومن دعاه الاضطرار لبال فيه ألم أو حادث لم يجي إلى الاستعانة. 

بمن ينتفس به من خناق كربه ويتخلص به من وقائع نوبةه فليوم على 

مضطر فان أغنته الاستعانة لجاها عن الاستعانة بالمسال فلا عذر له 

في البعوض للحال ويعدل إلى ولاة الأمور فان الحال قانون اثناءه أنجح وهي 

عليهم أسهل وهم لذلك مندبو بون فهم لا يجدون لهم مساوية ويصربر على 

ابطاعهم فان تركهم الأمور عليهم يتغلبهم إلا عن الملح الصبور ولذلك قيل: 

"قدم لكم ذات شخص وراعى قونه، وليعتي متبرمة من رعاها 

وأيا ما زرتاه من عدم ولكن ينمس إلى الإمارة من رجاها 

وأيا ما فعلته فان نفسه " تعيد صلاح نفسها من غاها 

فان نعذر عليه صلاح حاله الابن يتعين به على نواياه كان له 

مع الصورية، فقياس للكن انتقل فى قره مرفود لا يظلمه صلة وجودة 

فان الفرض مستمسح به في الروءات، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم 

مع ما أعاد الله من قدره وفضله على خلقه قد اقتضى ثم قضى فأحسن 

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أفياه روى الله تعالى حلالا قليستن 

على الله وعلى رسوله" وقال صلى الله عليه وسلم: "المستدين تجزى الله 

في أرضه". وقال البخارى: 

"ان لم يكن كثر فقتل عطيتيه يبلغ بها بارى الراية بعض الرضا 

أو لم يكن هبة ففاوضه بيستراً أصمامه وكواهة من أضرارا 

ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رق الافضال، وقد روى عن 

علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال: من أراد البقاء ولا بقاء فليبا كر 

الغدا وليخفف الراية، فقيل وما من خفنة البقاء من البقاء قال: قلله الدين 

فان أعوزه ذلك إلا استنادا فهو الرق الذيل ولذلك قيل: لا ضرورة لقله 

وقال بعض المجامع: من قبل صلتك فقد بايك مرويته وأذل لقدرك عن ت
وجلالته، والذي يعامسة به الباقية من مروءة الراغبين، والسامة سلسلة
من صيانة السائرين، وإن لم يبق لذي رغبة مروءة، ولا لسائل تصب
أربعة أمور هي جهد المضارع: أحدهما أن يتقاضى ضرر السائرين، وأهم
المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالأبى، ولكي من التجميل على ما يقتضيه
حال مثله من ذوى الحاجات، وقد قيل لبعض الحكمة مثا يفحص
زوال النعم قال: إذا زال معها التجميل، وأنشود بعض أهل الأدب
لعل بن الجهم:
هي النفس ما حملتها تحميل، ولله أياً تجوز وتمشل
وعاقبة الصب الجميل جميلة، وأحسن أخلاقي الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحز نعمة، ولكن عاراً أياً يزال التجمل
والنافذ أن يقتصر في السؤال، على ما دعمه إليه الضرورة وقادته إليه
الحاجة ولا يجعل ذات دعوة إلى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يبسط
في ضرورته، وقد قال بعض الحكيمة: من أليف المسئلة أليف المنع.
والثالث أن يعذر في المنع، ويسكر على الإجابة فإنه إن معه فا لا يملك
وإن أجيب فا لا يسبق. فقد قال السير بن تواب:
لا تغضبين على أمرئ في ماله، وعلى كرامه صلب مالك فاغضب
والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للسالة أهلاً وكان النجع عنه
ماً، ولا فائت ذوي الكفية كثيراً والمعين منهم قليل، ولذلك قال النبي
صل الله عليه وسلم: "الخير كثير وقيل فاعله". والمرجع للإجابة من
تكاملت فيه خصائصاً وهي ثلاثة: إحداهن كرم الطبع فان الكريم
مساعد والله معاند. وقد قيل: المخزول من كان له إلى اللهم حاجة
والثانية سلامة الصدر فان العدو يلب على نطبك وحب في نائبك
وقد قيل: من أوغرت صدره استدبعت شره فان رق لب كرم طبعه.
ورحمت ب phêن ظفره فأعظم بها محنة أن يصير عدوّك لك راحاً
وقد قال الشاعر:

ويحسب من حادث فننّي ترى حاسدُـي له راحيـنًا
والثالث ظهر المكتنة فان من سأل مالاً يمكن فقد أمال وكبى
كستنجد المسجون ومستعفف المدين وكان بالرذخليا وبحرمان
حقيقاً. وقد قال على كرم الله وجهه: من لا يعرف لا حتى يقال له لا
فهو أحق، ووصى عبد الله بن الأهم ابنه فقال: يا بني لانطلب الحوائج
من غير أهلها ولا تطلبها في غير حينها. ولا تطلب ما ليست له مستحقة
فانت إن فعلت ذلك كنت حقنًا بالحرمان. وقال الشاعر:

ولا تسألن امرأ حاجة تحاول من ربه مثلها
فترك ما كنت حملته وبيده بحاجته صبها
فهذا ما يختص بشروط المروة في نفسه. وأما شروط المروة في عهده
فثلاثة: الموازاة والمبارة والانضال. أما الموازاة فنوعان: أحدهما
الإسعاف بالجاه والأثنان الإسعاف في النوائب. أما الإسعاف بالجاه
فقد يكون من الأعلى قدراً والأنذ أمرة وهو أروع المكارم متناً
وألف الصائغ موقعاً وربما كان أعظم من المال نفعاً وهو الظل
الذي يلجأ إليه المضطرون والمنام الذي يأتي إليه الخائفون فإن أوطأه
تسع بكثرة الأنصار والشع. وإن قبيحة تقطع نفور الغاشية والبع
فهو بالبديل ينّي ويزيد ونذك ينقص وينيد فلا عذر لم يمنح
جاها أن يحل له يكون أسوأ حالاً من البخيل بماله الذي قد يصرده
لوائه ويبقيه للذته. ويزيد لذريته. وبضعة تلك من يحل يجره
لأنه قد أضافه بالشبح البدده بالبخل ورحم نفسه غنيمة مكتبة وفرصة
قدره فلم يعقبه إلا فيما على فائت وأمسفاً على ضائع. ومقياً يستحكم
في النفوس وذذا قد ينتشر في الناس. وقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال: «انطلق كلههم عيال الله وأحب خلق اللهم تعالى إليه أحسنهم صنيعا إلى عياله». وقال بعض الحكاءين: أصنع الخير عند إمكانه يبق لك حضرة عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رحائق عادة لزمان بلائق. وقال بعض البلغاء: من علامته الاقبال اصطناع الرجال. وقال بعض الأدباء: بذل الجاه أحد الحبابين. وقال ابن الأعرابي: العرب تقول من أمل شيء هابه ومن جهل شيء عابه. وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمه وضده من ضده وليس بذل الجاه لاتماس الجزاء بلزا مشكورا ولا أنها هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلاله فكان بالذم أحق». وأشار بعض الأدباء على بن عباس الرومي رحمه الله:

لا يبذل العرف حين يبذلله كشيئين الحمد أو كعذابه بل يفعل العرف حين يفعله ألوه العرف لا الأعراضه وعلى من أسعد ينحية ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الأجر: أحدهما أن يستقبل المعونة مسرورا ولا يستقنقا كارها فيكون بنم اللهم تعالى متبرورا ولاحظته متسخطا. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه» فمن لم يتحمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوار، والثاني مجانة الاستئطالة وترك الامتتان قاسهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصدوع وإحباط الشكر، وقد قال للحكم اليوناني من أضيف الناس طريقا وأقتهم صديقا قال: من عاهل الناس بسبب وجهه واستطال عليه بنفسه، والثالث أن لا يكون يمشكور سعى تقيرا بذن ولا توقيعا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بادراك النجح وبصير الشكر وبداء والحمد عيا وله ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أقبلوا ذوى الهيئات عتراتهم» وقال النابغة الجعدى:
لأبي الحسن البصري

ألم تعلم أن الملاءمة تقعها قليل إذا مالشيء ولقيادباً
وما الامساك في النوايَب فلا الأئمَّ الساعرة والنسائِل غائرة
والحوادث عارضة والنوايَب راكبة فلا يعذر فيها الا علم ولا يستنذقه
منها إلا سليم وقد قال عدلى بن حاتم:

كَفَى زاجرا للرّه أياَم دهره تروح له بالوعظات وتغتديه
فاذّا وجد الكريم مصاباً بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على
الأمساك فيها بما استطاع سبيلاً إليه ووجد قدرة عليه. روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير من الخير معطيه وشر من الشراعائه»
وقيل لبعض الحكاء: بِهِل شَيء خير من الذهب والفضة، قال: معطهماً
والأمستاك في النوايَب نوعان: واجب وتبوع. فاما الواجب فما
اختصر بثلاثة أصناف وهم: الأهل والأخوان والجيران أما الأهل
فما نسبة الرحمة ومعاطف النسب، وقد قيل لم يسد من احتاج أهله إلى
غيره، وقال حسان بن ثابت:

وإن امرأة نال المني لم ينزل بها قريباً ولا ذا حاجة لزهيد
وإن امرأة عادى الرجال على الغني، ولم يسأل الله الغني لحسود
وأما الأخوان فلم يحكم الود ومتأكّد العهد. وسائل الأحاف
ابن قيس عن المروج قال: تصدق اللسان ومراساة الأخوان، وذكر الله
تغلال في كل مكان. وقال بعض حكاء الفرس: صفت الصدوق أن يبذل
لكماله عند الحاجة ونفسه عند التكية ويحفظ عند الغيب. ورأى
بعض الحكاء رجلاً يصطبجان لا يرتفقان فسأل عنهما فيقل هما صديقان
قال: ما بال أحدهما فقيه والآخر غني. وأما الجار فلندتاره واتصال
مزاها قال على كرم الله وجهه: ليس حسن الحوار كرف الأذى بل الصبر
على الأذى. وقال بعض الحكاء: من أجاز جاره أعانه الله واجاره.
وقال بعض البلقاء: من أحسن إلى جاره فقد دل على حسن تجاره.

وقال بعض الشعراء:

والله يحارب حق فاحترى من أذائه وماخير جار لم يزل لك مسؤًيا فيجيب من حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمل ألقائهم وإسعافهم في نواحيه ولا فسحة لذة مروءة عند ظهور المكينة أن يكلهم إلى غيره أو يلجههم إلى سواه وليكن سائل نفسه عنهم فأنهم عمال كرمه وأضاف مروءته فكأنه لايسكن أن يلجه عياله وأضيافه إلى الطاب والرغبة فهكذا من عاله كرهه وأضافته مروءته. وقال بعض الشعراء:

حق على السيد المرجوع نائله، والمستجار به في العرب والعجم أن لا يذيل الأقاصي صوب راحتته حتى يخص به الأدنى من الخدم.

إذا الفرات إذا جاشت غوار به رؤى السواحل ثم امتدّ في الأهم، وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لايدلون بنسب ولا يتعلمون بسبب فإن تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فبغي في حوادئهم وتكافل بنوايهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها إلى شروط الرباطة. وقيل لبعض الحكاء أي شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الاله قال: الأحسان إلى الناس، وإن كلف تشاغلنا بما لام لوم ما لم يلبجنا إليه مضطر لأن القيام بالكل معوز وتكافل بالجميع متعذر لهذا حكم الموازرة، وأما الميازة فنوعان: أحدهما العفو عن الهفوات والثاني المساعدة في الحقوق. فأما العفو عن الهفوات فلا ته لامبرا من سهو وزول ولا سليم من نقش أو خلل ومن رام سليا من هفوه والتس بريكا من توه فقد تعدي على الدهر بسطحه وحاد نفسه بغلطه وكان من وجود غيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا. وقد قالت الحكاء: لصديق لم أراد صديقا لاعيب فيه، وقيل لأنشرواونه هل من أحد لاعيب فيه قال: من لاموت له وإذا كان الدهر لا يوجده مطالب ولا
لأبي الحسن البصري

يُنبهنا مَا أحب وكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لمه مساعدة زمانه في القضاء ومياسية أخواته في الصفح والاغضاء. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله تعالى أمرني بقيادة الناس كما أمرني بأداء الضرائب". وقال بعض الأدباء: ثلاث خصال لاتجتمع إلا في كريمه حسن المصير واحتيال الزلة وفقة المالال. وقال ابن الرومي:

فعدرك مبسوط لذنب مقدم ووَتْک مقبول بأهل ومرحب ولو قلّن عليك أذنِي أفتحها لدى مقام الكاشن المتسکذب فلست بتفلب اليسار مصابما خليلا إذا ما القرب لم يتقلب وإذا كان الاغضاء حبي والصفح كلام نزب بحسب الهفوة وتزل بكسدر الذنب والهفوات نوعان: صفائر وكبار. فالصفائر مفعوله والنفوس بها معدورة لأن الناس مع أطرافهم الخائجة وأخلافيهم المفاضلة لا يسعون منها فكان الواحد فيها مطرحا والمص من بصيبح. وقد قال بعض العلماء: من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرع ثم حصده في غير أوانه. وقال أبو العتاهية:

وشر الأخلاة من لم يزل يعانث طورا وطورا يدن يربك النصيحة عند اللقاء ويربك في السري الاسم، وأما الكبار فنوعان أن يملي بها خاطيا ويلز بها ساهميا فخالب فيها مرفوع والعنث عليها موضوع لأن هفوة الخاطئ حدر ولومه هذئ. وقال بعض الحكاء: لانتقطع أخاك إلا بعد تجربة الحيلة عن استصالاحه. وقال الأحنف بن قيس: حق الصديق أن يجعل له ثلاثة: ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة. وحكي ابن عون أن غلاما هاشما عرب على قوم أراد عمه أن يسأله فقال ياعم: إن قد أسات وليس معى عقل فلا تنسى بي ومعك عقلك. وقال أبو نواس:
لم أؤخذك إذ جئت لآني وافق منك بالأخاء الصحيح
بفهيل العين وغريب جميل وقبح الصداق غير قبح
فان تشبه خطوه بالعدم وسهو بالقصد تبتت ولم يلم بالتوهم فتكون
ملوما ولا يلوم بالظن فيصر مدموما ولذلك قال: التبت نصف العفو.
وقال بعض الحكاء: لا يفسدك الظن على صديق أصدق اليقين له وقال
بعض شعراء هذيل:
فان الغث يحمل السايين
ولا تعجل بظنك قبل خبر
فوقا أضواء الفضل المبين
تكون الماء مشتبة ليست
تُخَبَّر عن مذاقاته العيون
والثاني إن يعتقد ما اجترب من كبرته وقصص ما اجترح من سبائه:
ولا يخلو فيا أتاه من أربع أحوال: فالحال الأولى أن يكون موبرا
قد قابله على زورته وكفاً على مسأله فتلاشيته على من وتره عائدة وإلى
البادية بها راججة لأن المكافأة أخير وإن كان الصنف أعلى ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا إيمان والمشاة فإنهم لمت الطروة وتحي
الطروة» . وقال بعض الحكاء: من فعل ما شاء لى مالم يناب. وقال بعض
الأدباء: من نباته إساءتك همه مساءلتك وقال بعض البلقاء: من أولع
بقيق المعاملة أوجع بقيق المقابلة. وقال صالح بن عبد القدوس:
إذا وترت أمراً فاحذر عداوته من زرع الشوك لا يحصد به عنها
إذا العمد و إن أبدى مسالة إن أراي منك يوما فرضـة وشا
والإغضاء عن هذا أوجب وإن لم تكن المكافأة ذنبا لأنه قد رأى
عقي اسائه فإن وصل الشر واصله المكافأة . وقدقيل: باعتزال الشعر
يعتركل وبحسن النصفة يكون المواصلون . وقال بعض الحكاء: من كنت
لأبي الحسن البصري

سُبِّبآ لِبِسْلَانَه وَجَب عَلِيّك اللَمْطِفُ لِهِ فِي عَلَاجِهِ مِن دَائِهِ وَقَد قَالَ أُوْسُ بْن جَحَرَ :

اَذَا كَانَتْ لِمَ يُعَرُّض عَن الْجِهَلِ واللَّخْنَا أَصْبَحَت حَلِيّاً أَو أُصْابَات جَاهِلٌ

وَاللَّخَنِّانَةُ ثَانِيَةً أَن يَكُون عَدْوَةً قَدَ استَحْكَمَتْ شَجَائِهُوَ وَاسْتَوَعَتْ

سَرَأَهُو وَاسْتَخْتَنَت ضَرَاوَات فَهُوَ يَتَرَبِّص بْدُوْارِ السَّوْء اِتَّمَازْتْ فَرْصَهُ وَيَتْجُرِّب بِمِهَانَةِ العَجَّاز مَرَارَةٌ عُصْبَيةٍ فَأَذَا ظَفَر بنَابِيَةٌ سَااعْدُهَا وَإِذَا شَاهِد نَعْمَة عَانِدَا فَالْبَعْد مِنْهُ حَذَا أَسْلَمَ وَالْكَفُّ عَنْهُ مِتَارَكْمُ أَغْمَنَهُ فَآنَا لَا يَسْلَمُ مِن عَوَاقِب شَرِّهِ وَلَا يَفْلِتْ مِنْ غَوَّاَقِل مَكَرِهِ وَقَد قَالَتُ

اللَّحَاكَةُ لَا تُفْرَضُ لَكُنْ لِدَوَلَكَ فِي دُوَلَهَا فَأَذَا زَالَتْ كَفَيْتُ شَرِهِ وَقَالَ لَهَا:

ياَيُّضْ كَذَّبَ مِنْ قَالَ إِنَّ الشَّرِّ بِاللَّهِ يَطْطُعُ فَأَنَّا صَادِقُأ فَلَيْقُدْ

نَارٍ وَلَيْنَظَرْ هُلَّ تَطْفَئُ إِيّادَهَا الأُخْرَى وَإِذَا يَطْفَئُ الخَيْمُ السَّرَّ

قَالَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ كَفَكَّاَ لَمِنْ اللَّهِ نَصْرَا أَنْ تُرِى

عَدَوَّكَ يُبْصِعَ اللَّهُ فِي كَ. وَقَالَ بَعضُ اللَّحَاكَةَ بِالسِّيَّرَةِ العَادِلَةُ يُهْرُ الْمُعَاذِي

وَقَالَ الْبَحْتَرُيَّ:

وَأَهْمَمْ لَا أَجْزَأَك بِالشَّرِّ مِثْلِهُ كَفَيْنَ بِالذِّي جَازِيَتِنِ لَكَ جَازِيًا

وَاللَّخَنِّانَةُ ثَانِيَةً أَن يَكُون لَيْثِّم الطَّيِّبِ خَيْبَةٌ الأَصْلُ قَد أَعْرَاهُ أَعْصِم

الطَّيِّب عَلَى سُوء الاعْتِقَاد وَبَعْثَهُ خَيْبَةٌ الأَصْلُ عَلَى لاَيْطِنَانَ الْبَسَادْ فِي هَذِهِ الْحَالَة أَطْمَتْ لَأَنَّ الْاَضْرَارِ

بَهَا أَعْمَلْ لَأَدْسُلْ مِن مَّثَّلِهَا أَلَا بِالْبَعْدِ وَالْانْقِبَاصِ وَلَا خَلاَصٌ مِنْهُ

الَا بِالصَّنْفِ وَالاِعْرَابِ فَاَنَّهُ كَالْسَيْعِ الاَضْرَارِ فِي سَوَارِحِ الْفَنِّ وَكَالْمَأَمَّر

المُتَأْجِرَةِ فِي يَابِسِ الحَطِب لَا يَقْرَبُ بَهَا أَلَا تَقْفْ وَلَا يَدُوْنُ مِنْهَا الْهَالَكُ

رُوَي مَكْحُولَ عَنِّي أَمَامَةِ رَضِي الله عَنْهُ عَنَّي كَنَى وَيَوَّعَكَ أَنْ يَعْوَدْ كَشَجَرِهِ ذَات

شُكْرٍ إِنْ نَأْقْدِهِمْ نَافَدُولُكُ وَإِنْ هَرِيتْ مِنْهُم طَلَبَكُ وَإِنْ تَرَكُّهُم
لم يتلكوك قيل يارسول الله وكيف المخرج قالم: أقسمهم من عرضك اليوم فاتتك. وقال عبد الله بن العباس: العاقل الكريم صديق كل أحد إلا من ضره، والجاهل اللئيم عدو كل أحد إلا من تنهه وقال: شرف الله ماي الفقيم أن يمنحك خبره وخبير ماي اللئيم أن يكشف عنك شره. وقال بعض البلاغاء: أدعاك داود وفي البعد عنهم شفاؤك. وقال بعض البلاغاء: شرف الكريم تعافله عن اللئيم. ووصى بعض الحكاء ابنه قالم: يا أنفما إذا سلم الناس هناك فلا عليك أن لا تسلم منهم فإنه قاها اجتمعت هانان الرمعان. وقال عبد المسيح بن نقيمة:

اللبر والبشر متوروان في قرن فاحترم متعه والشر محذور
والنال الرابعة أن يكون صديقا قد استجذت نبوة ونفيها أو أخا قد استنذج. جندو وتكا فأنبى صفحة عقوته وأطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الآخاء إلى جنوة الأعداء فهذا قد يعرض في المؤدات المستقيمة كما تعرض الأمراض في الأجسام السليمة. فان عولمت وإن أحلمت أسمرت ثم أتلفت ولذاك قالت الحكاء: دواء المؤدة كثرة التعاون. وقال كشخاهم:

أقل ذا الوعد عثره وقفنه على سلم الطريق المستقيمه ولا تمرع بمعتبة اليمه فقد يفهو وتنبه سليمه ومن الناس من يرى أن متاركة الأخوان إذا تفروا أصلح وأطرافهم إذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد إذا فسدت كان قطعها أسمل فإن شج بها سرت الي نفسه وكأنهtoArray إذا خلق كان اطرافه باللابه لاجمل وقد قال بعض الحكاء: رغبت فيك فين يهد فيك ذل نفس وزهدك فين برغب فيه صغر همه. وقد قال زرجمهر: من تغير عليك في مودته يدعه حيث كان قبل معرفته. وقال نصر بن أحمد:

صل من دنا ونتاس من بعد لا نكره على الهوي أحدا
قد أكثر حوآل آذن ولدت فانا جفأ ولد نفذ ولدا
فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف إخاءه وساءت طراته وضاقت
خلائه ولم يكن فيه فضل الاحتفال ولا صبر على الادلاء فقابل على
الجحوة وعاقب على الحفوة وأطرف سالف الحقوق وقابل العقوب بالعقوبات
فلا بالفضل أخذ ولا إلى العفو أحل ولقد علم أن نفسه قد تنفت عليه
فترديه وان جسمه قد يسمع عليه فيه و يؤذيه و هنا أخص به وأحني
عليه من صديق قد تميز بهذته و انفصِّل بأدواته فيريد من غيره لنفسه
ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحلس ومحض الجهل مع أن من
لم يحتَّل بق وردة وأقلب الصديق فصار عدو وعذو من كان صديقاً
أعظم من عداوة من لم يزل عدو ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"اوصائي ربى بسمع الاخلاص في السر والعلانية وأف أعفو عن
ظلمي وأعطي من حرمني وأصل من قطعني وأن يكون صمتى فكرا ونطق
ذكرا ونظرى عبارة". وقال لقان لابنه: يا بني لا ترك صديقك الأول
فلا يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ ألف صديق والألف قليل ولاستخذ
عدو واحدا والواحد كثيرو. وقيل للهلوب بن أبي صفرة ما تقول في العفو
والمكونة قال: هما بفترة الجود والبخل فنمسك بيهما شئت وآسستعلب
افذ أنت لم تستقبل الأمر لمجد بكفيسك في إدارته متعلقاً
افذا أنت لم تترك أخاك وزلة اذا زلها أوشكتها أت نفساً
فذا كان الأمر على ما وصفته من حقوق الصفح الكشوف عن
سبب الحفوة ليعرف الداء فيها قال فان من لم يعرف الداء لم يقف
على الدواء. كما قال المتنبي:
فان الجرح ينغر بعد حين اذا كان البناء على فساد
وافذا كان ذلك كذلك فلا يغلو حال السبب من أن يكون للملل
أو زلل فان كان للملل فويدات الملول ظل النائم وحلم النائم. وقد قبل
في مثير الحكم: لا تأمنن للملول وإن تحلى بالصلاة وعلاجه أن يترك على ملله فيمل الخفاء كما قال الأخاه. وإن كان لزلف لوحظت أسبابه فإن كان لما مدخل في التأويل وشبة تؤول إلى جبل حمله على أجمل تأويل وصرفه إلى أحسن جهة كالذي حكي عن خالد بن صفوان أنه مر به صديقان له ملجه عليه أحدهما وطواه الآخر قبله له. فقيل:
نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانه دلك بثغته. وأنشد بعض أهل الأدب محمد بن داود الاصفهاني:
وتزعم الواشيق أن فاسد عليك وأن ليست فيا عهدتي وما فسدت لي علم الله ناقة عليك ولكن خاتمتي فاتهمتى وغدت بعهدى عامدا وأخفتني نفختى ولو آمنستي لآمنستى وإن لم يكن لزلف في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلفه فأن ظهر ندمه وبن نحجة فالنبد توابة والجبل إتباع ولا ذنب لتبث ولا لوم على منيب ولا يكفر أى أما سلف فليجالى إلى ذل التحريف أو خرج التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم بالمعاذر فان أكثرها مافاجر" وقال على رضى الله عنه: كنتيما يعتذر منه تهمه. وقال مسلم بن قضيب لرجل اعتذر إليه: لايدعونك أمر قد تخلصت منه إلى الدخول في أمر علك لاختص منه. وقال بعض الحكايه: شقيع المذنب إقراره وتوته اعتذاره. وقال بعض البلاغه: من لم يقبل التوبة عظمت خطيته. ومن لميحسح إلى النائب قبِحَتٌ إساته. وقال بعض الحكايه: الكريم من أوسع المغفرة إذا ضاقت بالذنب المتعذرة. وقال بعض الشعراء:
العذر يلتحمه التحريف والكتب وليس في غير ما يرضيك لي أرب وقَد أسأت فبالنعمي التي سلمت إلا منعت بعضو ماله سبب وإن عجل العذر قبل توبته وقتم التنصل قبل إثباته فالعذر توبة والتنصل إثبات فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعرف بظاهرة عذره.
فيكون لقيم الظفر سيء المكافأة. وقد قيل: من غلبه الحدة فلا تغطر بمودته. وقال بعض الحكاء: شاعر لمذنب خضوعه إلى عذره. وقال بعض الشعراء:

إقبال معاذير من يتشيك معتذرا إن يعنى في قال أو يبرا فقد أطعاء من يرضيك ظاهره. وقد أجعلك من يعصيك مسترا وإن ترك نفسه في زله ولم يتداركه بعده وتنصله ولا محاه بتوته وإثباته راعيت حاله في المماركة فسجده لابنفلك فيها من أمور ثلاثة أدهما أبي يكب قد كف عن سي عمله وأقلع عن سالفة زله فالكافف إحدى التويتين بالإقلاع أحد العذرين فكن أنت المعنذر عنه بصفحه والمنتصب له بفضلك. فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المحسن على المسى أمير. والثاني أن يكون قد وقف على متأسف من زله غير تاري ولا متجاوز ووقوع المرض أحد البرعين وكنه عنه الزيادة إحدى الحسنین وقد استبقي بالوقوف عن التجاوز أحد شطرته فعزم به على صلاح شطره الآخر وإياك ويرجاً فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلاف يصحل شطر فсадه فان من ستم من جسمه مالم يعالج به سري السقم إلى صحته فأنا عجله سرت الصحة إلى سقمه. والثالث أن يتجاوز مع الأوقات فيزيد فيه على مرور الأيام فهذا هو الداء العفاض فان امكن استدراكه وتأتي استئصاله وذلك باستنزاله عنه إن علا وباركبه إن دنا وبعده انه سماوى والا فأن الداء العفاض الكي ومن بلغت به الأعدار إلى غايتها فلا لائمة عليه واللازم أن شقائه باغ مصروع. وقد قيل: من سل سيف البغي أمده في رأسه فهذا شرط. وأما المساحة في الحقوق فان الاستيفاء موحن والاستقصاء منفر ومن أراد كل حقة من النفوس المستقسمة بشح أو طعم لم يصل إليه إلا المتائفة والمشاجة ولم يقدر عليه إلا بالخاشنة والمشاجة لما استقر (١١)
في الطبع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقبرب من يسرها وساحها فكان أليق لأمور المروة استطاف النفوس بالمساورة والمساومة وتألقها بالمقارية والمساومة. قال بعض الحكاء: من عاسر اختوانه بالمساومة دامت له موذاتهم. وقال بعض الأدباء: إذا أخذت عقو الثلوب زكا ربعك وان استقضت أكذيت. والمساومة نوعان في عقود وحقوق فأما العقود فهو أن يكون فيها سهل المناورة قليل المحاجة. مأمن الغيبة بعيدا من المكر والخديعة. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أجلوا في طلب الدنيا فان لا ميسر لما كتب له منها". وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا أدخلك على شيء يحب الله تعالى ورسوله قالوا على يارسول الله قال التفاوت للضعيف". وحكى ابن عون أن عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصري إزارا بستة دراهم ونصف فأعطي الناجر سبعة دراهم فقال منه سبعة دراهم ونصف فقال إلى اشترته لرجل لا يقاسم أخاه درهما. ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود غير أحسن الاستقصاء فيها حري حتى أنه لينفس في الحقيقة فإن جاد بالليل الكثير كالذي حكي عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجدود مما يجدود به فقيل له في ذلك فقال: ذلك مادى أجود به وهذا عقل يجلط به. وهذا إما يسوغ من أهل المروة في دفع مايخادعهم به الأدبياء. ويقابله به الأشاعر. وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر. فأما ماكسه الاستزال والاستسراج فكله لأنه مناف للحرم ومباين للروعة. وأما الحقوق فتنوع المساومة فيها نوعين: أحدهما في الأحوال والثاني في الأموال. فأما المساومة في الأحوال فهي اطلاع المنازعه في الرتب وترك المنازعه في التقدم. فإن مشاحة النفس فيها أعظم والمناد عليها أكثر فأنا ساح فيها ولم ينافس كان مع أخذة بأفضل الأخلاق واستعماله لأحسن الآداب أوقع في النفس.
من أفضله برغائب الأموال ثم هو أزيد في رتبته وأبلغ في تقدمه وإن
تّاح فيها وناعز كان مع ارتيابه لأحسن الأخلاق واستعماله لأشهٍ
الآداب أنكي في النفس من حق السيف وطعن السنان ثم هو أخفض
للمبرة وامتن من التقدم. حكي أن قتى من بين هاشم تختط رقات
الناس عند أبي داود فقال: بابن أتى أن الآداب ميراث الأشراف
ولست أرى عندم من سلكك إرثا. وأما المساحة في الأموال فتنمو
ثلاثة أنواع: مساحة إِسْقَاط لَصَدَم ومساحة تخفيف لعجز ومساحة
إِنِّكَار لِعَصْرِهِ. وهي مع اختلاف أسبابها تفصل مأثور وتألف مشكور.
وإذا كان الكريم قد يجد بما تحوّله بده وينفذ فيه تصرُّفه كان أوله أن
يجد مما يخرج عن يده فطاَب ناسا بفرائه. وقد تصل المساحة
في الحقوق إلى من لا يقبل البر وأي الصلاة فيكون أحسن موضعًا
وأزكي مخللا وربما كانت المساحة فيها آمن من رنين السائل ومنع
المجتدى لأن السائل كما اجترأ على سؤال فسجترى على سؤال غيكل
ان رددته وليس كل من صار أسبيب حقق ورهين دينك يجد بدًا من
مساحة مهيارتك ثم لك مع ذلك حسن البناء وجزيل الأجر. وقال
محِّبَّود الوراق رَحَّمْهُ اللَّهُ:

المور بعد الموت أحدثه يبنى وتبقى مسه آثاره
فاحسن الحالات حال أمرئ تطيب بعد الموت أخيراته
فهذه حالة المياسرة. وأما الأفضل فنقول: إفضل صناع وإفضل
استكافف ودفاع فاما إفضل الاصطلاح فنقول: أحدهما ما أسداه
جودا في شكوك وثاني ما تألف به نبوءت نفور وكلاهما من شروط المرونة
لما فيها من ظهور الاصطلاح وتكاف الإشباع والانقباع ومن قلت صناؤه
في الشاكرين وأعرض عن تألف التافرين كانت فردا مهيجه ولا تابعا
محورا ولا مروية لمتروك مطروح ولا قد لمتعور مهتمه. وقال عمر بن
عبد العزيز ما طاعوني الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طرف من الدنيا. وقال بعض الحكاء: أقدر ما يجب للنعم بحق نعمته لأن لا يتوصل بها إلى معصيته. وأنشدتهم بعض الأعراب:

من جمع المال ولم يجدده وترك المال لعام جذبه.
هان على الناس هوان كلبه.
وقال اصحح بن إبراهيم الموتلي:
بيث النساء وتدهب الأموال ولكل دهر دولة ورجال
ما تال محجة الرجال وشكورهم إلا الجواد بماله الفضل
لا يرقد من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال.
فان ضاقت به الحال عن الاصطناج بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفبد من شروط المروة سئادها فليواس بنفسه مواساة المساعف
وليسعد بها إسعاد المتاليف. قال المتني:
فليسعد النطق إن لم تسعد الحال.
وكان لا يراها وإن أجدها إلا تابعا للفضلين قليلة بين المكثرين.
فان الناس لا ينناون بين المعطي والمأقر ولا يقتعهم القول دون الفعل.
ولا يغنيهم الكلام عن المال وبرونه كالمدقين. إن رد صوتا لم يجد نفعا.
"" كما قال الشاعر:
يجود بالوعد ولكنه يدن من قارورة فارغه.
فلك من خرج عنهما عن المال كان فارقا وكل ما عدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما أقنع. وأما إفضال الاستكافم فلن ذا الفضل لا يعتمد حاسد نعمته ومعاند فضيلة يتعتر به الجهل باظهره عيانه ويعتله اللوم على البذاء بسببه فان غفل عن استكافف السفاهه وأعرض عن استفاع أهل البذاء صارعرضهフトا للتالب وحاله
عرضة لنتوابع وإذا استكف السفاهه واستفاع البذاء صان عرضه وحى
لأبي الحسن البصري

نعمته. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما وقفت به المرجعة في الصبر، وقلت: إننا نستشرف، إنها قصص».

وامتحد رجل الزهراء فأعطاه قسيمه فقال له رجل: أعطى على كلام السطحان فقال: من انتفخ الخير اتق الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أراد بر الوالدين فليغط الشعراء».

هذا صحيح لأن الشعر سائر يستر به ضحايا مادح أو هجاء ومن أجل ذلك قيل: لا تواخ شاعرًا فإنه يدحك بثم ويهجوك مجازا. ولا استكاف السفهاء بالافضال شرطان:

أحدهما أن تخفيه حتى لانشهب فيه مجامع السفهاء فيتوصلوا إلى اجتنا به بسمه وله ماله أو به، والثاني أن يتطلب له في المغالبة ويجعله في الافضال عليه سبباً فتلا يرى أنه على السفه واستدعائه البذاء، وعلم انك ماهبيت ملاحوه المحاسن محيوته المساوي ثم من بعد ذلك حديث مستشرق لا يراكين صديق ولا يعتق منك شقيق فكان أحسن حديث ينشر يكن سمع بك في الناس مشكورا وأجرك عنه. وله مذكور.

فقد روى زيد بن الجراح عن عمرو بن ميرون أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتبعه، حسبك الحسن: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سمنك وغناك قبل قトルك وفراغتك قبل شغلك وحيانك قبل وعوك».

هذا ما أقضاه هذا الفصل من شروط المروءة وإن كان كل كابنا هذان من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الفصل الثامن في آداب متحررة) أعلم أن الآداب مع اختلاقيا.

بتنقل الأحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصراها ولهذا يذكر كل إنسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره، وله يمكن ذلك لكان الأولى قد أغنيت الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتاخر تكلفها، وإنما حظ الأخبر أن تعاني حفظ الشارع وجمع المفقط ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وفته فيثبت ما كان...
مواقفة وينفي ما كان متزامناً ثم يستمع خاطره في استنباط زيادة واستخرج فائدة فان أسعف بشيء فاز بدرك وحظي بفضيلته ثم يعود عن ذلك كله بما كان مألوفاً من كلام الوقت وعرف أهل فان لأهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون أوقع في النفس وأسبق إلى الأفهام ثم يرتبط ذلك على أوائله ومقدماته ويثبت على أصوله وقواعده حسب ما يتضطيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طرية هي أوضح مسلكاً وأسهل مأخذاً لهذه حسارة شروط هي حظ الأنبياء في عينيه وكذلك الفقول في كل تصنيف مستحدث وآلا ذلك لكان تعاوننا مكاناً مقتدم به الأؤل عناء ضائع وينكنا مستهجننا ورجموه الله أن يمدنا بالسوفين لتأدية هذه الشروط وتهنضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلمن من ذم التكلف ونبراً من عيوب التقصير وان كان البصير مغفوراً والخطيء معدوراً فقد قيل من صنف كابان فقد استهدف فان أحسر فقد صلأف وإن اساء فقد استذقه وقد مضبت أبواب تضمنت فصولاً رآيت اتباعها بحالاً أحب الاحلال به. ففي ذلك حال الإنسان في ما كله ومضربه فإن الداعي إلى ذلك شيطان حاجة ماسة وشهوة باعثة. فأما الحاجة فتدخو إلى ماستة الجوع وسكرظماً وهذا متدوب إليه عقولاً وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوسائل بين صوم اليوم لأنه يضعف الجسم ويميت النفس ويمجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس من منع نفسه قدر الحاجة حظ من برولا نصيب من زهد لأن ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم أجرًا إذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات وإن كان العبد ومن أخر نفسه ربحاً مويراً أو حرمها أجرًا مذخوراً كان زهدته في الحير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذَا التكلف إلا الشهوة بريائه.
لأبي الحسن البصري

وسمعته. وأما الشهوة فتنوع نوعين: شهوة في الإكتار والزيادة
وشهوة في تناول الألوان اللذيذة فأما النوع الأول وهو شهوة الزيادة
على قدر الحاجة والإكتار على مقدار الكفاية فهو متنوع منه في العقل
والشرع لأن لتناول ما زاد على الكفاية نعم وشره مضر. وقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إياكم وليلة فأنها مفسدة للدين
مورثة للس Gems مكنسة عن العبادة" وقال على رضى الله عنه أن كنت بطني
فعتّاس زمننا. وقال بعض البلاغاء أقلل طعاما cioèدمنا. وقال بعض
الأدباء الرجوب لوم ونحيم شؤم. وقال بعض الحكاء أكبر الدواء تقدية
الغذاء. وقال بعض الشعراء:

فكم من لقيمة منعت أخاها بلدة ساعة أكلات دهر
فكم من طالب يسعى لأمر فيه هلاكه لأوان يدرى
وقال آخر

كم دخلت أكلة حشا شرد فأخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام إذا كان هلال النفوس في المعد
ورب أكلة هاضت الآكل وحرمته ما كل. روى أبو يزيد المتنى

عن عبد الرحمن بن المروج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إن الله لم يخلق وعاء معلق شرا من بذن فإن كان لابد فاعلا فجعلوا ثنا
للطعام وثلا للشراب وثلا للريح. وأما النوع الثاني وهو شهوة الأشياء
اللذيذة ومنازعه النفس المشابه لذات اللون والنوع الذي يسعى في تمكين
نفس منها وحشيا منهم من يرى أن صرف النفس عنها أولى وقهرها

(1) لعنة الحديث المشهور ماما. أدى وفاء قطع من بطنه يحسب أن آدم أكلات
يقص صلبه فكان لا محالة فقتل لطعاما وقتل شرابه فين فقتل رواه أحمد وابن ماجه
والبرزي. عرب ذلك، المنذر بن معد يقرب قال الحاكيم صحيح وانظر المناوئ على العلماء
كتب مصححه.
عن اتباع شهواتها أحرى ليذل له قيادتها ويوهان عليه عناها لأن تمكنها وما تهوى بطر يطفي وأشر يرى لأن شهواتها غير متناهية فذا أعطاه المراد من شهوات وقتها تعددت إلى شهوات قد استحدثها فيصير الإنسان أسرير شهوات لانقضي عبد هو لابنته ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضله. وأنشدته لأبي الفتح البستي:

"يأخذ الجسم كم تشق خدمته لتطلب الريح مما فيه خسران. أقبل على النفس واستحق فضائلها. فانت بالنفس لا بالجسم إنسان."

ولنذري من هذه الحال ما محكي أن إبا حزم رحمه الله كان يمز عفاكم فيفاكهة فيشتهيه فيقول موعدك الجنة. وقال آخر تمكن النفس من ذاتها أولى وإعطاؤها ماشاشه من المباحات أحرى لما فيه من ارتياح النفس. بديل شهواتها ونشاطها أدرناك لذاتها فتنحرها عنها دلهة المفهوم والبادية. المجهور ولنراق عن درك ولما تعصي في نهضة ولا تكل عن استعانا. وقال آخرون أن توسط الأمر أولى لأن في اعطائها كل شهواتها ونفسي البلدة عاجزة. وفي منعها عن البعض كن أيام السلاطنة وفي تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة. وهذا لعمري أشبه المذاهب بالسلام لأن التوسط في الأمور أحد. وأن ضد مضم الكلام في المكول والمشروب فينفي الغ معذب الملبوس.

أعلم أن الحاجة وإن كانت في الملبوس والمشروب أدعى فييه إلى الملبوس ماماً بها إليه فاقة لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الأذى وستر العورة وحصول الزينة. قال الله تعالى: "بانيا آدم قد أذناك عليكم لباساً يواري سوآكم وريشاً ولباس النقوش ذلك خير." فعنى قوله أذناك عليكم لباساً أي خلقنا لكم مأتلاسون من اللباس يوارى سوآكم أي يستر عوركم وسميت العورة سوآة لأنه يسمى صاحبها اكتشافها من جسده وقوله وريشاً فيه أربعة أذواق: أحدها أنه
العالمة وهو يقول ماجد. والثاني أنه اللباس والعيش والنهوض وهو قول
ابن عباس رضي الله عنهما. والثالث أنه المعاش وهو قول مصعب
الجهني. والرابع أنه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد. وقوله ولياس
التنوى فيه مسأة تأويلات. أحدها أن لباس التقوى هو الإيمان
وهو قول قنادة والسيد. والثاني أنه العمل الصالح وهو قول ابن عباس
رضي الله عنهما. والثالث أنه السماحة الحسن وهو قول عثمان بن عفان
رضي الله عنه. والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير.
والخامس أنه الحياء وهذا قول مصعب الجهني. والسادس هو سطر العورة
وهذا قول عبد الرحمن بن زيد. وقوله ذلك خير فيه تأويلان. أحدهما
أن ذلك راجع إلى جميع ماقدم من قوله قد انزلنا عليكم لباساً يوارى
سوأتكم ورينتم ولياس التقوى ثم قال ذلك خير أي ذلك الذي ذكرته
خير كله. والثاني أن ذلك راجع إلى لباس التقوى ومعنى الكلام أن
لباس التقوى خير من الرياش ولباس وهذا قول قنادة والسيد فلما
وصف الله تعالى حال اللباس وأخرجه مخرج الامتنان علم أنه معونة
مهن لشاذ الحاجة إليه. وإذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة أشياء: أحدها
دفاع الأذى. والثاني ستر العورة. والثالث الجمال والزينبة. فأما دفع
الأذى به فواجب بالعقل لأن العقل يوجب دفع المضار واجتلاب
المنافع وقد قال الله تعالى «والهمجع لكم مما خلق طلولا وجعل لكم
من الجبال أكانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحز وسرابيل تقيكم بأسمك»
فأخبر بهما ولم يأم بهما. اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما
يبعث عنه الطبع ويعني بالطلال الشجر والأكاس جمعين وهو الموضع
الذي يستطيع فيه ويعني بقوله سرابيل تقيكم الحزوات البطن والكتان
والصوف وبقوله سرابيل تقيكم بأسمك المدروع التي تقي الباس وهو
الحرب. فان قيل كيف قال تقيكم الحز ولم يذكر البرد وقال جعل لكم
من الجبال أكانا ولم يذكر السهل فهن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكروا الجبال وكانوا أصحاب حزدون برد فذكرتهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء. والجواب الثاني أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر إذ كان معلوما أن السراويل التي تقي الحرم أيضا تقي البرد ومن اتخذ من الجبال أكانا اتخاذ من السهل وهذا قول الجمهور. وآما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل منع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة التي بها عنها بدت لبسوئهما وطفقا يخصصان عليها من ورق الجنة تبنا بعقلهما لسستر ماراً نابقًا مسبقاً من سوأتها لأنهما لم يكونا قد كفلا ستر مالم بيدهما ولا كفاه بعد أن بدت لها وقبل سترها. وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقي وإذا اختصت العورة بحكم شريعة فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا. وقد كانت قريش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفر العقل وصحة الألباب يطوفون بالبيت عراة ويحجزون على نفوسهم اللحم والودك ويروف ذلك أبلغ في القربة وانما القرب ما استحصنت في العقل حتى أنزل الله تعالى "يا إبن آدم خذوا زينتمكم عند كل مسجد وكنا واشرحوا ولا تسرحوا إنه لا يحب المسروقات" يعني بتقوله خذوا زينتم الكباب التي تسفر عورانكم وكنا واشرحوا محرمتكم على أنفسكم من اللحم والودك. وفي قوله تعالى ولا تسرحوا واتبلائين: أحدهما لا يسرحوا في التحريم وهذا قول السدي. والثاني لاتلائوا حراما فإنه إسراف وهذا قول ابن زيد فأوجب بهذه الآية سستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على أن سترها وجب بالشرع دون
العقل. وأما الجمال والرزيئة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير
أن يوجه عقل أو شرع وفي هذا النوع قد يقع التجاوز والتقسيم
والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين: أحدهما في صفة الملبس
وكيفيته والثاني في جنسه وقيمته. فأما صفته فعتبرة بالعرف من
وجهين أحدهما عرف البلاد فإن لأهل المشرق زيا مألوفا ولاهل
المغرب زيا مألوفا وكذلك لما ينتمي من البلاد المختلفة عادات في اللباس
مختلفة والثاني عرف الأجانب فإن للأجانب زيا مألوفا وللمغازرين
مألوفا وكذلك لم سواهما من الأجانب المختلفة عادات في اللباس
وأما اختلاف عادات الناس في اللباس من هذين الوجهين ليكون
اختلافهم سمة يميزون بها وعلامة لايفهمون معها فإن عدل أحد عن
عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا ولذلك قبل العرى القادح
من الزئ الفاضل. وأما جنس الملبس وقيمه فعتبر من وجهين
أحدهما بالمثابة من اليسار والاعسار فان للمؤسسات التي قدرا ولمعار
دونه والثاني بالمكتبة والخان فان لذي المنزلة الرفيعة في الزئ قدرا
والمخصص عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تناقص أحوالهم فيصيروا
به متزمنين فإن عدل المؤسس إلى زئ المعمود كان شحا ومجاسا وإن عدل
الرعي إلى زئ الديوى كان مهارة وذلا وان عدل المعمود إلى زئ الموسور
كان تبيأ وسرفا وان عدل الديوى إلى زئ الرعي كان جهلا وحقا
ولزو عرف المفهود واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمن من
الدم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه إياكم لمبستين لبداية
مشهورة وليست محقرة. وقال بعض الحكاء البس مذهب الأثقال
لا يدري فيه العظاء ولا يعيبه عليكم الحكاء. وقال بعض الشعراء:
إن العيون رمزك إذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباس
أما الطعام فكل لنفسك ماتشا. وأجعل لباسك ماشتهاه الناس
واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراوعة لباسه من غير إكتار ولا اطراب فإن اطراب مراعاتها تترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة إلى العناية لها دنانة وقصور وربما تؤهم بعض من خلا من فضل ومرى عن تميز أن ذلك هو المروءة الكاملة والسيناء الفائقة مما يرى من تميزه بذلك عن الآخرين وعروفه عن حملة العوام المستحسنين وحني عليه أنه إذا ت تعدى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكره وأبعث على ذمه فكان قال المتني: لا يعجبني مضيا حسن يزته وهيل ورق دفينا جودة الكفن وحكى المبرد أن رجلا من قريش كان إذا اتبع ليس أثر ثيابه وإذا ضاق ليس أحسنها قيل له في ذلك فقال إذا أتست تحينت بالجود وإذا ضقت فيها بفضلة. وقد أثى ابن الرومي بلبلغ من هذا المعني في شعره فقال:

وأما الخال الأزينة لقيصية - يتم من حسن إذا الحال قصرًا فأما إذا كان الحال موفورة تكسنت لم يحت إلى أن يزروا ولذلك قالت الحكمة: ليست العزة في حسن البزة. وقال بعض الشعراء:

وترى سفينة القوم يبذلو عرضه سيفها ويشاهد شعرا وكما إذا أثبت كلبه مراوعة لباسه قطعه ذلك عن مراوعة نفسه وصار الملبوس عنه أنفس وهو على مراوعاته أحرق. وقد قيل في مثور الحكمة: اليس من الشيب ما يخدمك ولا يستخدمك. وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية: أراك لاتبالي مالست فقال: أليس ثوب أقي به نفس أحب إلي من ثوب أقي بنفس. فكما أنه لا يكون شديد الكفف بها فذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن عائشة أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إليه وقال: ما مالك؟ قال: من كل المال قد أتاني الله فقال: إن الله تعالى يحب إذا أنعم على أمرئ
لاهى الحسن البصري

نعمه أن ينظر إلى أثرها عليه. وقد قيل: المروة الظاهره في الثياب
الطاهره. وهكذا القول في علمانه وحشمه أن اشت كن بهم صارعيهم
فيا ولهم خادماً وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سببا
لمقتها وطرقاً إلى ذمه لكن يكفهم عن سبي الأخلاق وياخذهم بأحسن
الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر:

سهل الفنا إذا هررت ببابه طلق اليدين مؤذب اللحذام
ولكن في تقف أحوالهم على مايحفظ نجله ويصون ميتذله. فقد
روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اذنوا يذهب البس
عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى مايلككم فانه أكبت
المعود» ولイトوسط فيهم ما بين حالة اللين والخشونة فإنه ان لان هان
عليهم وان خشن مقتود وكان على خطر منهم. حكي أن الموبد سمع
ضحك الخدام في مجلس أنوشروان فقال: أما تمعن هؤلاء الأغلام فقال
أنوشروان: اننا بهم يثبتنا أعداونا. وقال أبو تمام الطائي:

جسر الصديق عيونه محبةً لصديقه عن صدقه وتفاقه
فلينظر المرء من غمانه فهم خلائيه على أخلاقه
واعلم أن لنفس جالتين حالة استراحة ان حمتهما أياها كت وحالة
ترصف أن أريتها فيها تعلمت فالأولى بالانسان تقديرحاله حال نومه ودعته
والثانية تصرفها وينظرت فان لها قدراً محدودا وزماناً محدوداً يضر بالنفس
جاوزة أهدهما وتغير زمانهما. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال: «نومة الصبيحة معجزة منفخة مكشلة مورمة مفنشلة منسية
للحاجة». وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: النوم ثلاثية نوم خرق
وهي الصبيحة ونوم خلق وهي القائلة ونوم حق وهو العشى. وقد روى
محمد بن يزيد من ميرو بن مهراز عن ابن عباس قال: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: «نوم الضحى خرق والقيولة خلق ونوم العشى
حقق». وفي قيل في مئذن الحكم من زم الرقاد عدم المراد. فإذا أعطى النفس حقها من النوم والدعا واستوتو حقه بالنصر واليقظة خلص بالاستراحة من غزها وكلاها وسلم بالرياضة من بلادها وفسادها. وحكي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجدته نائمة فقال يأتينى أنتانم والناس بالباب فقال ياجيئ نفسى مطمئن وأكره أن أتعب فلا تقوم بي. وينبغي أن يقسم حالة تصرفه ويفطنه على الفهم من حاجته فان حاجة الأنسان لازمة والرمان يقصر عن استيعاب الفهم فكيف به إن تجاوز إلي ماليس يهم هل يكون إلا كاركة بيضها بالف، وملسبة بيض أخرى جنحاً.

ثم عليه أن يتصرف في ويله ما مصدر من أفعال ناهره فان الليل أخطر للخطر وأجمع للفكر فان كان محمداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاها وإن كان مدموحا استدركه أن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه إذا فعل ذلك وجد افعاله لانتفك من أربعه أحوال: إما أن يكون قد أصاب فيها الفض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها أو يكون قصر فيها فانه، فانه، فانه. وهذا التصرف إما هو استطوار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم له مواقف الأصابات. ويتزهب استدراك الخطأ. وقد يقبل من كثرة اعتباره قل عاتره. وكما يتصرف احوال نفسه فكنا يجب أن يتصرف أحوال غيره فربما كان استدركاً كه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظهر بصواب وجدته من غيره أو اعتج به جليل من فعله نين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصرف أفعال غيره فافتدى بأحسنها وانتهى عن سيئتها. وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «السعيد من وعظ بيده» . وقال الشاعر:
إن السعيد له من غيره عزالة وفي التجارب تحكيم ومعتبر،
وأرشدنا بعض أهل العلم لطاهر بن الحسين.
أذا أعجبتك خصال أخري فكن منك ما يعجبك فليس على الجسد والأسماء.
أذا جنتها حاجب يعجبك فأما ما يروه من أعماله ويؤثر بالقدام عليه من مطالبه فيجب أن يمد الفكر فيه قبل دخوله فإن كان الراجا في أغلب من الاياس منه وحمدت العاقبة فيه سلكته من أسلوب مطالبه وألف طقف جهاته وبقدر شرفه يكون القدام وإن كان الاياس اغلب عليه من الراجع مع شدة التغري ودعاية الأمر المتضامن ليخذ أن يكون له متعرضا فقس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا ختمت بأمر ففكر في عاقبة فان كان رشدا فامضه وإن كانت عيا قانته عنه ولقت الحكمة طلب ما لا يدرك عجز كه كلا شيء
فياك والأمر الذي ان توسع موارده ضاقت عليك المصادر
في حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عازر وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفي كل وقت من أوقات دهوره عما لا فان تخلق في كبره بأخلاء الصغر وتعاطى أفعال الكفاهة والبشر استصغره من هو أصغر وتحتره من هو أقل واحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر:
وككل بازيمه هرم تخرا على رأسه العصافير.
فكن أيها العاقل مقبل على شائك راضيا عن زمانك ساما لأهل درمرد جارية على عادة عصرك متناذا من قدماك الناس عليك متحنا على من قدماك الناس عليك ولاتباعهم بالعزلة عنهما فيقوتك ولا تجاهمهم بالمجالفة لثم فعادوك فانه لا عيش لتموت ولا راحة لمعادي وآنشد بعض أهل الأدب لبعضهم:
إذا اجتمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد
فقد فساد إجاعهم دوهم على عقلته أنه فاسد
واجع نصح نفسك غنية عنك ولاتدهم باخفاء عيبك وإظهار
عرك فيصير عدوك أحظه منك في زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك
من نفسك التي هي أخص بك لاغراك لها باأذارك ومساءتك فحسبك
سواء رجل ينتفع عدوه وبسر نفسه. وقال بعض الحكاء أصلح نفسك
نفسك يكن الناس تبعا لكم. وقال بعض البلاء من أصلح نفسه ارغم
أنف أعاديه ومن أعده جده بلغ كنه آمنيه. وقال بعض الأدباء من
عرف مقابله فلايلم من عليه وأشداني أبوتات النحو لبعض الشعراء
ومصورة عيناه عن عيب نفسه ولو كان عيب من أخيه لأبصارا
ولو كان هذا الإنسان ينصف نفسه لامسك عن عيب الصديق وقصرا
فهذب ابهي الإنسان نفسك بانتكار عيب بك وانفعها كنفعك لعドルك
فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ. أعاننا الله وإياك
على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وحسبنا الله وكنى.